كامل اسماعيل الشريف

صفحة من التاريخ الاسلامي

الإخوان المسلمون



في حرب فلسطين..

الإخوان المسلمون

في

حرب فلسطين

هدية الى الأستاذ الكبير محمد على الطاهر بك مع أطيب التحيات

تأليف

كامل اسماعيل الشريف

الطبعة الأولى

١٣٧٠ هـ — ١٩٥٠ م

القاهرة

مطبعة دار الكتاب العربي

١٩٥١

بسم الله الرحمن الرحيم

« إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ
وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ
الْكَافِرِينَ » .

(قرآن كريم : سورة آل عمران)



الإمام الشهيد (حسن البنا)
مرشد الإخوان المسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وصلاة وسلاما على سيدنا محمد رسول الله ، وعلى آله وصحبه ومن والاه . وبعد

فإنى قد ترددت كثيراً قبل أن أكتب هذه الصفحات عن جهاد الإخوان المسلمين فى فلسطين ، مخافة أن يظن الناس أنى أقصد من وراء ذلك دعاية للإخوان أو تفاخراً بأعمالهم وجهادهم ، والإخوان بحمد الله أزهد الناس فى الدعاية وأشدهم عزوفا عن الضجيج والإعلان ، ثم إن النتيجة العامة للحرب ليست مما يشجع أحداً على الفخر ببطولته مهما كان شجاعا ، أو بجهاده مهما كان مخلصاً فى هذا الجهاد .

والناس من يلق خيراً قائلون له   ما يشتهى ولأم المخطىء الهبل

وهذه الهزيمة التى منينا بها فى فلسطين ليست هزيمة لطائفة دون أخرى ، ولكنها هزيمة تقع على الأمة الاسلامية كلها ، ويشترك فيها الصغير والكبير ، وهذا الجيل والأجيال التى تليه ، والإخوان يحسون بهذه الهزيمة ، ويجترون مرارتها ، ولن يخفف من وقعها على أنفسهم أنهم أخلصوا النية فى جهادهم ، وبذلوا أقصى ما يستطيعون من جهد ليحولوا دون وقوع الكارثة الرهيبة .

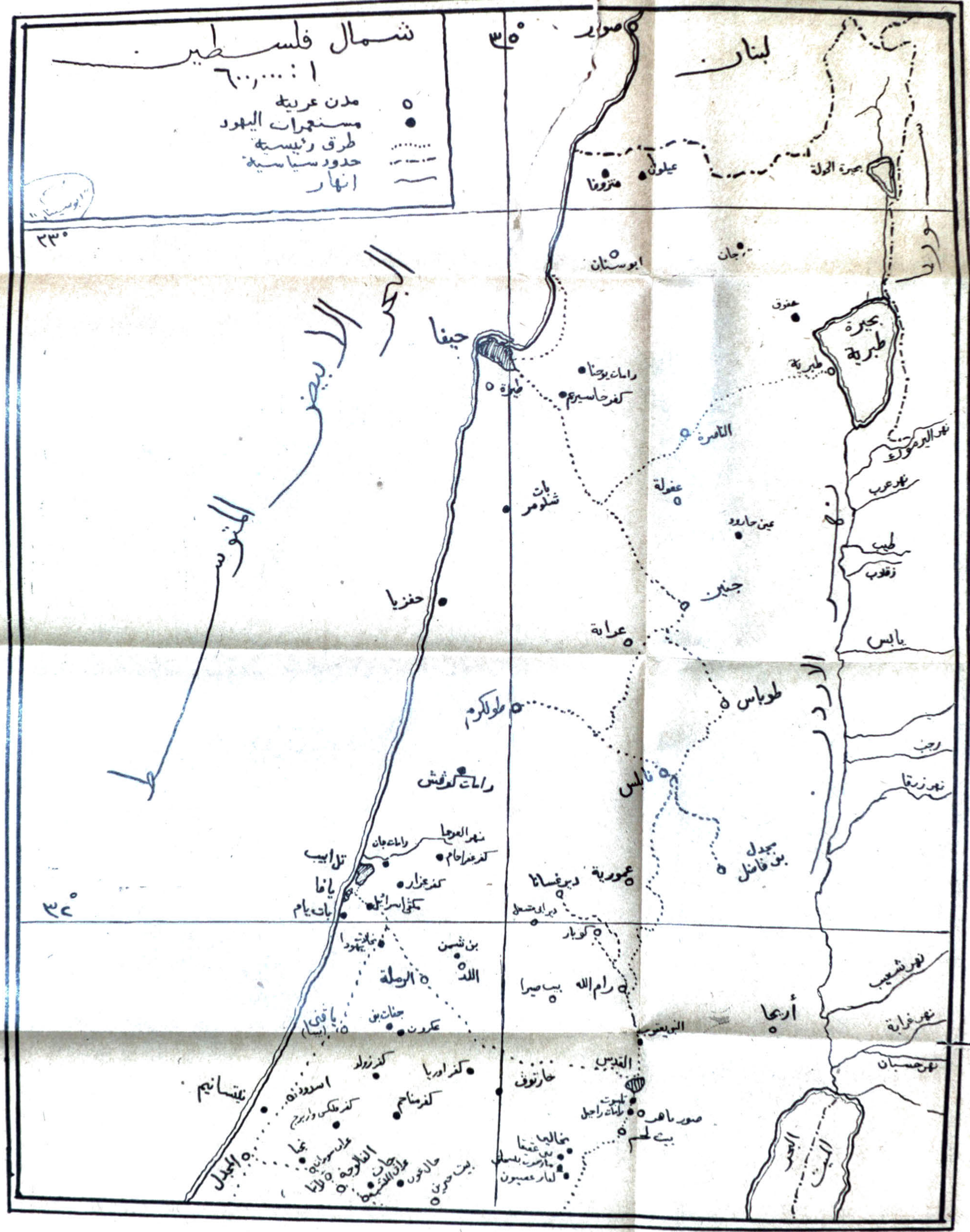
ولقد سردت الهزائم كما شهدتها من غير (رتوش) ولا مواربة ، ذلك لأنى أعتقد أن الهزائم هى الوسيلة إلى النصر ، وأن الذى لا يهزم لا يعرف كيف ينتصر ، وليس عيباً أن تهزم الشعوب ، ولكن العيب كل العيب

أن تستنيم هذه الشعوب للهزيمة ، وتستسيغ الراحة والدعة تحت ذكرياتها ونتائجها ، وكما أن معرفة الداء هي أول مراحل العلاج ، فإن معرفة الأخطاء هي أول مراحل النجاح ، ومن هنا حاولت أن أعالج ظروف الحرب الفلسطينية وأسباب الفشل فيها بشيء غير قليل من الصراحة ، وهو ما سيراه القارىء بارزاً في كل جملة من هذه الصفحات ، فإن ضياع فلسطين وتشريد أهلها وهزيمة الإسلام فيها ، كل هذه عندي أهم بكثير من إرضاء حاكم أو قائد أو زعيم ، ولأنى أريد أن أضع الحقائق المجردة — على ما فيها من مرارة وقسوة — بين يدى الجيل الجديد ، عساه يتخذ من هزائمنا جسراً يصل به إلى النصر الحاسم ، ومن أخطائنا وهفواتنا دروساً يستنير بها يوم يبدأ زحفه الميمون لتطهير الأرض المقدسة من أرجاس الإنسانية ونفايات الشعوب .

ولعل من حسن الحظ أيضاً أن يصدر هذا الكتاب وقد زالت محنة الإخوان — أو كادت — وتبددت سحب الباطل أمام شموس الحق الساطعة ، وأسفرت السماء عن وجهها الصبوح كما كانت دائماً وكما يجب أن تظل دائماً ، وبدأ الشعب يحس أنه كان مخدوعا حين خضع لتأثير الدعاية المسمومة التي دبرتها حكومة الطغيان ، وساهمت فيها الصحافة المغرضة بنصيب وافر ، والتي حاولت فيها أن تنال من هذا الجهاد البرىء ، لتظهره للناس في صورة مظلمة على أنه بداية لحركة ثورية كبرى أريد بها إضرام حرب أهلية في مصر ، وإغراق شعبها الآمن في لجة من الدماء .

فإلى الجيل الجديد من شباب الإخوان المسلمين حيث يتركز الأمل الباسم للاسلام وشعوبه ... وإلى المهاجرين من أهل فلسطين حيث يهيمون على وجوههم في انتظار ساعة الخلاص ... أهدى هذه الصفحات راجياً أن تنال القبول ، والله من وراء القصد وهو نعم النصير .

المؤلف



شمال فلسطين
١ : ٦٠٠,٠٠٠
مدن عربية
مستعمرات اليهود
طرق رئيسية
حدود سياسية
انهار
٣٣°
٣٢°
٣٥°
لبنان
سوريا
البحر الابيض المتوسط
صور
عيلون
متزوبا
بحيرة الحولة
لوجان
ابوستان
عفوق
بحيرة طبرية
طبرية
حيفا
طيرة
رامات يوحنا
كفر حاسيديم
الناصرة
نهر اليرموك
نهر عرب
بات شلومو
عفولة
عين حارود
طيب
زقلاب
حفزيبا
جنين
عرابة
يابس
الاردن
طوباس
طولكرم
نابلس
رجب
نهر زرقا
رامات كوفش
نهر العوجا
رامات جان
تل ابيب
كفر عزراحام
يافا
كفر عزاد
مكفي اسرائيل
بات يام
عمورية
ديرغسانة
مجدل بني فاضل
دير ابي مشعل
كوبار
نحلات يهودا
بن شمين
الرملة
اللد
رام الله
بيت صيرا
أريحا
نهر شعيب
جنات بني
عكرون
يافي (يبنا)
البويعيري
نهر غرابة
القدس
نهر حسبان
كفر زرولد
كفر اوريا
اسدود
كفر منساح
كفر ملكي وزيوج
خارتوف
تلبيوت
رامات راحيل
صور باهر
بيت لحم
نيتسانيم
المجدل
البحر الميت

١ — فذلكة تاريخية

[إن بريطانيا إذا حكمت أمة مائة عام ،
فإن سياستها تحكم بعدها مائة عام أخرى]
(. . . . .)

فلسطين بلاد عربية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، تلك حقيقة واضحة وضوح الشمس فى رائعة النهار ، ولكن أبت السياسة الانجليزية الاستعمارية إلا أن تجعل منها قضية شائكة متشعبة ، وأن تجعل من شعبها البائس كبش الفداء أمام سلطان اليهود ونفوذهم . ولن تجد مشكلة لعب فيها الاستعمار دوراً رئيسياً كهذه المشكلة ، ولعلنا لانتجاوزالحقيقة إذا قلنا إن بريطانيا هى التى خلقتها لتحقيق خطة مرسومة ، فالمعروف أن اليهود إضطروا فى أواخر القرن الماضى من جراء المذابح الهمجية التى وقعت عليهم فى عهود الطغيان إلى التفكير فى إيجاد وطن قومى يحتمون بجنسيته ويكون ملاذا لهم إن هبت عليهم العواصف وأصبحوا هدفاً لطغيان جديد . ولم تكن فلسطين هى هدفهم الأوحد لكنهم اختلفوا فى تحديد الأرض التى يلجأون إليها . وكانت فلسطين إحدى المواطن التى فكروا فيها لما لهم بها من صلات تاريخية ترجع إلى آلاف السنين ، وكانوا يعلمون حقيقة الصعاب التى تعترضهم فى الوصول لهذه الغاية ، ففلسطين فى ذلك الحين كانت جزءاً من أملاك الدولة العثمانية ، فوق ما تحتله من مكانة خاصة فى نفوس العرب والمسلمين ، فحاولوا جس النبض فى عاصمة آل عثمان ، وتوجه زعماؤهم إلى الباب العالى يلتمسون شراء بعض الأراضى واستثمارها ، غير أن السلطان

قابلهم بجفاء وغلظة ، مما جعلهم ينصرفون عن التفكير فى هذا الشأن حتى قامت الحرب العظمى فى عام ١٩١٤ وتغيرت تبعاً لنتيجتها أوضاع كثيرة فى العالم ، وورثت بريطانيا وحليفاتها تركة الرجل المريض بمقتضى معاهدة « سايكس بيكو » فى مايو ١٩١٦ ، وآلت فلسطين إلى بريطانيا ، فوجدها



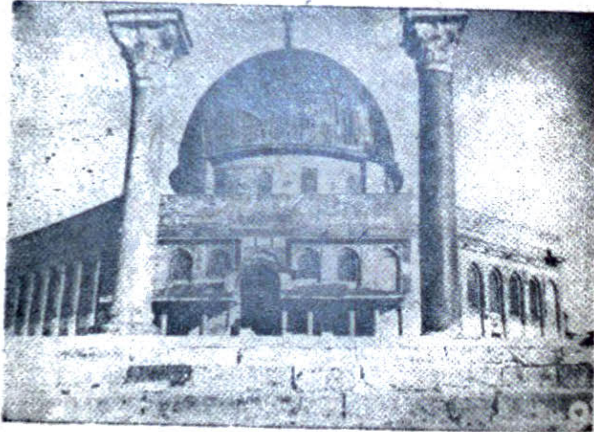
منظر عام لمدينة القدس الشريفة

اليهود فرصة سانحة وقاموا يعاودون السعى ، فلم يجدوا هذه المرة إعراضاً وجفاء ، ولكن وجدوا تأييداً وعطفاً شاملا ، مما أغراهم بمضاعفة الجهود والسير بالفكرة نحو التنفيذ . كان هناك شبه اتفاق بين دول الحلفاء والجماعات اليهودية على إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ، واستطاعت الفكرة الصهيونية أن تكسب نصراً جديداً حين مثل بعض زعمائها أمام عصبة الأمم ، وترك للجنة منهم رسم الخطة التى تنتهجها دول الحلفاء لإبراز الفكرة إلى عالم الوجود ، ومن هنا جاء صك انتداب فلسطين ضربة قاصمة لآمال العرب مشجعاً لليهود فى مواصلة الكفاح ، ويكفى لابراز

الشذوذ الذى كان يرافقه أن نثبت بعض ما جاء فى نصوصه الرسمية ، فقد جاء فى البند الثانى من ذلك الصك ما نصه :

« تكون الدولة المنتدبة « أى بريطانيا » مسئولة عن جعل البلاد فى أحوال سياسية وإدارية واقتصادية تكفل إنشاء الوطن القومى اليهودى » .

وجاء فى المادة الخامسة ما نصه :



قبة الصخرة والمسجد الأقصى

« يعترف بهيئة يهودية صالحة كهيئة عمومية لتشير وتعاون فى إدارة فلسطين فى الشئون الاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك مما يؤثر فى إنشاء الوطن القومى اليهودى ومصالح السكان اليهود فى فلسطين » .

ونلاحظ أن صك الانتداب قد حوى كل هذه الضمانات لليهود حين كان عددهم فى فلسطين لا يكاد يتجاوز ٦ ٪ من مجموع عدد السكان ، ومما يؤكد تدخل الانجليز ليخرج الصك على هذه الصورة الشاذة أن

نصوصه لم تخرج فى معناها عن الوعد المشهور الذى وجهه اللورد (بلفور) وزير خارجية بريطانيا فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ إلى البارون روتشيلد الزعيم الصهيونى الانجليزى والذى جاء فيه « إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين وسنبذل جهدنا لتسهيل تحقيق هذه الغاية ، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن يضير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » وواضح ما فى هذا التصريح من تناقض عجيب . فإن مجرد التفكير فى إقامة وطن قومى لليهود يضر أبلغ الضرر بالطوائف غير اليهودية وهم أهل البلاد والغالبية العظمى من السكان .

٢ — بريطانيا تغرر بالعرب

(اليوم انتهت الحرب الصليبية)
مارشال اللنبي

حاولت بريطانيا تخدير العرب ، والتقليل من أهمية هـذا الخطر فأصدرت عدة تصريحات تشير إلى أن الوطن القومى لا يعنى قيام حكومة



حائط المبكى حيث يحج له اليهود من شتى بقاع العالم

يهودية ، وإنما لايزيد عن كونه وطناً روحياً لليهود تماما كالفاتيكان للمسيحيين أو مكة للمسلمين و « لإظهار مواهب اليهود الثقافية وتمكينهم من ممارسة حريتهم الدينية » وأكدت فى الكتاب الأبيض الذى أصدره المستر (باسفيلد) وزير المستعمرات البريطانى فى عام ١٩٣٠ « أنها لاترمى إلى إنشاء حكومة يهودية لأن « كل محاولة لتوسيع الوطن القومى إلى نقطة أبعد

من تلك التى وصل إليها يعتبر خرقاً للعهود المقطوعة للعرب » . بيد أن هذه الوعود الزائفة لم تمنع بريطانيا من السير فى خطتها المرسومة ، وأخذت تضع الوسائل لإنجاز المهمة التى انتدبت من أجلها فى فلسطين ، فبدأت بتعيين إدارة إنجليزية أغلب موظفيها من اليهود أو من الإنجليز الذين اشتهروا بعدائهم للعرب ، فعينت السير « هربرت صموئل » اليهودى مندوبا سامياً لها فى فلسطين ، وعينت « نورمن بنتوينتش » اليهودى نائبا عاما للحكومة وتركت له سن التشريعات والقوانين التى تسير عليها الإدارة ، وملأت المناصب الكبرى بالموظفين اليهود ، ثم فتحت باب الهجرة المشروعة على مصراعيه حتى زاد عدد اليهود أضعاف ما كان عليه قبل عهد الانتداب ، فبينما كان عددهم لا يزيد عن خمسين ألف نسمة فى عام ١٩١٦ وصل الرقم لأكثر من نصف مليون فى عام ١٩٤٠ ورغم هذا العدد الهائل الذى وصل بطريق الهجرة المشروعة ، فقد أخذوا ينظمون خطة واسعة لتهريب مئات الألوف من اليهود المقيمين فى مختلف بلدان أوربا ، وكان المفروض أن ينتقل إلى فلسطين اليهود البؤساء الذين ضاقت بهم سبل العيش وذاقوا مرارة الحرمان فى معتقلات النازية ، ولكن قلة تافهة من هذا العدد هى التى كان ينطبق عليها وصف المشردين ، أما الباقين فكانوا من الرجال الأشداء الذين حشدوا لغرض سياسى خاص ، وقد أوضح الجنرال « مورجان » رئيس منظمة « الأونرا » وهى المنظمة التى كانت تشرف على تهريب اليهود إلى فلسطين حقيقة الخبر حين قال « إن هؤلاء المهاجرين ليسوا مشردين ولا بؤساء وإنما يحشدون لمهمة سياسية لا تمت للانسانية والإنقاذ بسبب من الأسباب » . وكانت بريطانيا تتعلل أمام العرب بعجزها عن وقف تيار التهريب بينما كانت ناجحة أبلغ النجاح فى منع أى عربى من دخول فلسطين متى دعت الضرورة إلى ذلك ، وكما وقفت أمام الإخوان المسلمين مما سيأتى بيانه

بعد حين . وكانت حركة التهريب وإيواء اللاجئين تحتاج إلى أموال طائلة يعجز عن توفيرها يهود فلسطين بمفردهم ، فلم تدخر الحكومة البريطانية جهداً فى تسهيل السبل أمام وفودهم ليجوبوا أنحاء العالم ويستحثوا إخوانهم من اليهود على بذل التبرعات الضخمة . وكان هذا يحدث فى بريطانيا نفسها وتتولى الحكومة مهمة نقل هذه الأموال وتسهيل وصولها وصرفها . ولقد حاول العرب تقليد اليهود فى هذه الحركة وطلبوا السماح لوفودهم بالطواف فى بلدان العالم الإسلامى لجمع التبرعات والاعانات وصرفها فى استنقاذ الأراضى وتنفيذ مشاريع الإصلاح ، ولكن السياسة المتقلبة كانت تضع فى وجوههم كافة العراقيل ، وكمثال لذلك يكفى أن نذكر أن وفداً من المؤتمر الاسلامى العالمى الذى انعقد فى القدس عام ١٩٣٣ سافر إلى الهند ليتولى جمع التبرعات من مسلميها ، ولقى هناك اقبالا عظيما وترحيبا فائقاً حتى أن نظام حيدر أباد تبرع بمليون روبية ، وتبرع مولانا طاهر سيف الدين سلطان (البهرة) بحوالى نصف المليون ، كما تبرع كثير من زعماء المسلمين وقادتهم بمبالغ كبيرة ، غير أن الحكومة البريطانية فطنت لخطورة هذه الحركة ، فأرسلت إلى حاكم الهند العام بلاغا سريا تأمره بوقف هذا النشاط واتخاذ كل وسيلة لمنع تصدير هذه الأموال بحجة (أن ذلك مخالف لسياسة حكومة جلالة الملك فى فلسطين) كما جاء فى نصوص هذا البلاغ . ولم تقف معونة بريطانيا عند حد تسهيل السبل أمام اللاجئين وتمويلهم بل عمدت إلى سن تشريعات وقوانين تكفل انتقال الأرض العربية إلى اليهود عن طريق الضرائب الباهظة التى أثقلت بها كاهل الفلاح العربى ، وعن طريق تنازلها لليهود عن الأملاك الأميرية ومعظم الأراضى البور ، حتى بلغ ماوقع فى يد اليهود من جراء هذه الخطة حتى عام ١٩٣٨ أكثر من ٢٢ ٪ من مجموع الأراضى بينما كانت أملاكهم قبل الانتداب لا تزيد عن ٣ ٪ من مجموعها ، ورأى

العرب أن أرضهم توشك أن تتقرض من جراء هذه السياسة الغاشمة فالتمسوا من الحكومة تخفيف ضرائب الأملاك ، ومراعاة الفارق بين مستوى الفلاح اليهودى والفلاح العربى سواء فى ناحية المال أو الإنتاج ، ووضع قيود تكبل انتقال الأرض بهذه الصورة ، خاصة وأن اليهود كانوا يدفعون مبالغ خيالية إذ كان المتر الواحد يصل فى بعض المناطق إلى مئات الجنيهات ، ولكن الحكومة استمرت فى طريقها المرسوم مما اضطر الشباب العربى إلى إعلان حركة إرهابية على السماسرة والبائعين وأدى ذلك إلى اغتيال عدد من الخونة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر :

توفيق محمد الشنطى	يافا
سعيد الشنطى	يافا
الأمير محمد الزناتى	حيفا
إبراهيم بك الخليل	حيفا
خليل طه	حيفا
فوزى درويش	القدس
عبد الرحمن العزة	الخليل

وتعددت محاولات كثيرة لاغتيال عدد آخر لكنها فشلت وغادر أكثر السماسرة البلاد إلى الأقطار العربية المجاورة حيث لا يزالون يعيشون فيها عيشة بذخ وإسراف وتحيط بهم هالة من الإكبار والتقدير . . . ! !

ولم يكن فى وسع الشباب العربى أن يفعل غير هذا ، إذ لم تكن لديهم — كما أسلفت — وسائل التنظيم والتمويل ، ولم يكن إخوانهم فى أقطار العروبة جادين فى معونتهم رغم المشاريع التى اقترحت ، والمؤتمرات التى انعقدت وتمخضت كلها عن قرارات كثيرة « خطيرة » لم يكن لها أثر مطلقاً إلا فى عوالم الحبر والورق . غير أن هذه الحركات الإرهابية — رغم

أنها لم توقف حركة البيع والسمسرة — جاءت بالنتائج الوخيمة. إذ خلفت وراءها جراحاً عميقة ، وخلافات شديدة بين القبائل التى ينتمى إليها المقتولون وبذلك حقق الاستعمار هدفين من أهدافه فاستمر فى نقل الأرض العربية لليهود ، وطبق نظريته التقليدية العتيدة (فرق ... تسد) . وهكذا انتقل كثير من الأرض العربية إلى اليهود وانتقل معها التفوق الكامل سواء فى التجارة أو الصناعة ، ففى الصناعة منحت حكومة الانتداب لليهود كثيرا من المشاريع الهامة كشركة الكهرباء الفلسطينية ، وشركات استغلال معادن البحر الميت وغيرها أما فى التجارة فقد ابتدعت أساليبا عجيباً فى معاملة التجار العرب والتضييق عليهم ففرضت ضرائب باهظة على الواردات حتى تفتح الأسواق أمام الصناعات اليهودية المحلية ، على أن هذه السياسة المستترة لم تلبث أن وضحت وضوحاً سافراً حين أخذت بريطانيا تدرب الشباب اليهودى على القتال ، وتفتح السبل أمامه لتشكيل الفرق واستيراد الأسلحة ثم تمكنه من الاستيلاء على مخازن السلاح ومواقع الدفاع المنيعة ، ولم تغادر أرض فلسطين إلا بعد أن اطمأنت إلى تسليح المستعمرات والقرى وتحصينها ، ثم كشفت القناع نهائيا عن وجهها البغيض حين أسلمت لليهود أمهات المدن والموانئ العربية ، وتنازلت لهم عن خط « إيدن » المنيع فى شمالى فلسطين .

٣ — العرب يدافعون عن حقوقهم

[إن أهداف الصهيونيين هى إبادة العرب
جميعا وإقامة هيكل سليمان محل المسجد الأقصى]
دكتور ليدر
رئيس اللجنة الصهيونية

ما كادت الحرب العامة الأولى تضع أوزارها حتى شملت البلاد العربية موجة من اليقظة والنشاط ، فقامت تطالب بحقوقها وتستنجز دول الحلفاء الوعود التى قطعتها على نفسها للشريف « حسين » عاهل الحجاز بمنح البلاد العربية استقلالها ، وإحياء مجد الوحدة العربية البائدة ، وكان العرب يظنون أن الطريق ممهدة أمامهم لنيل هذه الحقوق بعد ما أعلن الرئيس « ولسن » مبادئه الأربعة عشر ، التى أكد فيها حرية الشعوب وحقها المقرر فى تقرير مصيرها ، غير أن هذه الوعود والعهود لم تلبث أن تلاشت وعلم العرب أنهم كانوا مخدوعين حين وقفوا فى صفوف الحلفاء متأثرين بالدعايات الباطلة والوعود الكاذبة ، فسرت فى البلاد العربية موجة من الحنق لم تلبث أن تحولت إلى عراك مسلح فنشبت الثورات الدامية فى العراق والشام وغيرها ، هذا فى البلاد العربية أما فى فلسطين فقد كان الوضع أخطر من هذا بكثير إذ كان على عرب فلسطين أن ينازلوا عدوين كبيرين فى ميدان واحد ، كان عليهم أن ينازلوا الاستعمار البريطانى ممثلا فى حكومة الانتداب ، وأن يحاربوا أهداف الصهيونية ربيبته وصنيعته ، وبصدور صك الانتداب ومن ورائه وعد بلفور ، شعر العرب بخطورة المؤامرة التى تدور حولهم ، فقاموا يدافعون عن حقوقهم بالقوة بعد أن يئسوا من نزاهة الضمير البريطانى

وتذكيره بالعهود التى قطعها على نفسه ، وأصبحت فلسطين منذ ذلك الحين مسرحا لثورات دامية ومعارك عنيفة بين الثوار وقوات الاحتلال ، ولا تكاد الثورة تبلغ شدتها حتى يصدر الانجليز وعداً جديداً ويأمروا بتأليف لجنة من رجالهم لدرس الحالة واتخاذ الوسائل التى تكفل حقوق العرب ؛ فتتوقف الثورات وتباشر اللجان أعمالها وتقدم تقاريرها وتكون النهاية وعد جديد يضم إلى الوعود التى سبقته ، بينما تستمر الحكومة فى خطتها المرسومة من تقوية اليهود وتثبيت جذورهم ، حتى كان عام ١٩٣٦ حين أعلن العرب فيه الاضراب الكبير الذى استمر ستة شهور طوال ، وتعطلت فيها مرافق البلاد ومدارسها وجابت المظاهرات السلمية أنحاء البلاد مطالبة بوقف الهجرة وقيام حكومة وطنية ، وحاول الانجليز قمع هذه الحركة بالقوة فبدأ احتكاك بين الحكومة والشعب لم يلبث أن تحول إلى ثورة لاهبة واستعصم المجاهدون بالجبال الوعرة ، ومضوا يغيرون على قوافل الانجليز ومعسكراتهم ، وقلقت بريطانيا لهذه الحالة قلقاً شديداً فأخذت تبعث بفرق كبيرة من الجيش لتطارد المجاهدين فى قمم الجبال وكانت هذه القوات مجهزة بأسلحة حديثة معززة بالطائرات والدبابات ، وبلغ من قلق بريطانيا لهذه الحالة وتلهفها على إنهائها أن وكلت لقائدين من أكبر قوادها إدارة العمليات الحربية ضد الثوار ، وهما على التوالى الجنرال « سير جون ديل » والجنرال « سير ارشيبالد ويفل » والأخير هو الذى سطع نجمه فى مواجهة الهجمات النازية والفاشية على مصر خلال الحرب العالمية الثانية .
وارتكب الانجليز فى هذه الفترة من الجرائم الوحشية ما يندى له الجبين فدمروا المنازل وأحرقوا القرى وتركوا المدن نهباً مباحاً لجنودهم ، وأخذوا يسوقون الناس جماعات لأعواد المشانق ، ويفرضون أقصى العقوبات على من

يشترك فى الثورة بطريق مباشر أو غير مباشر ، حتى إنهم كانوا يحكمون بالاعدام على من توجد فى حوزته طلقة ذخيرة فارغة ! كل هذه الأساليب البربرية استعملتها بريطانيا فى كبح الشعب الأعزل وصرفه عن حقوقه المشروعة ، غير أنها رأت أن هذه الأعمال لم تزد النار إلا اشتعالا ، ولم تزد الشعب إلا تمسكا بحقوقه والدفاع عنها ، فعمدت إلى أسلوب جديد وطالبت ملوك العرب وأمرائهم بالتدخل لانهاء الحالة المضطربة فى البلاد ، فأصدر الملوك والأمراء نداءات للمجاهدين يطلبون فيها إنهاء الثورة ويعدون بالتدخل الحاسم لحفظ حقوق العرب المشروعة فى فلسطين ، وانخدع العرب هذه المرة أيضا وكيف لايستجيبون لنداء ملوكهم وأمرائهم ومنهم من يقول إن فلسطين « بؤبؤ عينه » ، ومن يعلن أنها أعز عنده من أهله وولده ، فأعلنوا نهاية الثورة وتألفت لجنة مشتركة لبثت فى فلسطين فترة طويلة ثم قدمت تقريرها فى عام ١٩٣٧ ، ولم تكن هذه اللجنة بأحسن حظا من زميلاتها من اللجان ، لأن حكومة الانتداب كانت تتصرف حسب خطة مرسومة وتعمل لتحقيق الغرض الذى وجدت من أجله والذى حدده صك الانتداب وهو قيام دولة يهودية فى فلسطين . غير أن هذه اللجنة أشارت بتقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين وكانت هذه هى المرة الأولى التى أشير فيها بتقسيم فلسطين ، ولقد صمم عرب فلسطين على استنكار هذا المشروع وإحباط تنفيذه وشاركهم فى ذلك حكومات العالم العربى وشعوبه ، غير أن الحكومة البريطانية أبدت ارتياحها لهذا المشروع وأظهر اليهود موافقتهم عليه كخطوة أولى لتحقيق الهدف الكبير ، ولم تلبث الاضطرابات أن عادت للظهور احتجاجا على مشروع التقسيم ، فاضطرت الحكومة البريطانية إلى التضيق على العرب والقيام بحركة اعتقالات واسعة لقادة الشعب وزعمائه ، وحاصرت الحرم الشريف الذى يقيم فيه المفتى

وعزلته من منصبه الدينى كرئيس للمجلس الإسلامى الأعلى ، وأمام هذا الارهاب العنيف لم يجد العرب بدا من مقاومة العدوان بمثله فاشتعلت الثورة واشتبك الفريقان مرة أخرى فى عراك دام استمر إلى منتصف عام ١٩٣٩ ثم توقف حينما اشتعلت الحرب العالمية الثانية ورؤى تأجيل النظر فى القضية حتى نهاية الحرب .

وبعد نهاية الحرب تجددت المشكلة من جديد وقام العرب يطالبون بريطانيا بإنهاء الانتداب البريطانى وإقامة حكم وطنى يحقق للبلاد سيادتها واستقلالها ، وقام اليهود أيضا يستنجزون بريطانيا وعودها ويضغطون عليها بمختلف الوسائل ليرغموها على تسليم البضاعة ، وظهر هذا الضغط فى صورة إرهاب عنيف شنته العصابات اليهودية على قوات الاحتلال ، فاضطرت الحكومة الانجليزية لايفاد لجنة انجليزية أمريكية بالاتفاق مع حكومة الولايات المتحدة لبحث المشكلة ووضع تقرير يتضمن وسيلة علاجها ، ولقد انتهت هذه اللجنة من سياحتها فى عام ١٩٤٧ وقدمت تقريرها الذى ارتأت فيه تقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية ، وظل هذا المشروع موضع أخذ ورد حتى عرض على هيئة الأمم المتحدة التى أقرته بأغلبية ٢٥ صوتا ضد ١٣ مع امتناع ١٧ عضواً عن الاقتراع ، ولقد حاول مندوبو العرب منع تنفيذ هذا المشروع بكل الوسائل ، وحملوا هيئة الأمم المتحدة مسئولية المتاعب التى ستنشأ عن تنفيذ هذا القرار ، وأعلنوا متضامنين أن حكوماتهم ستمنع تنفيذه بكل وسيلة . وما كاد قرار التقسيم يذاع على العالم فى ٢٩ نوفمبر من عام ١٩٤٧ حتى انفجرت القنبلة التى أحسنت بريطانيا شحنها طيلة ثلاثين عاما ، وتحولت الأرض المقدسة إلى ساحة حرب عنيفة ، ولم يلبث هذا الانفجار أن أحدث تأثيره فى العالم العربى فقامت شعوبه وهيئاته تطالب حكوماتها بالتدخل فى الصراع القائم حتى تحفظ حقوق العرب فى فلسطين .

٤ — فلسطين بين قوتين

ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين .
« قرآن كريم »

نحن الآن فى شهر نوفمبر من عام ١٩٤٧ والعالم كله يرقب باهتمام النتائج التى توشك أن تتمخض عنها لجان فلسطين فى مجلس الأمن ، والعالم العربى يمسك أنفاسه جزعا على مستقبل شقيقته الصغرى ، وكان الجميع يعلمون أن قرار التقسيم الذى يوشك أن يصدر سوف يحيل الأرض المقدسة مهد الرسالات والسلام إلى بركة من الدماء تتناثر حولها الجثث والاشلاء . فاضت الصحف العربية بأنباء الاستعدادات العسكرية التى تجرى فى فلسطين لخوض حرب عنيفة يتقرر فيها مصير الجنسين ، وكان اليهود يستعدون من زمن بعيد تحت ستار من الكتمان ساعدهم عليه امتلاكهم لمناطق برمتها لم يكن يستطيع عربى دخولها ، وكان زعماؤهم يقتصدون كثيرا من التصريحات الرنانة ، تاركين هذه المهمة لزعماء العرب الأماثل الذين كانوا يرسلون التصريحات العنيفة والتهديدات المرة ، كل من عاصمة حكمه بصورة كان من شأنها تحزب الرأى العام العالمى ووقوفه فى صف اليهود الضعفاء ! ! وكانت خدمة عظمى قدمها زعماؤنا الأمجاد من حيث لايشعرون ، ولكن رغم هذا التكتم كان من المعروف أن اليهود يملكون عدة منظمات عسكرية فى فلسطين وبعض بلدان أوربا الشرقية ، وكانت هذه المنظمات تزيد فى مجموعها عن الثمانين ألف جندى ، وقد شكلت على أساس حرب العصابات لتقاوم الهجمات العربية ، وكان أشهر هذه النظمات جيش الهاجانا « حراس

المستعمرات » الذى بدأ تشكيله إبان الحكم العثمانى على هيئة نظام الخفراء وظل يكبر وينمو تحت رعاية الانجليز حتى استطاع أن يكون جيشاً منظما كامل التدريب والاعداد ، ولقد ساعده على استكمال تدريبه إشتراك بعض وحداته فى حروب الصحراء خلال الحرب العالمية الثانية تحت اسم « الفيلق اليهودى » فإستطاع أن يتدرب تدريبا عسكرياً مشروعاً ويشاهد عن كثب تشكيلات الجيوش الكبيرة وتحركاتها ، وساعدته هذه الظروف كذلك على تهريب كمية كبيرة من العتاد وتخزينها فى مقاطعات مجهولة من أرض فلسطين ، ولقد حاولت بريطانيا أن تدارى موقفها فقبلت تطوع عدد من الشباب العربى فى جيوشها ، ولكنها بدل أن تشركهم عمليا فى الحرب كما صنعت مع اليهود إذا بها تشكل منهم مجموعات من « الحمالة » الذين يعملون فى الخدمات العامة وراء الخطوط ! وكانت كل القوات العسكرية اليهودية مندمجة فى هذا الجيش حتى قامت الاضطرابات العربية فى فلسطين عام ١٩٣٦ وحدث خلاف بين زعماء هذه الوحدات فنشأت عن ذلك جماعات متطرفة كانت تميل إلى العنف والإرهاب وهى التى عرفت فيما بعد باسم « أرجون زفائى ليومى » وجمعية « اشتيرن » الارهابية وهذه الأخيرة قامت بالدور الرئيسى فى أعمال الارهاب التى شنها اليهود على البريطانيين فى أواخر حكمهم ، وهى الأعمال التى اعترف الدكتور « حاييم وايزمان » رئيس الجمهورية الاسرائيلية » فى كتاب أصدره أخيراً بعنوان « الأخطاء والتجارب » والذى قال فيه بصراحة إن تلكؤ بريطانيا فى تنفيذ وعودها لليهود هى التى أثارت الجماعات اليهودية ودفعتها للقيام بأعمال الارهاب . ومن الفرق التى شكلت فى مطلع هذه الحرب فرقة « البالماخ » الفدائية وقد أنشئت على النمط الروسى وسلحت تسليحاً

حديثاً يتناسب مع الدور الرئيسى التى أعدت له وجلبت لها من الخارج سيارات مصفحة من النوع الذى يصلح للسير عبر الأرض الفلسطينية . وكانت جميع القرى والمستعمرات اليهودية مقامة على أساس عسكرى يناسب الدفاع والهجوم ، فكانت كلها محاطة بالاسلاك الشائكة وحقول الألغام مليئة بالأسلحة والمعدات .

كانت هذه الاستعدادات تجرى تحت سمع الحكومة البريطانية وبصرها وهى التى تولت تحصين المستعمرات وتسليحها ، وساعدت اليهود على إقامة مصانع الذخائر والأسلحة الصغيرة كتلك التى أقيمت فى « ناثانيا » و « الياجور » ، وإلى مثل هذه المصانع كانت تهرب أجزاء السيارات والدبابات من شتى بقاع العالم فتركب وتخبأ فى الأماكن المعدة لهذا الغرض حتى إذا جاء الوقت المعلوم خرجت من مخابئها لتهاجم الجموع الشعبية شبه العزلاء .

هكذا كان الاستعداد اليهودى يجرى لحرب الابادة التى عولوا على خوضها . أما الجانب الآخر من طرفى الصراع فكان على النقيض تماما رغم الثورات المتلاحقة التى خاضها والتى أظهر فيها من ضروب البطولة ما قل نظيره فى التاريخ ، فالشعب الفلسطينى ظل فى حالة حرب مع الصهيونية وحليفتها بريطانيا منذ أن صدر وعد بلفور ، وفى الوقت الذى كان يهود العالم كله يؤيدون إخوانهم فى فلسطين تأييداً إيجابياً ويمدونهم بالأسلحة والذخائر والكفاءات العسكرية ، كان الشعب العربى الفلسطينى يقف فى الميدان وحده ينازل دسائس اليهود والاستعمار ، ولا يجد من أبناء العمومة فى الأقطار العربية المجاورة أدنى عون أومساعدة ، اللهم إلا تلك المواقف المسرحية لمندوبى العرب فى المحافل الدولية .!

ولقد ظل هذا النوع من الجهاد هو المسيطر على عقول زعماء العرب ورجالهم حتى بدأ الصراع فعلا ، ولا يزال هو المسيطر على عقولهم حتى اليوم وبعد أن ظهرت النتيجة الحتمية لذلك الصراع . لذلك كله كان من الطبيعى

أن يبدأ القتال وليس هنـــاك تكافؤ بين القوى المتحاربة ، ولقد أدرك الشعب الفلسطينى ذلك فقام ينظم نفسه بعد أن سبق السيف العذل . فتشكلت فى مطلع هذه الحرب عدة منظمات عسكرية أخـذت تمارس التدريب على قدر ما تسمح به حكومة الانتداب ، فتشكلت منظمة « النجادة » وتشكلت بعدها « الفتوه » التى كان يشرف عليها الحزب العربى الفلسطينى ، وكانت جوالة « الاخوان المسلمين » مشكلة قبل ذلك بوقت قصير ، ولقد انخرط فى صفوف هذه المنظمات ألوف من الشباب ، غير أن القيود التى فرضها الانجليز على التسلح والتدريب وقفت حائلا دون إعدادها وتجهيزها ، فظلت مفككة لا يجمعها نظام ولا تربطها قيادة حتى بدأت المعركة وهذه الفرق لا تزال تدرب أعضاءها على السير فى طابورمنتظم ! ! ولم يكن فى استطاعة الشعب الفلسطينى أن يقوم بأى عمل جدى نحو إعداد نفسه فإن القيود التى فرضتها حكومة الانتداب كانت لا تزال تمنع الناس من إحراز الاسلحة فضلا عن الظهور بها والتدريب على استعمالها ، وإذن فانه لمن الظلم البين أن يلام الشعب الفلسطينى على هذا التقصير المشين ، ولكن اللوم كله يتركز فى زعماء الجامعة العربية الذين شغلوا أنفسهم بمعالجة القضية عن طريق المحادثات والمفاوضات والاعتماد على الوعود البريطانية الكاذبة ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة العمل الجدى فيقيموا لهم المعسكرات فى الدول العربية التى تتمتع بشىء من الاستقلال ويتولوا تدريبهم على أيدى الضباط الأكفاء ليكونوا على استعداد للدفاع عن كيانهم إذا جد الجد وطويت أوراق المحادثات وأصبح الحكم للقوة المسلحة . ومن الانصاف للواقع أن نقرر أن زعماء الدول العربية قد فكروا أخيراً فى سلوك هذا الطريق فقرروا فى إجتماع « عاليه » فى عام ١٩٤٧ افتتاح

معسكر على حدود سوريا وتكليف الهيئة العربية العليا باختيار عدد من خيرة الشباب من مختلف الجهات ليتدربوا على أعمال العصابات والاضطلاع بالقيادات الصغيرة ، حتى إذا أتموا التدريب رجعوا إلى بلادهم ليدربوا غيرهم، ويشرفوا على تنظيم حركة المقاومة فى مناطقهم ، هذه الخطة كانت هى الوسيلة الوحيدة لإنقاذ فلسطين ، وقد فهمها زعماء العرب بعد فوات الوقت ، ورغم ذلك فإن الحكومة البريطانية لم تسمح بتنفيذها ، ووجهت مذكرة إلى الحكومات العربية تستنكر فيها هذا التصرف وتعتبره عملا عدائياً موجهاً إلى مصالحها فى فلسطين . فانكمشت دول الجامعة أمام هـذه المذكرة وماتت الخطة فى مهدها وبدأ المعسكر يسرح الشباب الفلسطينى وظلت حركة المقاومة الوطنيـة تعتمد على جماعات من المحاربين لا تجمعهم خطة ولا قيادة .
وأرادت الجامعـة أن تنظم الحركة فى داخل البـلاد فعينت الفريق « طه الهاشمى باشا » واللواء « اسماعيل صفوت باشا » يعمل معهم عدد كبير من الضباط العراقيين والسوريين ، ومنحتهم سلطات واسعة وأموال كبيرة ، ووكلت لهم مهمة التنظيم والتدريب ولكنهم لم يقوموا بعمل جدى لانقاذ الموقف وبدل أن يعكفوا على تنظيم الجيش الداخلى فى البلاد والتحكم فى منابع القوة الدافقة والحماس العنيف فى الشعب الفلسطينى أخذوا يجمعون عدداً من المتطوعين من البلاد العربية ، وينفقون عليهم الأموال الباهظة ، ويجرون عليهـم الرواتب الضخمة ، ونسى هؤلاء القادة العباقرة أن فلسطين لم تكن فى ذلك الوقت فى حاجة إلى رجل واحد من الخارج ، بقدر ما كانت محتاجة إلى عقول تنظم القوة الموزعة وتوجهها وجهة سليمة ؛ وحتى هذه السرايا التى أتعب القواد أنفسهم فى إعدادها والانفاق عليها لم تأت بالنتائج المطلوبة إذ كانت ضعيفة إلى أبعد الحدود فى التدريب فوق أن أفرادها كانت تنقصهم الروح المعنوية العالية ، إذ كانت غالبيتهم من العمال



القائد العربى الشهيد (عبد القادر الحسينى)
قائد منطقة القدس

المتعطلين الذين ضاقت بهم سبل العيش فى بلادهم ووجدوا الجهاد فرصة سانحة للكسب ، فما كادوا يدخلون البلاد حتى تعددت حوادث السلب والنهب والتهجم على الأعراض والمتاجر .

اشتد إحساس العرب بخطورة الحالة وضعف أملهم كثيراً فى الجامعة العربية ولجنتها العسكرية ، ومضوا يواصلون إعداد أنفسهم بأنفسهم فانهالت وفودهم على البلاد العربية تستجلب الأسلحة والذخائر وتعتمد على الهيئات الشعبية فى جمعه وشرائه ، وتشكلت قيادات محلية فى فلسطين أخذت تباشر نشاطها فى مناطق مختلفة . وكان أشهر هؤلاء القادة على الإطلاق الشهيد « عبد القادر الحسينى » قائد منطقة القدس ، والشهيد « حسن سلامه » قائد المنطقة الوسطى .

ولقد كان « عبد القادر » قائداً عصابياً ماهراً ، وحوادث النسف والتدمير التى قام بها فى أحياء القدس اليهودية تشهد له — رحمه الله — بالبراعة والقدرة فى تنظيم الخطط وتنفيذها ، ولقد بلغ من قوة هذه الحركات ودقتها أن اعتقد الانجليز واليهود أنها لا يمكن أن تكون عربية إطلاقاً ، وأشاعوا أن القائمين بها ليسوا إلا متطوعين من الألمان واليوغسلاف ممن يشتركون فى الحركات وسبق لهم الاشتراك فى حروب برى ، وكنا جميعاً نعلم أنها حركات عربية صرفة يقوم بها العرب المجاهدون ممن يشرف على تدريبهم وتنظيمهم « عبد القادر الحسينى » وصحبه الأبرار .

ولا زلت أذكر له تلك المعركة التى قادها عند « كفار عصيون » على طريق الخليل — بيت لحم ، وكنت يومها فى مدينة الخليل وشاهدت كيف استطاع عبد القادر أن يحصر قوة يهودية مصفحة ويظل يصليها نيراناً حامية بعد أن ضرب حولها حصاراً لا فكاك منه حتى اضطرها

إلى الاستسلام . وكان عبد القادر يتفجر حيوية وحماسة ويعتقد أن هذه الانتصارات المدوية التي أحرزها وهو يكاد يكون أعزلا من السلاح سوف تشفع له عند أعضاء اللجنة العسكرية فتعطيه شيئاً من المال الكثير الذي أخذته من الجامعة وشيئاً من السلاح الذي جمع لها من كل بلاد العرب . ولكن اللجنة العسكرية لم تشأ أن تسير على قول القائل :

يجود علينا الخيرون بمالهم ونحن بمال الخيرين نجود

فرفضت الدفع ، ثم قبلت الدفع وماطلت في التنفيذ ، ثم تمطت ونفذت وكان المبلغ ٣٧٠ جنيها ، وتركوا لمقدرته وكفاءته مهمة توزيعها على ثلاثة آلاف جندي كانوا معه ، أما السلاح فقد قلبوا أيديهم منه ، وقد يكونون تركوا له شراء السلاح من هذا المبلغ أيضا ! وتردد «عبدالقادر» على اللجنة في تنقلاتها بين مختلف العواصم حتى يئس منها وقدم تقريرا إلى الجامعة في ٦ أبريل سنة ١٩٤٨ يحملها فيه ضياع فلسطين وكأنه قد شعر أنه أدى واجبه وأنذر ، إذ استشهد بطلا في معركة القسطل في ٨ أبريل أي بعد يومين من إرسال تقريره ، ومضى « عبد القادر » البطل إلى ربه يشكو له عدوان اليهود . . وعدوان اللجنة العسكرية للجامعة العربية .

أما حسن سلامه فلم يكن أحسن حظاً من صاحبه ، إذ عمل أقصى ما يستطيع للدفاع عن « يافا » والمنطقة الوسطى ، وأدار عدة معارك رائعة في منطقة « تل أبيب » قبل أن يلاقي حتفه في معركة « رأس العين » ، وبموت هذين القائدين تدهورت المقاومة العربية وفقدت أهم عناصرها وهي « القيادة » وظلت اللجنة العسكرية وجامعتها العربية تغط في نوم عميق ، لاتقطعه إلا أحلام النصر الحاسم والفوز المبين . كانت هذه الفوضى موجودة في فلسطين خلال تلك الفترة وقد شاهدت آثارها



القائد العربي الشهيد (حسن سلامة)
قائد المنطقة الوسطى



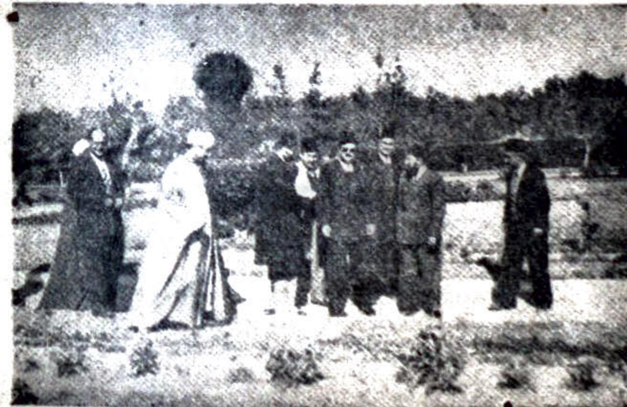
اللواء « عبد الواحد سبل بك »
- أرسلته الجامعة العربية لتنظيم المقاومة فى الجنوب
لكنه عاد حين رأى نفسه بلا رجال ... ولا سلاح .

بعيني وقت أن فرغ اليهود من إعداد أنفسهم وأخذوا يسيرون بفكرتهم نحو التنفيذ ، وكانت قواتهم المنظمة تتحكم فعلا فى جبهات القتال وتقضى على حركات المقاومة فى المدن والقرى واحدة تلو الأخرى ، ثم جاءت الجيوش العربية فقضت قضاء تاماً على الشعب الفلسطيني ، ووصمته بالتجسس والخيانة والعمل لصالح الأعداء ، وكان ذلك بفعل دعايات الانجليز واليهود . . وهكذا أخرج الشعب المكافح من مسرح الحرب وقضى عليه أن يظل بعيداً عن الميدان ويحرم حتى من حق الدفاع عن وجوده وكيانه . !!

٥ ـ الإخوان وقضية فلسطين

إن كل أرض يقال فيها لا إله إلا الله محمد رسول الله هى جزء من وطننا ، له حرمته وقداسته ، والاخلاص له والجهاد فى سبيل خيره . « حسن البنا »

لم يكن اهتمام الاخوان بقضية فلسطين وليد الحوادث الأخيرة التى أعقبت قرار التقسيم، ولكنه سبق ذلك التاريخ بزمن طويل ، فالإخوان كهيئة إسلامية عالميـة كانت تضع فى برنامجها مهمة الدفاع عن القضايا الاسلامية فى مختلف أنحاء المعمورة ، وكانت دورهم دائماً موئلا للمجاهدين الأحرار من مختلف بلاد العروبة ومواطن الاسلام ، وكان لفلسطين دائماً المقام الأوفى من عنايتهم واهتمامهم ، فهى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين



فضيلة الإمام الشهيد بين جمع من رجال البلدية فى غزة ، وذلك أثناء طوافه على جبهات القتال

وهى تحتل مركزاً وسطاً فى البلاد العربية ، وضياعها يعزل العالم الاسلامى بعضه عن بعض ، ولو نجح اليهود فى احتلالها لأصبحت دائماً مباءة خطرة لعناصر الشر ، وبركاناً زاخراً بالنار يزعزع أمن البلاد العربية وسلامها .

وحين وضحت نيات السياسة البريطانية فى فلسطين أخذ الاخوان يعقدون المؤتمرات تباعاً ويبينون للشعوب والحكومات حقيقة هذا الخطر الذى يهدد كيانهم ومستقبلهم ، حتى نجحوا فى إشراك العالم الاسلامى كله فى هذه القضية ، وباتت قضية المسلمين والعرب لا قضية أهل فلسطين وحدهم ، وحين قامت القلاقل فى فلسطين أخذوا يمدون المجاهدين بما يقع فى أيديهم من مال وسلاح ، حتى كانت ثورة ١٩٣٦ حين نجح عدد من شبابهم فى التسلل إليها والاشتراك مع الثوار فى جهادهم ، وخاصة فى مناطق الشمال حيث عملوا مع المجاهد العربى الكبير « الشيخ عز الدين القسام » . وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية أخذ الاخوان يعملون للقضية عملا إيجابياً ، فأرسلوا وفوداً من دعاتهم وشبابهم يؤلبون العرب ويستحثونهم للكفاح ، ويتولى نفر منهم تدريب الشباب الفلسطينى تدريباً سرياً ، ولقد نجحوا فى ذلك إلى حد بعيد حتى أصبحت شعبهم ودورهم هى مراكز القيادة وساحات التدريب ، ولا يزال أهل فلسطين يحمدون للداعية الاسلامى « سعيد رمضان » مواقفه الكريمة وأثره البالغ فى توجيه الشباب العربى وجهة صالحة ، ويذكرون بالفخار والاكبار جهود الأساتذة « عبد الرحمن الساعاتى ، عبد المعز عبد الستار ، عبد العزيز أحمد » وغيرهم من كرام الدعاة والمدربين وما كان لهم من حسن التوجيه وطيب الأثر .

ولقد أدرك اليهود ما ينطوى عليه هذا التدخل من خطر شديد على أهدافهم وخططهم ، فقـاموا ينشرون المقالات الطوال فى صحف أوروبا



الداعية الإسلامى « سعيد رمضان » بين جمع
من مجاهدى الإخوان فى « صور باهر »

وأمريكا ، ويشحنونها بالتهم الخطيرة عن الاخوان المسلمين وحقيقة خطرهم على مصالح الولايات المتحدة وبريطانيا ، وكانوا يحاولون بذلك استـعداء الحكومة الأمريكية لتقوم بعمـل حاسم سريع ، وتستأصل هذا الخطر الاسلامى الذى يهدد مصالحها بالزوال ، وليس أدل على ذلك من مقال كتبته فتاة صهيونية تدعى (روث كاريف) ونشرته لها جريدة (الصنداى ميرور) فى مطلع عام ١٩٤٨ ، ونقلتـه جريدة « المصرى » لقرائها فى حينه ، ونحن بدورنا ننقل أهم ماجاء به من التهم ، ليرى القارىء مدى النجاح الذى أحرزته الدعاية اليهودية حين أقنعت حكومات أوروبا بخطورة حركة الاخوان ، ودفعتها لمحاربتها بشدة ، وكانت الأسلحة التى وجهتها — مع بالغ الأسف — هم تلك الطائفة المنكودة من الزعماء والمستوزرين !

قالت الـكاتبة فى مقالها إن الاخوان المسلمين يحاولون إقناع العرب (بأنهم أسمى الشعوب على وجه البسيطة ، وأن الاسلام هو خير الأديان جميعاً ، وأفضـل قانون تحيا عليه شعوب الأرض كلها) ، ثم استطردت تصف خطورة حركة الاخوان إلى أن قالت (والآن وقد أصبح الإخوان المسلمون ينادون بالاستعداد للمعركة الفاصلة التى توجه ضد التدخل المادى للولايات المتحدة فى شئون الشرق الأوسط ، وأصبحوا يطلبون من كل مسلم ألا يتعاون مع هيئة الأمم المتحدة ، فقد حان الوقت للشعب الأمريكى أن يعرف أى حركة هذه ، وأى رجال يتسترون وراء هذا الاسم الرومانتيكى الجذاب ، اسم (الاخوان المسلمون) . وقالت — وهذا هو بيت القصيد — (إن اليهود فى فلسطين الآن هم أعنف خصوم الاخوان المسلمين ، ولذلك كان اليهود هم الهدف الأساسى لعدوان الاخوان ، وقد قام أتباعهم بهدم أملاك اليهود ونهب أموالهم فى كثير من مدن الشرق الأوسط ، وهم يعدون الآن العدة للاعتداء الدموى على اليهود فى عدن و لبحرين ، وقد هاجموا دور المفوضيات والقنصليات الأمريكية . وطالبوا علناً بانسحاب الدول العربية من هيئة الأمم المتحدة) .

وبعد هجوم عنيف على سماحة المفتى الأكبر ، وعلى فضيلة المرشد العام ختمت مقالها قائلة (وإذا كان المدافعون عن فلسطين — أى اليهود — يطالبون الآن مجلس الأمن بإرسال قوة دولية لتنفيذ مشروع التقسيم الذى أقرته هيئة الأمم المتحـدة ، فإنهم لا يطالبون بذلك لأن الدولة اليهودية فى حاجة إلى الدفاع عن نفسها ، ولـكنهم يريدون إرسال هذه القوة الدولية إلى فلسطين ، لتواجه رجال الاخوان المسلمين وجهاً لوجه ، وبذلك يدرك العالم كله الخطر الحقيقى الذى تمثله هذه الحركة .

وإذا لم يدرك العالم هذه الحقيقة فى وقت قريب . فإن أوروبا ستشهد ماشهدته فى العقد الماضى من القرن الحالى ، إذ واجهها حركة فاشية نازية ، فقد تواجهها فى العقد الحالى امبراطورية إسلامية فاشية ، تمتد من شمالى أفريقيا إلى الباكستان ومن تركيا إلى المحيط الهندى) .

ولم يكن هذا المقال هو الأول من نوعه ، إذ دأبت الصحف على نشر مقالات طويلة من هذا النوع ، ولم يضيع الاخوان جهدهم فى مناقشة هذه المزاعم ، إذ كانوا يعدون العدة لمناقشتها عملياً حين تلتحم الأسلحة ويبدأ دورها الرهيب ، فمضوا فى خطتهم واستمرت وفودهم ودعاتهم تؤدى دورها الجليل حتى تشكلت النظمات العسكرية .

وحين تشكلت النظمات العسكرية العربية وأخذت تمارس تدريبها ، قام خلاف بين قواد « النجادة » و « الفتوة » وفطن الاخوان للخطر الكبير الذى ينطوى عليه هذا الخلاف ، فقاموا بمحاولات كثيرة للتوفيق بين وجهات النظر المتعارضة ، انتهت باختيار المجاهد الكبير « الصاغ محمود لبيب » وكيل الاخوان المسلمين للشئون العسكرية منظماً لهذه التشكيلات فقبل هذا العمل الجليل وسافر إلى فلسطين ، وأخذ يباشر تنفيذ برنامجه الحافل الذى أعده لتدريبها وتنظيمها ، ولكن لم تمض إلا فترة حتى فطنت حكومة الانتداب إلى هذه المحاولة ، وفهمت أن الدعوة الاسلامية تريد أن تزاحم لتحتل مكان القيادة فى النضال المنتظر ، ومعنى ذلك بوضوح أن تنقلب خطط الانجليز رأساً على عقب وتفشل سياستهم فى فلسطين ، فقاموا بمطاردة دعاة الاخوان وشبابهم وأمر « الصاغ محمود لبيب » بمغادرة البلاد . ولقد قدر لكاتب هذه الصفحات أن يشهد بنفسه ناحية من نواحى الارهاق التى عاناها الاخوان فى فلسطين خلال تلك الفترة القاسية . هذا

فى فلسطين ، أما فى مصر فقد كان دور الاخوان رئيسياً فى تسيير الأمور على النحو الذى سارت عليه . ويجدر بنا قبل أن نتكلم عن دورهم العسكرى خلال الحرب أن نبين أثرهم البالغ فى تهيئة الأمة لقبول فكرة الحرب ، إذ المعروف أن الجيش المصرى لم يشترك فى الحرب الفلسطينية إلا استجابة لرغبة الشعب وتمشياً مع إرادته ، تلك الارادة التى ظهرت بوضوح فى المظاهرات الكبرى التى قادها الاخوان وعمت أنحاء البلاد ، مطالبة الحكومة بالتدخل الحاسم للقضاء على الدولة الوليدة ، قبل أن تستقر أقدامها ويصلب عودها ، وكان إجماع الشعب على هذا الرأى إعلاناً لروح جديدة ، أخذت تسرى فى أوصاله بعد أن مزقه الاستعمار ونجح فى قتل روح الجهاد فى نفوس أبنائه ، وعلمه زعماؤه نوعاً سقيماً من الجهاد لا يتجاوز إلقاء خطب (عصماء) ، أو السير فى مظاهرة عاتية تحطم واجهات المتاجر وتقلب عربات الترام ، وتصل أقصاها من العنف والقوة حين تقذف وجوه رجال البوليس بالحجارة !! .

وكانت هذه الروح وليدة كفاح مرير دام عشرين عاماً ، وثمرة جهاد متواصل لعوامل الضعف والانحلال لتحويل الشعب عن هذا الطريق الخاطئ وتهيئته تهيئة صحيحة لتحمل أعباء الجهاد المنتج ، والاقبال على تضحياته وتكاليفه ، ولقد وضحت هذه النتيجة بأجلى مظاهرها ، حين أصر الشعب كله على ضرورة العمل الايجابى السريع لانقاذ فلسطين ، والوقوف أمام أطماع الصهيونية ولو أدى ذلك إلى إدخال الجيش والمساهمة فى القضاء على الدولة الآثمة ، ولقد ساعد الاخوان فى تحقيق هدفهم هذا كثرة شعبهم التى امتدت فى مدن القطر وقراه ، واجتمع فيها خلاصة شباب مصر المؤمن وكثرة خطبائهم ودعاتهم الذين كانوا يجوبون المدن والقرى داعين الناس

للجهاد الدينى لإنقاذ الأرض المباركة من خصوم الاسلام الألداء ، فقامت فى البلاد ثورة إسلامية عنيفة ، كان من ثمارها تلك الحشود الهائلة من شباب مصر ، التى كانت تتوجه لمراكز الدعوة ، وكلها شوق إلى القتال ، وتحرق للجهاد والاستشهاد . ولن يستطيع مكابر أن ينكر على الاخوان جهادهم فى هذا السبيل ، أو يقلل من أهمية هذا الدور التمهيدى للحرب الذى قاموا به فنجحوا فى تعبئة القوى الشعبية وتوجيهها وجهة صالحة ، ونجحوا فى حمل الأمة على قبول فكرة الحرب بل والمطالبة بها فى إصرار وعناد ، ووقوف الشعب كله بعد ذلك يؤيد جيشه المحارب ويتحمل فى سبيل ذلك الكثير من الضغط والضيق فى حريته وأرزاقه .



الأستاذ (محمد فرغلى) فى جلسة مع سماحة مفتى فلسطين

وأود أن أبين أن هذه النتيجة ليست بالأمر الهين الميسور ، إذ تقدم الدول المتحاربة وساستها كثيراً من الجهد والمال فى سبيل إقناع شعوبهم بالحرب ، وتهيئتهم لخوض صعابها والصمود أمام مصائبها وويلاتها ، وتحدثنا

التاريخ القريب كيف قام «هتلر» ليقنع الأمة الألمانية أن الحرب هى الوسيلة الوحيدة لألمانيا لتخليصها مما نزل بها من ظلم صارخ ، وبما فرض عليها من قيود قاسية أملتها معاهدة « فرسايل » ، وظل يؤجج نيران هذه الأحقاد فترة طويلة من الزمن ، وينفق فى سبيل ذلك ملايين الجنيهات ، حتى أصبح كل فرد فى ألمانيا يؤمن بالحرب وينادى بالاستعداد لها ، ولم تكن هذه الأموال والجهود لتنفق عبثاً ، إذ ثبت أن هذه العقيدة هى التى جعلت ألمانيا تقدم على محاربة دول العالم جميعها ، وتتقبل الهزائم المتوالية بعزيمة وجلد ، وتظل تحارب بشجاعة — رغم تفوق خصومها وانهيار حلفائها — حتى آخر شبر من « الأرض العزيزة » كما كانوا يسمونها .

ولأهمية هذه الناحية فى الحروب يجعل العدو أقصى غايته تحطيم روح المقاومة فى الشعب ، حتى ينقلب على حكومته ويرغمها على الخروج من مسرح القتال وعدم المضى فيه ، كما حدث فى روسيا فى ختام الحرب العالمية الأولى ، وكما حدث فى ايطاليا فى ختام الحرب العالمية الثانية ، حين ثار الشعب على حكومته ـ بفعل الهزائم المتوالية واستغلال دعايات الحلفاء لها ـ وكانت النتيجة تسليم ايطاليا واغتيال زعيمها والمحرك الأول لتلك الحرب . ولعل هذا ما كان يرمى إليه اليهود من غاراتهم على القاهرة خلال الحرب الفلسطينية . ولعلهم كانوا يأملون إضعاف روح المقاومة فى الأمة نتيجة الغارات وما تحدثه من هدم وتدمير ، فتؤثر السلامة والابتعاد عن مسرح القتال .

غير أن تربية الاخوان وتعاليمهم لم تضع هباء ، إذ ظل الشعب حتى آخر مراحل القتال وما صاحبها من هزائم وانسحابات يتمتع بروح معنوية عالية ، بل رأيناه يعمد إلى القوة ليرغم الحكومة الضعيفة على عدم قبول الهدنة

والتقيد بقرارات مجلس الأمن ، ومواصلة القتال فى عنف وشدة ، ولا تزال هذه الروح تتألق فى صفوفه حتى اليوم ، هذه الروح التى نأمل أن تواتيها الظروف مرة أخرى لتواصل الجهاد من جديد حتى تقوض أركان الدولة الباغية وتعيد لفلسطين المباركة عروبتها وإسلامها . وبعد أن علمنا أثر هيئة الاخوان فى تهيئة الشعب للحرب ، وبعد أن علمنا أهمية هذه النتيجة فى الجولة الماضية وما يتبعها من جولات ، نستطيع أن نحكم على عظم الدور الذى لعبه الاخوان فى هذه المرحلة الفاصلة من تاريخ الأمة الاسلامية . والاخوان بعد ذلك لم يكونوا مبتكرين ولا مجددين حين أولوا هذه الناحية كل عنايتهم لأن الاسلام قد أولاها عظيم اهتمامه ، حين جاء ليثبت هذه المعانى فى نفوس المسلمين ، ويوضح لهم الطريق الذى تسلكه الأمم الحية إن أرادت أن ترد حقاً مغتصباً ، أو تذود عن حياضها بحد السيف ، وصدق الله العظيم « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » ، « إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس » ، « ولا تهنوا فى ابتغاء القوم ، إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله مالا يرجون ، وكان الله عليما حكيما » .

٦ — العقبات فى طريق الإخوان

[قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم
هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا]
قرآن كريم

لم تكن بريطانيا تجهل خطورة حركة الإخوان — كدعوة إسلامية — وأثرها على مصالح الاستعمار فى مختلف بلاد الاسلام ، ولقد راع الانجليز وزاد فى مخاوفهم ما رأوه من إقبال الشباب على الجماعة ، وانتظامهم فى سلكها ، حتى تجاوز عددهم مئات الألوف ، وتجاوزت فكرتهم حدود مصر إلى غيرها من مختلف بلاد العروبة ومواطن الاسلام ، حيث مناطق النفوذ البريطانى وحيث «الأرض الطيبة» التى حسبت بريطانيا أنها وقعت تحت يدها إلى قيام الساعة . رأى الانجليز ذلك ورأوا معه أن هذه الجماعة تنحو منحىً جديداً فى التنظيم والتكوين ، فهى تعتمد على تربية الشباب وتركيزهم لا على استغلالهم فى تهريج حزبى رخيص ، وهى تجمع الشباب حول فكرة الإسلام ومبادئه القوية العنيفة ، لا حول أشخاص كل بضاعتهم أنهم يحسنون التغرير بالجماهير البائسة وتسخيرها لخدمة أغراضهم ومصالحهم ، رأى الانجليز هذا ، فأيقنوا أنهم أمام الخطر الأكبر الذى يهدد مصالحهم بالزوال . ورأت الأحزاب أن سامرها قد انفضت سوقه وخلت إلا من بعض الوصوليين الذين ينتظرون دورة الحكم ليشبعوا بطونهم وشهواتهم ، وبعض الجهلة من الشباب المأجور الذى يقتات من صناعة المظاهرات والهتافات بحياة الزعامات الخاوية، ولا يعلم له غاية يجاهد من أجلها ولا هدفاً

يعمل فى سبيل تحقيقه . رأت الأحزاب الرجعية ذلك ، فلم تتفق على أمر طول حياتها بقدر ما اتفقت على محاربة الإخوان ومكافحة دعوتهم ، واشتدت المعركة بين عوامل الهدم وعوامل البناء ، المعركة الأزلية بين قوى الخير وقوى الشر . وهنا أيضاً التقى الاستعمار والحزبية ، التقوا على محاربة فكرة الإسلام وإطفاء نور دعوته ، حتى يعم الظلام من جديد ، وفى الظلام يستطيع الاستعمار أن ينهب قوة الشعب ويسلبه عصارة حياته . وفى الظلام يستطيع الزعماء الحزبيون أن يضللوا الشعب ويبقوا فوق عروش القيادة ، وحشود الشعب البائس تحملهم على أكتافها كما يحمل الغزاة الفاتحون . !

وحين أزهرت سياسة الانجليز فى فلسطين وأشرفت على الإثمار والنضوج ، انتفضت البلاد الإسلامية فى ثورة عنيفة منابعها دور الإخوان ومراكزهم ، ولما وضحت الحرب وأصبحت حقيقة لا مفر منها قام الإخوان يفتتحون المعسكرات ويدعون شبابهم لحمل السلاح ويمدون المجاهدين العرب بكميات وفيرة من العتاد ، ورأى الانجليز ما فى هذه الحركات من خطر يصيب سياستهم فى الصميم فعولوا على ابعادهم من الحرب ومنعهم من دخولها بكل وسيلة ، ولقد رأينا ما كان من أمر « الصاغ محمود لبيب » وغيره من دعاة الإخوان وشبابهم ، وكيف طاردتهم سلطات الاحتلال ، وأرغمتهم على مغادرة البلاد ثم أحاطت الحدود بحراسة شديدة دقيقة لتمنع أحداً منهم من دخول البلاد مرة أخرى .

ولقد حاولت بنفسى دخول البلاد فى نوفمبر ١٩٤٧ فوجدت صعوبة كبيرة ، وأرغمت على العودة أكثر من مرة حتى اضطررت إلى قطع مسافات طويلة سيراً على الأقدام ، وظللت أتنقل بحذر حتى استقر بى المقام فى مدينة (يافا) وكانت الحركات العسكرية قد بدأت تتسع وتزيد حدتها ، وأذكر أننى بعد وصولى بأيام كنت أقود داورية من داوريات الاستكشاف

والمعارك على أشدها فى الشمال . وكان الوقت ليلا ، ووجهتنا ضاحيـة من الضواحى المحيطة « بتل أبيب » ، وفجأة رأينا السيارات الانجليزية المدرعة تلاحقنا وتحيط بنا ثم ترغمنا على التسليم . ولم نكن نملك وسائل المقاومة أمام هذه القوة المسلحة فسلمنا ، ونزل الجنود الانجليز يفتشون ملابسنا ويصادرون ما معنا من سلاح وذخيرة ، ثم يقتادوننا فى آخر الأمر لأقرب مركز من مراكز الجيش . وهناك بدأ استجواب الأسرى البائسين .

قال الضابط الانجليزى : « أنتم يا معشر الاخوان تحاولون إثارة القلاقل فى فلسطين ، ولا تدعون فرصة من الفرص تمر حتى تنتهزوها للوصول إلى هذه الغاية ، ولقد قمنا وراءكم الليلة بناء على معلومات حصل عليها أحد عيوننا المكلفين بمراقبتكم وتقصى أخباركم . »

ثم أخذ يوجه إلى الأسئلة وقد علم أنى مصرى الجنسية من « الكرنيه » الذى وجدوه معى ، وكنت أجيبه بشدة أغاظته ، فأمر جنوده فدفعوا بى إلى إحدى الحجرات المظلمة وهو يهدد ويتوعد ، وظللت ساعات فى تلك الحجرة الكريهة ، ثم فتح الباب أحد الحراس واقتادنى إلى الخارج فرأيت إخواننا وقد شحنوا فى السيارات المدرعة تمهيداً لنقلنا جميعاً إلى مركز رئاسة الجيش فى المنطقة . وخشيت سوء العاقبة . وكان أقلها إلقائى فى السجن دون سؤال أو جواب عدة شهور كما حدث لكثيرين من قبل ، أو تسليمى لليهود كما حدث قبل أيام حين اعتقلت السلطات الانجليزية أعرابياً يحوم حول إحدى المستعمرات وسلمته لليهود لمحاكمته فى « تل أبيب » ، وحوكم فعلا أمام محكمة يهودية وبرأته المحكمة وأطلقت سراحه فى شوارع المدينة! ولكنه لم يعد إلى أهله إذ أغرى اليهود به من قتله فى إحدى حدائق البرتقال .

كنت أفكر فى هذا المصير والسيارات تنقلنا إلى هدف مجهول ولا حظت

أن السيارة تمر بإحدى الحدائق الكثيفة ، فقذفت بنفسى منها وانفلت إلى داخل الحديقة والطلقات النارية تلاحقنى ، ولكنى نجوت ، وظل الانجليز فترة طويلة يبحثون عنى دون جدوى إذ كنت قد اختفيت فى الريف حتى تهدأ العاصفة . أما إخواننا الآخرون فقد حوكموا وسجنوا ، وأما الأسلحة فقد صودرت وذهبت هذه الواقعة مثلا لطغيان الانجليز ومدى تآمرهم مع الغزاة المعتدين . ولم تكن هذه الخطط لتصرف الاخوان عن مواصلة الجهد إذ أخذت مراكزهم وشعبهم فى فلسطين تنظم حركة المقاومة على قدر ما تسمح به مواردها المحدودة ، وأخذ شباب الاخوان فى مصر يتسللون فرادى للاشتراك مع العرب فى حرب العصابات التى قامت على أشدها فى ذلك الحين . ومما يجدر ذكره فى هذا المجال أن اليهود كانوا يعتبرون الاخوان « مجرمى حرب » وعلى ذلك فلا يجوز معاملتهم كأسرى ، بل كانوا يقتلونهم ويشوهون أجسامهم ولقد رأيت بعينى اليهود يمسكون بالمجاهد الكريم « مختار منصور » من إخوان القاهرة فى إحدى المعارك التى دارت حول مدينة (يافا) ويقذفون به إلى إحدى مصفحاتهم ولم أعرف مصيره حتى التقى بى بعض العرب ممن اشتركوا فى المعركة وكان نصيبهم الأسر ، فقالوا لى إن اليهود استلوه من بينهم وأطلقوا عليه النار ، وقد عرفوه من « الكرنيه » الذى يحمله ، ومن لحيته الخفيفة التى كانت تستدير حول وجهه . وأعود إلى موقف بريطانيا من الاخوان فأقول إن هذه الحالة كانت تجرى على الاخوان وغيرهم من المجاهدين بحجة المحافظة على فلسطين وأمنها ، وقت أن كان البحر يقذف الألوف من المهاجرين ممن تم تدريبهم وإعدادهم فى بلدان أوربا وأمريكا ويحرس سفنهم الأسطول البريطانى المغوار ! !

ظلت هذه الحالة قائمة على أشدها فالانجليز يطاردون المجاهدين العرب

ويحرمون عليهم القيام بالغارات على المستعمرات وتشترك مدرعاتهم فى حماية القوافل اليهودية ، وتتعاون معهم فعلا فى كثير من المعارك ، ولقد شاهدت بعينى خلال شهر ديسمبر عام ١٩٤٧ عدداً كبير من الضباط الانجليز يدربون فتيان وفتيات « الهاجناه » على أعمال العصابات فى « وادى اللطرون » على مقربة من القدس ، وأخيراً يختم الانجليز احتلالهم البغيض بتسليم أمهات المدن والموانىء العربية . كما حدث ليافا وحيفا وعكا وغيرها من المدن والموانىء .

جاء شهر مايو من عام ١٩٤٨ وكان بداية تحول كبير فى مجرى الحوادث ، إذ أنهى فيه الانجليز انتدابهم وختموا آخر صفحة لسياستهم فى فلسطين وغادروها غير مأسوف عليهم ، ودخلت الجيوش العربية من الشرق والغرب والجنوب لتعيد الأمن إلى نصابه ، وظن الاخوان أن عهد التضيق والارهاب قد انتهى بانسحاب الانجليز ، وأنهم يستطيعون الآن إدخال قواتهم دون خوف أو وجل ، وأن الوقت قد آن ليفى مرشدهم العظيم بوعده فيدخل إلى فلسطين عشرة آلاف مجاهد كدفعة أولى ، كما سبق له أن قرر فى برقيته المشهورة التى بعث بها إلى زعماء الدول العربية فى اجتماعهم « بعاليه » . ظن الاخوان ذلك ، ولكن جاءت الحوادث لتخلف ظنهم ، وتقنعهم أن سياسة الانجليز باقية وإن انسحبت جنودهم من الميدان ، وأنهم لا يزالون يحركون سياسة الحرب من وراء ستار . طلب الاخوان من حكومة النقراشى باشا السماح بإدخال فوج من مجاهديهم ليرابط فى الجزء الشمالى من صحراء النقب ، فرفضت الحكومة هذا الطلب وأصرت على عدم السماح لهم بذلك ، مما اضطر بعضهم إلى طلب السماح لهم بالقيام فى رحلة علمية إلى « سيناء » ، فوافقت حكومة النقراشى باشا بعد إلحاح شديد

وحضرت تلك المجموعة إلى « سيناء » وتسللت منها إلى فلسطين سراً حيث لحقت بها دفعات أخرى تسللت بطرق مختلفة ، وكانت حيلة دخلوا بها إلى فلسطين ، وبدخول هذا الفوج فى فبراير عام ١٩٤٨ بدأ القتال الفعلى فى صحراء النقب . فأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية بعناد وصلابة رغم قلة عدده وضعف أسلحته ، وتجمع حوله المجاهدون من أهل فلسطين وبدأت حرب عصابات منظمة كانت تبشر بنجاح رائع ، ومر شهران وعلمت الحكومة فطلبت إلى المركز العام سحب قواته من النقب ، وكان طبيعيا أن يرفض الاخوان فلم تجد الحكومة بداً من قطع الامدادات والتموين ومراقبة الحدود بشدة لتضمن عدم وصول شىء منها للمجاهدين حتى تضطرهم للعودة إلى مصر ، ورأى المجاهدون أنفسهم خلال قتالهم الرائع يعيشون أياماً طوالا على التمر والماء ، وعلى الخبز اليسير الذى يشترونه من نقود قليلة يرسلها أهلوهم بين حين وآخر . ولكن أين تذهب هذه الشدائد فى نفوس هيأها الله لحمل رسالته والجهاد فى سبيله ؟ — ألم يكن أصحاب رسول الله يربطون على بطونهم الأحجار إذا أعوزتهم المؤونة واشتد بهم الجوع ؟ . تلك هى المثل العليا التى وضعها الإخوان أمام أعينهم وعاهدوا أنفسهم على الوصول إليها ، وإذن فلتضرب حكومة النقراشى رأسها فى الصخر ولتقطع التموين والامداد ولتمنع الهواء إن استطاعت ، فإن ذلك لن يغير من الموقف شيئاً وسيظل المجاهدون فى ميدانهم حتى ينتصر الحق وتعلو كلمة الله .

بقى المجاهدون فى ميدانهم ، يعملون ووجدوا من إخوانهم العرب كل معونة ورعاية ، حتى دخل الجيش المصرى البلاد وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية فى النقب ، واشترك الاخوان فى معظم العمليات

الحربية التى قام بها ، وكان طبيعياً أن ينقص عددهم بفعل المعارك الطاحنة وما سقط منهم فيها من الجرحى والشهداء . وحتى فى تلك الأوقات الحرجة لم تحاول الحكومة أن تراجع موقفها وأن تسمح للاخوان بدخول الميدان ولا لتعويض هذه الخسائر الكبيرة فى الأفراد ، بل شددت رقابتها أكثر من ذى قبل ، وكان الإخوان فى مصر يعلمون حقيقة الموقف فى فلسطين ويتشوقون للحاق بإخوانهم ، ولكن قيود الحكومة كانت تقف حائلا دون التنفيذ ، مما اضطر كثيراً منهم إلى المجىء سيراً على الأقدام ، ولازلت أذكر ذلك اليوم الذى حضرت فيه جماعة من الإخوان قوامها خمسة عشر شابا لم تكن تزيد أعمارهم عن السادسة عشرة ، وكانوا كلهم طلابا فى المدارس الثانوية ، وسألتهم عن سبب مجيئهم ، فقالوا إنهم يرغبون فى تأدية فريضة الجهاد بعد أن نجحوا فى امتحاناتهم لهذا العام ، ثم أخذوا يقصون على أنباء رحلتهم الشاقة وكيف غافلوا رجال البوليس وقفزوا إلى عربات البضائع فى قطارات السكك الحديدية ، وكيف ساروا مسافات شاسعة فى صحراء سيناء الموحشة بمعونة دليل من البدو . وكنت أستمع إليهم وقد بلغت الدهشة منى كل مبلغ . والاسئلة تتوارد على ذهنى يلاحق بعضها بعضا . أهكذا تفعل تربية الاسلام فى نفوس الشبيبة ؟ وما الذى دفع هؤلاء الفتية الأحداث وجلهم من الطبقة المترفة إلى تجشم هذه الصعاب وركوب هذا المركب الشديد ؟ أليس فى مصر ألوف مؤلفة من أمثال هذا الشباب يقضون أوقاتهم بين المسارح ودور اللهو ؟ وكان الجواب حاضراً : إنها العقيدة التى تسيطر على النفوس فتملؤها قوة وعزما ، وإنه الإسلام الخالد قد عمل عمله فى هذه القلوب الفتية الغضة وسيرها حسب مشيئته ووفق إرادته .

وتذكرت ذلك الطفل اليافع الذى صحب رسول الله فى إحدى غزواته وقاتل بشدة حتى استشهد بطلا ، فأكرمه رسول الله ودفنه بيديه الشريفتين حتى تمنى أحد كبار الصحابة وهو عبد الله بن مسعود أن لو كان مكانه ونال ما ناله من إكرام رسول الله وإعزازه ، وتذكرت تلك الحملة الصليبية من الأطفال الذين جرفتهم العقيدة فغادروا أحضان أمهاتهم بليل ، وركبوا المخاطر والصعاب ، حتى لاقوا حتفهم فى آخر الشوط فى الديار المقدسة وكانوا طعاما لحيتان البحر وأسماكه . تذكرت ذلك وتمنيت يوما أن أعيش حتى أرى هذا الجيل المسلم وقد أمسك بعجلة القيادة فى أمته ومضى يوجهها نحو الخير والعظمة ، على أساس من هدى الاسلام ونوره .

وأفقت من تأملاتى على صوت أحدهم وهو يسأل عن موعد التدريب ولما يجف عرقه بعد الرحلة الشاقة التى قاساها فأجبته بما طمأنه وبعثت بهم إلى « عنبر الراحة » لينالوا قسطا من الراحة والغذاء قبل البت فى مصيرهم وأسلمت نفسى إلى تأملات عميقة وأنا أردد قول الله تعالى :

« إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدىً » .

٧ — يتخطون العقبات

[لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ماجئت به هو الحق والله لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد]

« سعد بن معاذ »

عز على الحكومة السعدية أن يستمر الاخوان فى جهادهم ، فأرادت أن تكيد لهم عن طريق آخر، فأمرت بوليسها أن يمنع عودة المجاهدين الذين يغادرون الميدان فى زيارة أهلهم فى إجازات قصيرة، حتى ينقص عددهم وينتهى أمرهم ، وفطنا إلى الحيلة بعد مدة فألغينا الأجازات وقررنا نسيان الأهل والولد حتى نضيع على الحكومة فرصتها ونستمر فى جهادنا . فى هذا الجو المعتم كان الاخوان يقاتلون اليهود فى فلسطين ، ومن حق القارىء أن يتساءل بعد ذلك عن سبب هذه السياسة المتعنتة التى وقفتها الحكومة النقراشية تجاه الاخوان فى فلسطين ، فنقول إنها سياسة رسمها الاستعمار وترك لهذه الحكومة مهمة تنفيذها حتى لا يظهر على المسرح ظهوراً سافراً . ولقد قال لى أحد كبار المسؤولين فى الميدان وقد حمل إلى أمراً بتسريح الاخوان من عرب فلسطين الذى ضممناهم إلينا فى الميدان ،

إن الحكومة تنظر بعين الريبة إلى حركات الأخوان وتخشى أن يؤلفوا جيشاً فى فلسطين يكون بعد ذلك خطراً كبيراً على سلامة الدولة ، ولست أدرى أية دولة تلك التى تهمهم سلامتها ؟ حقاً .. لقد كان الاخوان خطراً كبيراً على دولة اسرائيل ، ولقد فهم المستعمر الظالم أين يكمن الخطر الحقيقى على دولته الوليدة ، فأوحى إلى رجاله وأشار إليهم فكانوا عندحسن ظنه .

كالعهد بهم وقاموا فى سرعة مجنونة يلبون نداءه ويجيبون رجاءه ، وانتهى الصراع بالمذبحة التى لا تزال عالقة بالأذهان حتى الآن ، والتى عرفت بإسم قضايا الارهاب ،وقضايا الأوكار وغير ذلك من المسميات،ولو أنصفوا التاريخ والواقع لأسموها : « مذبحة الاسلام فى وادى النيل » .

نجح الاخوان المسلمون فى التسلل عبر الحدود ، رغم الخطط التى فرضها الاستعمار وأذنابه ، ولم تمض إلا أسابيع قليلة على بداية الصدام حتى حمل الاخوان لواء الجهاد الشعبى ونجحوا فى إدخال عدد كبير من خيرة شبابهم من مصر وسوريا وشرق الأردن .

فى الوقت التى كانت فيه القوة الأولى ترابط فى النقب وتفتتح أولى معارك الجنوب فى « كفارديروم » فى ١٤ أبريل سنة ١٩٤٨ ، كانت القوة الثانية بقيادة اليوزباشى (محمود عبده) تنتقل إلى معسكر « قطنه » بسوريا لتستكمل تدريبها ،ثم ترابط فترة فى النقب وتشترك مع زميلتها الأولى ، وأخيراً تصحب الشهيد (أحمد عبد العزيز) فى جولته الموفقة قبل أن يستقر فى جنوب القدس ، ويكون من نصيب هذه القوة أن يوكل لها مهمة الدفاع عن مرتفعات «صور باهر» الحصينة ، وهناك تلحق بها قوة كبيرة من الاخوان المسلمين فى شرق الأردن بقيادة المجاهد « عبد اللطيف أبو قورة » رئيس الاخوان فى عمان ، وتندمج القوتان فى فرقة واحدة متحدة القيادة ،ليكون لهما الفضل بعد ذلك فى المحافظة على تلك المرتفعات وعرقلة الخطط اليهودية التى كانت ترمى إلى احتلالها ، لتتحكم فى القوات المصرية المتطوعة المرابطة فى مناطق « الخليل وبيت لحم » .

ولم يكن الاخوان فى سوريا بأقل نصيباً من غيرهم إذ أدخلوا قوة من رجالهم يقودها الأستاذ « مصطفى السباعى » رئيس الاخوان فى دمشق

عملت بهمة ونشاط فى مناطق « المثلث » و « القدس » وساهمت مساهمة فعالة فى الدفاع عن هذه المناطق الحيوية . وكانت العصابات غير النظامية التى شكلها شعب الاخوان فى فلسطين تعمل منذ بداية الحركة فى المناطق الشمالية والوسطى تحت القيادات العربية المحلية وتقوم بغارات ناجحة على مستعمرات اليهود وطرق مواصلاتهم رغم الضعف الشديد الذى كانت تعانيه سواء فى التسلح أو التدريب .

ولقد اضطر الاخوان إزاء القيود التى فرضتها الحكومة ، إلى تقديم شبابهم للعمل تحت قيادة الجامعة العربية ، فتشكلت منهم ثلاث كتائب أتمت تدريبها فى معسكر « الهاكستيب » ثم تسللت إلى فلسطين قبيل زوال الانتداب البريطانى ، وكان يقود الكتيبة الأولى الشهيد « أحمد عبد العزيز » الذى قام بنشاط ملحوظ فى مهاجمة مراكز اليهود فى النقب قبل أن يتخذ موقفاً دفاعياً عن مناطق جنوبى القدس . وكانت الكتيبة الثانية لمتطوعى الجامعة العربية بقيادة البكباشى « عبد الجواد طباله » ترافق الجيش المصرى ، وتشترك معه فى الدفاع عن منطقة « غزة » وتتولى حصار بعض المستعمرات وتقوم بحراسة بعض النقط الهامة فى خطوط المواصلات ، ثم تستقر بعد ذلك مع زميلتها فى « بيت لحم » عقب استشهاد المرحوم احمد عبد العزيز .

وتتجمع هذه القوات فى تلك المنطقة ، وتنجح فى المحافظة عليها وتسليمها للجيش العربى الأردنى بعد حصار شاق طويل ، وهجمات عنيفة من العدو ، أظهرت فى صدها الكثير من ضروب البطولة .

وهذه القوات المتطوعة ، وإن كانت خليطاً من الاخوان وغيرهم من الشباب المصرى الحر ،ممن لا يكفر سعيهم ولا ينكر جهادهم ، إلا أن الكثرة

الساحقة من الاخوان فيهـــا قد طبعتها بطابع الدعوة الخاص ، وبهذا الطابع عرفها أهل تلك المناطق ، حتى أن الحكومة السعدية حينما أرادت اعتقال مجاهدى الاخوان فى «بيت لحم» و«صور باهر» عقب إعلان الهدنة وفك الحصار ، لم تستطع التمييز بين الإخوان وغيرهم فاعتقلت مجموعة ضخمة منهم وأودعتهم المعتقل العسكرى فى « رفح » على حدود مصر الشرقية .

وهكذا ورغم تلك القيود القاسية التى فرضها الاستعمار وحافظ عليها أذنابه من بعده ، فقــد اشترك الاخوان فى الحرب بأعداد كبيرة كانوا يتحملون الانفاق على معظمها ويتكبد مركزهم العام ألوف الجنيهات فى شراء الأسلحة والمعدات .

ولـكى يدرك القارىء عظم هذا الجهد الذى بذلته قيادة الاخوان فى مصر ، يكفى أن يعلم أن هناك دولا عربية كبيرة ، تملك جيوشاً جرارة ، وميزانيات ضخمة ، لم تشترك فى الحرب المقدســة إلا بأقل قوة ممكنة على سبيل الدعاية لنفسها وتبرير موقفها أمام شعوبها ، فدولة كالمملكة السعودية مثلا لم يكن لها فى الميدان ـ رغم بترولها الدافق وخيراتها العميمة ـ إلا كتيبة واحدة ـ لم يكمل عددها ـ يقودها ضابط سعودى برتبة « كولونيل » ، وتعتمد فى كثير من تموينها وإعاشتها على الجيش المصرى ، ودولة كلبنان وقف جيشها الصغير على حدود بلاده ، وحتى هــذه الحدود لم يستطع المحافظة عليها ، إذا رغمته القوات اليهودية على الانسحاب للداخل تاركا وراءه عدداً من القرى اللبنانية ، احتلها اليهود وظلوا مرابطين فيها طوال فترة الحرب. أما اليمن فحدث عنها ولا حرج ، إذ ظلت تقف موقف المتفرج من الحرب، مكتفية بدعوات « الإمام » الطيبة ، وما تنفقه من أموال على الدعاية الصالحة التى كان يقوم بها « سيوف الإسلام » بين مغانى لندن وباريس . ولعلى ـ

وأنا أسرد هذه الحقائق وأعقد المقارنات بين هيئة شعبية ودول عربية رسمية ـ قد وصلت إلى إجلاء بعض النقط الغامضة وأوضحت مبلغ الاهتمام الذى كانت تظهره بعض دول الجامعة إزاء قضية الإسلام فى فلســطين ، ولا أظننى فى حاجة لأؤكد للقارىء أننى لا أبخس الاخوان فخرا ولا منة ، ومعاذ الله أن نمن على أمتنا مهما قدمنا لها من جهد وتضحيات ، وكل شىء نقدمه نعتبره صغيرا تافهاً بالنسبة لما نريده لها من عزة وإسعاد ، ولست أتهم أحدا دون وجه حق ولـكننى أعتقد أن من حق الأمة علينا أن نوضح لها الحقيقة المجردة لتستطيع أن تفرق بين الخصوم والأصدقاء ، والمخلصين والأدعياء ، وإن لى من وراء هذا السرد وهذه المقارنة غرضين : أولهما تبيان حقيقة المزاعم التى شغلت بها الأقلام المغرضة والصحافة الموبوءة فترة من الزمن ، لطمس هذه الحقائق ، والتقليل من أهمية هذه التضحيات ، خدمة للمستعمر وإرضاء لشهوات حزبية جامحة ، فكان أن سمع الرأى العام بتلك النغمة المرذولة عن التدريب السرى فى فلسطين ، والاستعداد لحركة ثورية عند الرجوع لأرض الوطن .

ولسنا فى حاجة ــ بعد الذى ذكرنا ــ للتدليل على كذب هـذا الادعاء ، إذ لو كان الإخوان يرجون من وراء جهادهم تلك الأغراض التى ذكرها دعاة السوء ، لما أقدموا على الحرب واندفعوا فيها هذا الاندفاع ، ولوقفوا موقف المتفرج فما لامهم أحد من الناس ، ولـكانت الحجة لهم لا عليهم ، والإنجليز وحلفاؤهم يمنعونهم من دخول الحرب بكل وسيلة ؟ ولـكنهم اندفعوا لقتال اليهود بشدة وعنف ؟ ولسوف يظل ذلك مفخرة لهم كلما ذكرت الجولة الأولى من حرب فلسطين ، ولو ترك الإخوان على سجيتهم دون أن توضع أمامهم كل هذه العراقيل ، لرأى دعاة السوء كيف

أغرقوا أرض فلسطين بسيول من قواتهم وكتائبهم ، ولتغيرت نتيجة الحرب لا محالة . هذا غرض ، والغرض الثانى الذى نرمى إليه من سرد هذه الوقائع هو أننا نؤمن إيمانا راسخا بأن حربنا مع اليهود لم تنته بعد ، ولم تكن الجولة الأولى منها إلا مقدمة لحرب طويلة المدى ، فإسرائيل خطر كبير على كيان الوطن العربى ، لا يقلل من خطورته ما ينشره دعاة التردد والهزيمة عن وجوب الإسراع بعقد الصلح معها حتى تنتهى حالة التوتر ونحنى رءوسنا أمام الأمر الواقع .

واليهود إن لم نكرس جهودنا لقتل دولتهم الباغية فهم يعملون جاهدين لتقويض أركان دولنا وإقامة امبراطورية يهودية تمتد من النيل إلى الفرات .

وإذاً فمن واجبنا أن نضع نصب أعيننا دروس الماضى وأخطاءه وأن نجعل من الجولة الأولى «مزرعة للتجارب العسكرية » ، تماما كما كانت الحرب الأهلية التى قامت فى أسبانيا سنة ١٩٣٧ والتى كانت « مزرعة » استنبتت فيها بذور الحرب العالمية الثانية ، وكانت فرصة طيبة اغتنمتها الدول الكبرى لجربت فيها خططها وأسلحتها ، أو كهذه الحرب التى نشبت فى أواخر العام الماضى « ١٩٥٠ » فى كوريا والتى نعتبرها تجربة صغيرة لحرب عالمية ثالثة ، فكل دولة من الدول تجرب فيها آخر ماوصلت إليه من خطط القتال ، وأساليب الفتك والتدمير . ومزرعتنا هذه زرعت فيها بذور مختلفة ، فمنها الذى مات لساعته ولم يبد له أثر ، ومنها الذى أينع ثم هاج فرأيناه مصفراً ، ومنها الذى أينع وترعرع حتى آتى أكله بإذن ربه ، والويل كل الويل لنا إن لم نستفد من هذه التجارب التى كلفتنا الكثير من الدم والمال . ولن يختلف اثنان فى قيمة التربية الاسلامية وأثرها فى تكوين المحارب الناجح .

ولعل هذه هى خلاصة النتائج التى وصلنا إليها حين راجعنا كشف

الحساب عند نهاية الحملة . وحين أمعنا النظر فى مزرعة تجاربنا فوجدنا أن بذرة الاسلام هى وحدها التى نمت وصمدت وخرجت من الحرب أقوى ما تكون حباً للقتال ، حين ماتت غيرها ولم يستطع الصمود أمام ضغط الحوادث ، وصدق الله العظيم : «أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين » .

٨ — جاسوسية وجواسيس

[يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا
أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين]

قرآن كريم

لم يعرف التاريخ شعباً كافح فى سبيل حريته مثلما كافح الشعب العربى الفلسطينى ، ولم يشهد التاريخ نوعاً من أنواع التنكيل والارهاب أشد وأقسى مما صبته بريطانيا على هذا الشعب الباسل لتصرفه عن حقوقه وأهدافه ؛ وإن الثورات المتتابعة التى شهدتها فلسطين منذ ابتليت بالاستعمار البريطانى لتعطى صورة صادقة لنفسية هذا الشعب ، ومدى إيمانه بحقوقه وتمسكه بها ؛ إيماناً تغلغل فى نفوس جميع أفراده ومختلف طبقاته ، وتساوى فيه البدوى والحضرى ، ولقد بينت طرفاً من جهاد هذا الشعب فى صفحات سابقة ، غير أن أحدنا لن يمل حين يستطرد فى نشر هذه الصفحات المجيدة ، التى سطرها المجاهدون بدمائهم وهم يكافحون أكبر قوتين فى الأرض ، قوة المال وقوة السلاح ، قوة بريطانيا العظمى بجيوشها الجرارة . وقوة الصهيونية بذهبها ونفوذها .

ولا ينتظر القارىء منى أن أحدثه عن الأسماء اللامعة ، التى سمع بها القريب والبعيد ، وتناقلتها الصحف والمجلات ، ولكنى أغوص به إلى أعماق هذا الشعب ليرى مدى تغلغل روح الجهاد والتضحية فى مختلف طوائفه وطبقاته . فهذا سائق سيارة بسيط يطلب إليه الإنجليز أن يقود سيارة تحمل عدداً من جنودهم إلى القدس حيث يساهمون فى القضاء على

اضطرابات وقعت حولها ، ولم يكن فى وسعه أن يرفض فاستجاب لهم وقد بيت فى نفسه نية القضاء عليهم ، فودع أهله ، ومضى بهم فى طريق القدس ، وعلى تلك القمم الشاهقة المطلة على (باب الوادى) انحرف بسيارته إلى منحدر سحيق فاستقرت فى القاع بحمولتها اشلاءاً ممزقه وصعدت روحه إلى بارئها بعد أن أدى واجبه . . . .

وهذا طفل ريفى فى التاسعة من عمره ، تمر به إحدى الداوريات الإنجليزية ، فيعز عليه أن يتركها تمر فى أمان ، فيتناول بندقية أبيه ويترصد إليهم فى إحدى الحدائق ويصوب إليهم بندقيته ، ويلحظه أحد الجنود فيصيبه برصاصة ، ثم يفتشونه فإذا البندقية خالية من الذخيرة ، وإذا الطفل مصاب فى ساقه ، فاستولى العجب على قائد القوة وبلغ منه التأثر مبلغه ولم يتمالك أعصابه فمال على الطفل يقبله ثم يحمله فى سيارته لإحدى المستشفيات . . . .

ولقد حدثنى أحد الإخوان ممن اشتركوا فى اضطرابات عام ١٩٣٦ أن الصحف اليهودية أخذت تجأر بالشكوى المرة من عصابات (خطرة) تغير على اليهود فى شركة البوتاس على البحر الميت ، وقال لى إن تلك العصابات «الخطرة» لم تكن فى الواقع إلا أعرابياً واحداً يدعى (سليمان بن خميس) من عربان (السعيديين) فى وادى «عربه» ، لم تكن لديه إلا بندقية من نوع فرنسى قديم وما لا يزيد عن عشرين طلقة من الخراطيش الفارغة ، كان يملؤها بيديه من (البارود) والرصاص ، ثم يكمن بجانب منبع للمياه يدعى (العين البيضاء) كان اليهود يأخذون منه ما يحتاجون من مياه الشرب ، ويظل فى مكمنه حتى إذا اقترب منه (الصيد) أطلق ما معه من رصاصات حتى إذا أصاب من أصاب منهم ، رجع مطمئنا إلى خيمته حيث

يعاود تعبئة «الخراطيش» من جديد ، استعداداً لمعاودة الصيد ، وهكذا إلى أن ظفر اليهود به فأصابوا منه مقتلا ولكنه أبى أن يستسلم وظل يركض بعيداً عن المكان مخافة أن يظفر اليهود بجثته ، حتى سقط قريبا من قومه واستشهد تاركاً وراءه زوجتين وأطفالا ، وسكتت حينذاك الصحف اليهودية عن الشكوى من تلك العصابات (الخطرة) . !

أمثلة كثيرة جداً لا يمكن حصرها فى هذه الصفحات ، ولكنك ترى من هذه الأمثلة مدى تعمق روح الجهاد وتغلغله فى نفوس طبقات الشعب ، فهذا سائق سيارة فى مدينة ، وذلك طفل فى قرية ، وذاك أعرابى فى البادية لم تربط بينهم قيادة مشتركة ولا نظام موحد ، إلا رابطة الدين والوطن . تلك هى منابع القوة التى فشل زعماء العرب فى تسخيرها والتحكم فيها ، وتلك هى الروح التى كان يخشاها الاستعمار ويشفق على دولته أن يحاربها أمثال هؤلاء ، بعد أن يداخلهم شىء من التنظيم والتدريب ، ولقد أوضحت كيف وقفت بريطانيا أمام تدريب الشعب الفلسطينى ، واعتبرت ذلك عملا عدائياً موجهاً لمصالحها فى فلسطين ، فى حين أنها وافقت على دخول الجيوش العربية ، حتى قيل إن أحد كبار ضباط المخابرات الإنجليزية وهو البريجادير جنرال (كلايتون) كان يحضر اجتماعات الجامعة العربية ويشترك فى وضع الخطط العسكرية التى طبقت بدون تحريف فى غزو فلسطين ، وليس سراً أن الجنرال « كلوب » قائد الجيش الأردنى كان يدير المعارك فى الجبهة الأردنية ويشترك فى سياسة الحرب العامة . فإذا جمعت هذه المعلومات بعضها إلى بعض ، أصبحنا أمام حقيقة واقعة وهى أن بريطانيا كانت من وراء كل ما يدبر فى فلسطين .

والعجيب أن الخطة التى رسمها المستعمر لإبعاد الشعب الفلسطينى عن

مسرح القتال ، ومعالجة قضيته بنفسه ، هى الخطة التى سارت عليها الجيوش العربية المنقذة ، فلم تكد تدخل فلسطين حتى بادرت بحل المنظمات العسكرية ، ونزعت السلاح تدريجياً من المجاهدين ، وكانت هذه هى إحدى الأخطاء الكبرى التى عجلت بنهاية الحرب وختمتها على صورتها المفجعة . ولست أجد فى التاريخ جيشاً قام ليحارب عدواً فى بلد من البلدان ، إلا وبذل جهده للتقرب من أهل البلاد ، وكسب تأييدهم وضمان معونتهم . ولم يغب عن الأذهان ما كان من أمر السياسة الإنجليزية حين استطاعت التأثير على الشعوب العربية خلال الحرب العالمية الأولى ، ودفعتهم لمحاربة الأتراك المسلمين ، ولم تجرؤ جيوشها النظامية على النزول فى الأراضى العربية إلا بعد أن نجحت فى إشعال الثورة ، وأرغمت الجيوش العثمانية على الحرب فى ميدانين ، وتوزيع قوتها بين مكافحة الثوار والوقوف فى وجه جيوشهم .

وفى الحرب العالمية الثانية أخذ عملاء الحلفاء فى أوربا ، ينظمون رجال المقاومة السرية فى مناطق الإحتلال النازية ، ويمدونهم بالمال والعتاد ليتعاونوا مع الحلفاء ، وكان ذلك تمهيداً لغزو أوربا ، حتى أن قيادة الحلفاء ، لم تأمر بالنزول إلى الساحل الفرنسى إلا بعد أن وثقت من تأييد العناصر الوطنية وأعطتها الإشارة لتبدأ أعمال التخريب فى مؤخرة الجيوش النازية .

وإذا كانت هذه الأساليب لم تغب عن الجيوش الغازية ، فلست أدرى كيف غابت عن الجيوش الحليفة التى جاءت بدافع قومى لتشترك مع أهل فلسطين فى إنقاذ وطنهم ، وليس من شك فى أن الطريق كانت ممهدة أمام الجيوش العربية للافادة من قوى الشعب الكامنة وتسخيرها للهدف المشترك ، لو أخلصت النية وتنصلت مؤقتا من خيوط السياسة البريطانية. فالشعب العربى كان فى حرب مريرة مع اليهود حتى دخول الجيوش العربية ، وكان ينتظر دخولها بفارع الصبر ويعلق عليها أكبر الآمال .

وإذن فلقد كان من واجب الحكومات العربية أن تشرع فوراً فى تكوين جيش عربى قوى ، يقوم بدوره فى تحرير بلاده ، ولكن ما إن دخلت الجيوش العربية وبدأت عملها حتى تعددت تهم التجسس والخيانة ، وترتب على ذلك شعور بعدم الثقة أخذ يتزايد يوماً بعد يوم حتى انقلب إلى هوة سحيقة ، استحال معها التعاون بين أهل البلاد والجيوش المنقذة التى جاءت لنجدتهم والذود عن كيانهم . وأشهد أن الدعاية اليهودية قد أدت دورها ونجحت أبلغ النجاح ، حين أخذت أبواقها تذيع فى كل مكان أن شعب فلسطين راض عن بقاء اليهود ، وليس ثمة خلاف بينه وبينهم وأنه يعارض فكرة الحرب ، واستغلت هذه الدعاية بعض حوادث الخيانة الفردية — التى لن تخلو منها أمة من الأمم — لتبرزها للناس فى صورة مكبرة على أنها حركة إجماعية عامة . وساعد فى تثبيت هذا المعنى وإلباسه ثوب الحقيقة تلك الحملات الصحفية التى تطوعت بها الصحف المصرية ، ولم تحاول أن تتحرى المصلحة والحقائق فى نشرها ، بل قدمتها للناس غذاء فكريا مسموماً على أنه سبق صحفى منقطع النظير ! ! .

ولعل القراء الكرام لايزالون يذكرون تلك الصور والمقالات التى كانت تنشرها مجلات «دار الهلال» و«أخبار اليوم» عن الجواسيس العرب ، وكيف أن الحراس المصريين اليقظين (كذا) قد قبضوا على أعراب فى داخل الخطوط المصرية ، فوجدوهم (مختومين) بختم الهاجاناه ، وكيف أن الجيش المصرى وجد أعراباً مقتولين ضمن قتلى اليهود فى إحدى المعارك . هذه الأنباء المختلقة وأشباهها كان لها أكبر الأثر فى أيهام الجنود المصريين أنهم يحاربون فى أرض معادية ، ويساعدون أقواماً خونة باعوا أرضهم ثم امتشقوا الحسام دفاعاً عن الصهيونية ! !

وإلى جانب ما فى هذه الأنباء من تجن على الحقائق ، فإنها كانت سلاحاً خطراً أثر تأثيراً بعيداً فى قتل الروح المعنوية فى الجنود المصريين ، فالجندى المصرى كان يشعر أنه يقاتل دفاعاً عن إخوانه المسلمين من العرب فعلى أى أساس يقاتل إذا أدخل فى روعه أنه يدافع عن خونة يشتركون مع العدو فى مقاتلته ؟ ليت شعرى هل فهمت هذه الصحف عظم الضرر الذى سببته حين أقدمت على نشر ما نشرته ؟ . أم أنها تعلم الحقيقة وتنشر لغرض نجهله . والواقع أن الجنود المصريين كانوا معذورين حين آمنوا بهذا الوهم واعتبروه حقيقة واقعة ومضوا يعاملون العرب على أنهم جواسيس ويتوجسون منهم خيفة ؛ وهم يقرءون كل يوم فى الصحف المحترمة مثل هذه الأنباء المثيرة . !!

هذا الوهم الخاطىء دفع الجنود إلى اتهام كل بدوى بالتجسس ؛ ويكفى لإلصاق التهمة أن يوجد فى جسده « وشم قديم » أو « كى » بالنار وقلما تجد فى أجسام البدو من يخلو من الوشم ؛ وهو وسيلة الزينة ؛ أو الكى وهو الوسيلة الوحيدة للعلاج ! ! فإن وجدت هاتين العلامتين فهو جاسوس خطر (مختوم) ، وقبل أن تدخل التهمة فى دور التحقيق يكون صاحبنا هذا قد نال نصيبه الوافر من الضرب بالأيدى والركل بالأقدام .

ويكفى للتدليل على هذه الأخطاء وأثرها أن نذكر قصة واحدة شاهدناها بأعيننا وسمعناها بآذاننا وهى أيضاً على سبيل المثال .

حينما كان الجيش المصرى الباسل يخوض غمار المعارك العنيفة فى منطقة « بئر السبع » ، كان هناك أعرابى يدعى « ابن عقيل » وكان هذا العربى واسع الحيلة عظيم الشجاعة خبيراً بمسالك الصحراء ودروبها ، مما حدا بقائد منطقة « عسلوج » فى ذلك الحين اليوزباشى « عبد المنعم

عبد الرءوف » أن يستغله فى وضع الألغام على طرق اليهود ؛ فأدى الرجل دوره ببراعة وإخلاص يستحقان التقدير والإعجاب ، ثم نقل هذا اليوزباشى بفرقته وحل محله آخرون ، واستمر هذا البدوى يؤدى دوره الجليل حتى بدأت المأساة التى كادت تودى به . وذلك أنه عثر على عدد من الألغام الضخمة وضعها اليهود على طريق الجيش المصرى ، ولما كان الرجل قد اكتسب خبرة فى الألغام لاشتغاله بها وقتاً طويلا ، فقد نجح فى نزعها من الطريق وحملها فى كيس على كتفه ومضى فخوراً بعمله ليوصلها إلى قيادة الجيش فى المنطقة ، ورآه الجنود من الحراس يحمل ألغاماً على ظهره فقبضوا عليه وأخذوا يتصايحون : جاسوس . . جاسوس ، وانهالوا عليه ضرباً دون سؤال أو جواب والرجل يحاول إقناعهم دون جدوى ، ثم تحسسوا بدنه فإذا هو « مختوم » بعدة أختام ترمز إلى عدد الأمراض التى أصيب بها فى حياته !.

والعجيب — وهذا موضع العجب كله — أن تؤمن القيادة المحلية بأنه جاسوس وتشكل له محاكمة عسكرية لتحاكمه بتهمة الخيانة العظمى ، ولم يكن المجلس العسكرى فى حاجة لمزيد من الأدلة فأصدر حكمه بإعدامه ، وكان المفروض أن تستمر هذه المهزلة إلى نهايتها لولا أن تدخل قدر الله فى آخر لحظة ، إذ تقدم أحد أعيان البدو — وكان يعلم القصة كلها — باسترحام إلى الجهات المسئولة يرجو إعادة النظر فى قضية هذا المجاهد البائس ؛ وأعيدت المحاكمة وتشكل لها مجلس عسكرى جديد ، وطلب الأعرابى فى هذه المرة شهادة اليوزباشى « عبد المنعم عبد الرءوف » الذى جاء ليؤدى شهادة الحق وليبين تعدد الخدمات التى أداها هذا الرجل ، ومن بينها إنقاذ أحمد سالم باشا ورتل من السيارات العسكرية معه ، وكانوا على وشك أن يطأوا لغماً هائلا وضعه اليهود فى طريقهم ، وكان صاحبنا

يرقب ذلك من مكمن قريب ، وحاول نزعها فلم يستطع فظل يحرسها وقتاً طويلا ليمنع أحداً من الاقتراب إليها .

وأمام هذه الحجج الدامغة لم يجد المجلس العسكرى بداً من تبرئته ، مع منحة مالية وهبها له رئيس المجلس من جيبه الخاص . ولولا الظروف وحدها لنفذ حكم الإعدام فى هذا المسكين ، ولأزهقت روح بريئة ظلماً وعدواناً ، وأزهقت معها سمعة وكرامة لشعب مجاهد كريم ، ولذهبت هذه القصة أيضاً مثلا جديداً يضاف إلى غيره للتدليل على جاسوسية العرب وخيانتهم العظمى . !!

وهكذا وقعت الجيوش العربية فى الخطأ بسهولة ، وبدل أن تقوم بخطة مضادة تعيد بها للشعب المنكود ثقته بنفسه وبأصدقائه ، وتضمه إلى صفها ، إذا بها تضخم الخطر وتحذر جنود وحداتها من التعامل مع العرب والاطمئنان إليهم ، ومن هنا خرجت تلك النغمة المرذولة عن التجسس والخيانة ؛ بدأت خافتة محدودة ، ثم انقلبت إلى ضجيج هائل ، طغى على صوت الحرب نفسها ، وضاعت فى غمارها معالم جهاد رائع ، وتضحيات فذه ، قام بها الشعب الفلسطينى طيلة ثلاثين عاماً ؛ واختفت من الوجود تلك الصفحة المشرقة من جهاد عرب فلسطين ؛ الصفحة التى مر بك طرف منها ؛ وخطتها دماء الشهداء الأبطال من أمثال (عز الدين القسام ؛ وعبد القادر الحسينى ؛ وحسن سلامه) وزملائهم من زهرات الشباب الكريم ؛ لتحل محلها صفحة سوداء قاتمة ؛ يتخللها الخزى والعار ويعلوها الجهل وسوء التصرف ؛ وتكون النتيجة الحتمية لهذا أن يحكم على الشعب الفلسطينى بالابتعاد عن مسرح القتال ؛ والجلوس فى مقاعد المتفرجين ؛ حتى تنتهى مسرحية الحرب لتفيق الأمة المجاهدة فتجد نفسها مجموعات ممزقة من اللاجئين المشردين .

ولقد أصبحت جاسوسية العرب وخيانتهم سبباً كافياً يقدمه الضباط الصغار ؛ لتعليل الهزائم التى يمنون بها ؛ أو لتعليل العمليات الجريئة التى يقوم بها اليهود ؛ لا تمر معركة من المعارك حتى تستمع لهذه الجملة من الجنود العائدين يقولونها بلهجة الواثقين (ياعم إذا كان العرب بيحاربونا مع اليهود) ، ثم يمضون فى حبك القصص الخيالية ، مؤكدين أن العرب كانوا يهاجمون مؤخرتهم ويطلقون عليهم الرصاص من حدائق البرتقال ، وأعجب ما فى الأمر أن هذه الأنباء المختلقة كانت تلاقى آذاناً صاغية فى القيادات العليا ، وتقبلها عقول المسئولين على أنها حقيقة واقعة لاتقبل الشك والتأويل .

ولقد استغلت هذه الحركة استغلالا سيئاً فى كثير من النواحى ، وأصبحت تهمة الجاسوسية سيفاً مصلتاً على أعناق الناس ، تكفى لاستعماله شهادة جندى مغرض ، أو مدنى موتور ، لينزل على الرقاب فى غير تردد ولا شفقة ، ولا عجب فى ذلك فقد كانت الخواطر مبلبلة ، والأذهان مهيئة ، لقبول التهمة وتصديقها ولو وقعت على أرسخ الناس قدماً فى الجهاد وأشدهم تفانياً فيه .

ولقد كاد الإخوان يقعون فى هذه الأخطاء تحت تأثير الدعايات اليهودية ، والأساليب التى خلقها اليهود لبذر بذور العداء بين أهل البلاد وإخوانهم من المجاهدين . وواضح أن عرب فلسطين قد ابتهجوا بدخول الإخوان وارتاحوا إليهم ، وسارعوا للانضمام فى صفوفهم حتى أصبح عدد أهل البلاد المتطوعين مع الإخوان ، أكثر بكثير من عدد الإخوان أنفسهم ، ولم يسر اليهود بهذه الحركة ، فعملوا منذ اليوم الأول على بذر بذور الفتنة بين الإخوان وأهل البلاد ، وسلكوا كل سبيل لتقويض أركان هذه

الوحدة ، فكانوا يأمرون جنودهم بارتداء الزى العربى فى بعض المعارك ، لإيهام الإخوان أن عرب فلسطين يقاتلون مع اليهود ، ولقد حدثنى أحد الإخوان الذين اشتركوا فى معارك اللد أن هذه الطريقة بالذات اتبعت ضد الجيش الأردنى ، إذهجمت القوات اليهودية على المدينة والجنود يضعون على رؤوسهم العقال العربى تعلوه شارة الجيش الأردنى ، فخرج الناس يقولون إن الجيش الأردنى يقاتل جنباً إلى جنب مع اليهود ! !

ولم يكف اليهود عن محاولاتهم فالتمسوا طرقاً كثيرة ، وكلما فشلت طريقة لجأوا إلى شيطانهم يلتمسون عنده غيرها ، حتى أعيتهم الحيل وفشلوا فشلا ذريعاً فى فصم عرى محبة جمعها الإسلام وباركتها يد الله . أذكر ذلك اليوم الذى جاءنى فيه أحد الأعراب من أصدقاء الإخوان ليقول لى إن شيخ العرب (فلان) جاءه وحمله رسالة إلينا مؤداها أن (م) — وهو شخصية عربية كبيرة تحتل مركزاً مدنياً هاماً فى المنطقة — جاسوس لليهود ، وأنه — أى (م) — متصل بقيادة القوات الإسرائيلية فى الجنوب وأنه يبلغهم الأخبار أولا بأول نظير وعود قطعها اليهود له ، بتعيينه حاكماً عسكرياً للمنطقة فى حالة استيلائهم عليها ، وقال الأعرابى الصديق نقلا عن (فلان) أن هناك اتصالا سوف يتم بعد يومين فى مكان محدد بين قائد إحدى المستعمرات وبين الشخصية الكبيرة . ولقد كان الخبر مثيراً للغاية ، لأنه يتعلق بشخصية لها خطرها فى المنطقة ، ولقد ذهبنا فى الموعد المحدد لإستجلاء الأمر وإلقاء القبض على الشخصية الكبيرة أثناء تفاوضها مع اليهود ، غير أننا لم نجد شيئاً ، ولم تمض إلا أيام قلائل بعد هذه المحادثة ، حتى انكشف السر وظهر الخبىء ، إذ اختفى (فلان) مصدر الرواية وصاحبها وعلمت أنه موجود فى إحدى المستعمرات وأن الرواية كلها مختلقة لا أساس

لها . وليست إلا مناورة مدبرة إريد بها اشعال الفتنة بيننا وبين أهالى البلاد .

هذه الوسائل وأشباهها مما لايتسع المجال لسرده هى التى نجحت بعد ذلك فى توسيع شقة الجفاء بين أهل البلاد والجيوش النظامية ووصلت بالعلاقات بين الحلفاء الأصدقاء إلى تلك الحالة المؤسفة من الشدة وعدم الثقة ؛ والتى ترتب عنها ماذكرته من استحالة التعاون بين الشعب الفلسطينى وحلفائه من جيوش العرب ، ولقد صارحنى أحد قواد المستعمرات اليهودية فى النقب وكنا نتفاوض معهم خلال الهدنة الأولى بشأن نقل بعض الجثث ، فقال لى فى مجال الحديث حول الحرب (لقد نجحنا فى إخراج الشعب الفلسطينى من المعركة وهو الذى مارس قتالنا خلال أعوام طوال ؛ أما أنتم أيها الغرباء فلن نأبه لكم ولن يصعب علينا إلقاؤكم فى البحر متى جاء الوقت المناسب) ! وقد كان ! . . . .

٩ — الإخوان فى النقب

« معركة كفار ديروم الأولى »

[كان الإخوان ينتزعون ألغام اليهود وينسفونهم بها فى صحراء النقب] المواوى فى شهادته

كثيراً ما يضع الانسان لنفسه خطة يرتضيها ويسير عليها ويعتقد صوابها ، ثم تأتى الحوادث بعد ذلك فتصرفه عن خطته فلا يملك إلا أن يسير فى اتجاه آخر ، وكثيراً ما يكون الاتجاه الذى يسلكه على الرغم منه صحيحاً حتى إذا اطمأن إلى صحته ووثق من صوابه ، نظر إلى خطته التى اختطها لنفسه وهنالك تبدو له عيوبها ويقف على كثير من مساوئها .

لم يكن الاخوان يعلمون عن المستعمرات اليهودية وتحصيناتها أكثر مما عرفته إدارة المخابرات فى الجيوش العربية النظامية ، فلقد هونت هذه المخابرات من شأن التحصينات اليهودية وقللت من أهميتها ، حتى لقد قدرت إحداها مدة أقصاها ٧٢ ساعة ليفرغ جيشها من إحتلال فلسطين كلها ، وحتى سمعنا أحد المسؤولين العسكريين فى جيش عربى كبير يقول للوحدات العسكرية الزاحفة إنها ذاهبة فى « نزهة عسكرية » إلى « تل أبيب » لا أكثر ولا أقل ، وحتى يقطع على الضباط والجنود دهشتهم قال لهم : إن الناس فى قريته حين يقيمون الأفراح والليالى الملاح ، يطلقون الرصاص فى الهواء دليلا لفرحهم وعلامة لابتهاجهم ، وإن الأسلحة التى معكم تكفى جداً لهذه المهمة الهينة اللينة .

قال هذا الكبير المسؤول هذا الكلام أو معناه لوحدات جيشه الزاحف

بينما كان كبير مسؤول فى دولة عربية أخرى يقول لمراسلى الصحافة وهو يهم بإصدار الأوامر لجيشه ببدء الزحف . إن دخول الجيوش العربية كلها لم يكن فى الواقع إلا لتقصير أمد الحرب وإنهائها بسرعة ، ولما سأله الصحفيون عن مدى قدرة اليهود العسكرية قال لهم : « إن فرقة واحدة من جيشه كفيلة بالقضاء على العصابات اليهودية وإلقائها فى قاع البحر فى مدة لا تتجاوز أسبوعا واحداً » .

لا شك أن هذه العبارات التى فاه بها العسكريون المسؤولون عند بداية الحرب ، والحوادث التى جاءت بعد ذلك ، تدل على درجة مهارة المخابرات الحربية فى الجيوش العربية ، وعلى صحة المعلومات التى لديها عن نشاط الصهيونيين ومدى استعدادهم .

ولو وقف الأمر عند حد هذه التصريحات الكلامية لقلنا إنها من باب التشجيع ورفع الروح المعنوية لدى المحاربين ، ولكن الخطط العسكرية والطرق التى نفذت بها ، والتدابير والأسلحة التى جابهنا بها العدو ، كلها تدل دلالة واضحة على استهتار بالغ بالعدو ، وجهل مطبق بخططه وقوته ، وتدل أيضا على أن جيوشنا دخلت الحرب على أنها « نزهة عسكرية » فلا ، وأن الأسلحة والذخائر لم تكن فى الواقع إلا بالقدر الذى يكفى لإقامة الأفراح والليالى الملاح ! !

كان الإخوان فى الفترة الأولى من الحرب يجهلون المستعمرات اليهودية وطرق تحصينها ، فظنوا أن فى مقدورهم مهاجمتها وإحتلالها رغم ما كانوا يعانونه من نقص فى الأسلحة والمعدات ، ولقد تمت المحاولة الأولى فى الساعة الثانية من صباح ١٤ أبريل سنة ١٩٤٨ وكان الغرض منها إحتلال مستعمرة « كفار ديروم » المحصنة ، وهذه المستعمرة وإن كانت صغيرة الحجم إلا أنها كانت مقامة فى وضع بالغ الأهمية لقربها من الحدود المصرية ولوقوعها

على طريق المواصلات الرئيسى الذى يربط مصر بفلسطين ، وكان فى استطاعة حراسها أن يراقبوا الداخل والخارج ، وأن يقطعوا هذا الطريق فى أى وقت يشاءون ، وهم يختفون خلف أبراجهم المسلحة دون أن يتعرضوا لشيء من الأذى . لذلك كله اهتمت القيادة اليهودية بهذه المستعمرة ، وبالغت فى تحصينها وإقامة الأبراج الشاهقة حولها ، وأحاطتها بحقول كثيفة من الألغام والموانع السلكية الشائكة ، ثم زودتها بعدد كبير من نخبة رجال « الهاجاناه » وفرقة « البالماخ » الفدائية .

هذا وصف موجز لهذا « الجيب » اليهودى الخطر الذى حاول الإخوان تطهيره واحتلاله ، ثم تلقوا على يديه درسا قاسيا ، وكانت هذه المعركة هى نقطة التحول التى غيرت خططهم وصرفتهم عن معاودة الهجوم على المستعمرات دون أن يملكوا المعدات اللازمة لهذا النوع من القتال .

هاجم الإخوان المستعمرة فى وقت مبكر من صبيحة اليوم ، ونجحوا فى المرور خلال حقول الألغام عبر ممرات أعدوها طوال الأسبوع الذى سبق المعركة ، واجتازوا عوائق الأسلاك الشائكة ، كل هذا تم بدقة وسرعة دون أن ينتبه حراس المستعمرة لما يجرى حولهم ، ولم يفيقوا إلا على صوت انفجار هائل أطاح بأحد مراكز الحراسة ، ثم بدأت المعركة داخل الخنادق وعلى أبواب الأبراج و « الدشم » وأبدى الإخوان فى هذه المرحلة من ضروب البطولة والفدائية مالا يمكن حصره وتصويره ، واستطاع اليهود أن يسدوا الثغرات التى أحدثها المجاهدون فى دفاعات المستعمرة ، ثم حاصروا القوة الصغيرة التى نجحت فى التسلل إلى أوكارهم ومضوا يحصدونها ببنادقهم ورشاشاتهم .

وهكذا فشلت المحاولة الأولى ومضى الإخوان يحملون شهداءهم



محمد عبد الخالق يوسف
من شهداء (كفار ديروم)



اهد (لطفى ميرة) جرح فى (كفار ديروم)
ولا يزال نزيل المستشفى حتى الآن



عبد الرحيم عبد الحى من شهداء (كفارديروم)



بدالرحمن عبد الخالق من شهداء (كفارديروم)

وجرحاهم وكان عددهم يربو على العشرين ، وانتهت المعركة على هذه الصورة المؤسفة ولكنها ظلت مثلا فريدا للبطولة والتضحية ، ومما زاد فى روعتها أنها كانت المعركة الليلية الوحيدة التى شهدتها معارك الجنوب وتمت بخفة وهدوء يدلان على مستوى عال فى التدريب والمقدرة ، وظل الإخوان طوال فترة الحرب يتذاكرون المثل العليا التى سجلها المجاهدون فيها والتى أعادت للأذهان صور حية من جهاد الصدر الأول ، فهذا أحدهم وهو المجاهد « محمد سلطان » من مجاهدى الشرقية ، يزحف على بطنه حاملا لغما هائلا وهدفه أحد مراكز الحراسة فى المستعمرة ينتبه إليه الحراس وهو على قيد خطوات من هدفه ، فيطلقون عليه رصاصات تصيبه فى ذراعه ، وتعجزه عن المضى فى زحفه ، ولكنه يتحامل على نفسه ، ويزحف بصعوبة والدماء تنزف من جراحه ، والرصاص يتناثر من حوله ، ويظل يجاهد بعناد حتى يقترب من هدفه فيشعل اللغم فينفجر ، ويدمر مركز الحراسة ، ويقضى على البطل الفذ ، ويمضى ليلاقى ربه شهيداً . وهذا المجاهد (عبدالرحمن عبد الخالق) يقود إحدى جماعات الاقتحام فى المعركة ويستمر فى قتاله الرائع رغم أوامر الانسحاب التى صدرت إليه ، فيقول كيف ننسحب وإخواننا فى داخل المستعمرة ؟ ثم يذكر من معه قول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار » ، ويظل يقاتل بشدة حتى تصيبه رصاصة قاتلة فى رأسه لتضع اسمه فى عداد الشهداء الخالدين .

وهذا مجاهد آخر ، هو (عمر عبد الرؤوف) تصيبه رصاصة فى صدره فتبدو على وجهه ابتسامة مشرقة ، ويهتف بمن حوله « أترون ما أرى ؟ ثم يأخذ نفساً طويلا ، ويقول هذه هى الجنة . . . إننى أراها . . . وأشم

رائحتها » ، ثم يلفظ أنفاسه الطاهرة ، ليمضى إلى جنة ربه الموعودة .

ولكل شهيد من شهداء هذه المعركة قصة فى البطولة لا يزال إخوانهم الأحياء يرددونها بمزيد من الإعجاب والتقدير .

انتهت هذه المعركة وخرج الإخوان منها بنتيجة واحدة ، فهموها وظلوا يعملون على أساسها ، طوال الفترة التى قضوها فى فلسطين ، فهموا أن مهاجمة المستعمرات اليهودية بهذا النقص الواضح فى الأسلحة والمعدات هو انتحار محقق ، وفهموا كذلك أنهم لن ينجحوا إلا فى حرب عصابات ينزلون فيها الضربات على خصومهم خارج هذه المستعمرات دون التعرض لحصونهم واستحكاماتهم . ولقد قلت للاخوان عقب هذه المعركة مباشرة : «إن اليهود أقوياء فى هذه الحصون والأبراج ، فلن نهاجمهم فيها بعد اليوم ، ولكننا سنغير على قوافلهم ونضطرهم لقتالنا فى الأرض المكشوفة » وعلى هذه الطريقة بدأ الإخوان ينظمون أنفسهم فى عصابات صغيرة ترابط على طرق المواصلات وتهاجم شبكات المياه ومراكز التموين ، حتى اضطر اليهود إلى إخراج كثير من قواتهم لحراسة المواصلات والقوافل ، فاستطاع الإخوان بذلك إن يوقعوا بهم ضربات حاسمة سريعة ، وأن يغنموا منهم كميات وفيرة من العتاد والسلاح .

١٠ — الإخوان يقومون بحرب العصابات

[الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين] . محمد رسول الله

قد يظن البعض أن حروب العصابات ، أو الحروب غير النظامية بصفة عامة ، هى أعمال فوضوية لا هدف لها ولا نتيجة من ورائها ، وأود قبل أن أبين الدور الذى قام به الاخوان حين اشتغالهم بهذا النوع من القتال، أن أوضح بإيجاز ماهية حرب العصابات ومدى تأثيرها على النتائج العامة للحروب .

فالواقع أن هذا النوع من القتال ، لا يمكن أن يقوم به إلا رجال يؤمنون إيماناً عميقاً ، بعدالة الفكرة التى يحاربون من أجلها ، ولضمان النتائج الحاسمة يجب أن يكون هؤلاء الأفراد على مستوى رفيع من التدريب والذكاء ، ذلك لأنهم يتعرضون فى قتالهم ، إلى كثير من المآزق الخطرة ، ولأن مهمتهم الأساسية هى محاربة العدو فى أرض تحتلها قواته ، ليثيروا الرعب والفوضى فى مؤخرته ، ويقوموا بهجمات خاطفة على طرق مواصلاته ويدمرون ما تقع عليه أعينهم من أسلحة ومعدات . ويمكن تلخيص النتائج التى تطلب من رجال العصابات على الوجه الآتى :

أولا : إنزال الخسائر بالعدو دون الاشتباك معه فى معارك مباشرة .

ثانياً : إرغام العدو على تشتيت قواته وتخصيص جزء كبير منها لمطاردة هذه العصابات ومكافحتها .

ثالثاً : إرغامه على حراسة منشآته وطرق مواصلاته حراسة قوية وفى هذا ما يبعثر قوته ويجعله فى قلق دائم .

رابعاً : إثارة العناصر الوطنية ضد قواته والتعاون معها وتسخيرها لتسقط الأنباء والتحركات ومعرفة الأهداف الهامة ، كمراكز التموين ومناطق الحشد .

تلك هى خلاصة الواجبات التى تناط برجال العصابات ، وسنرى بعد قليل مدى النجاح الذى أحرزه الاخوان فى خططهم الجديدة على ضوء هذه المعلومات .

وإن الباحث فى التاريخ يجد أن كثيراً من الحروب لم تحسمها الجيوش المنظمة إلا بمعونة العصابات ، وقد عرف التاريخ الاسلامى هذا النوع من القتال ، فى (السرايا) التى كان يبعثها الرسول صلى الله عليه وسلم لتجوب أنحاء الجزيرة لقطع تجارة العدو ، وإثارة الرعب فى قلوب القبائل الموالية له ؛ وفى الحرب العالمية الأولى نجحت العصابات العربية التى حركها (لورنس) وقادها أنجال الشريف «حسين» فى إزعاج الجيوش التركية فى ميادين الشرق العربى ، وإرغامها على توزيع قواتها بين جبهات واسعة ، حتى دخلت جيوش الحلفاء بقيادة (اللنبى) وأنزلت بها الهزيمة النهائية .

وفى الحرب العالمية الثانية تحطم كثير من الجيوش الأوربية تحت ضربات الجيش النازى . ولجأ قادة الدول المحتلة وزعماء الحركات التحررية بها إلى حروب العصابات يزعجون بها قوات الاحتلال الألمانية ؛ ويغيرون على مراكز حشدها ويقتلون ضباطها وأفرادها . حتى اضطرت القيادة العليا الألمانية إلى التخلى عن كثير من المناطق — حيث احتلها رجال العصابات — والاحتفاظ بالمراكز الهامة ، وظلت هذه العصابات تعمل بنشاط حتى أصبحت شوكة حادة تهدد ظهر الجيوش الغازية ، وكانت سبباً مباشراً للهزائم التى لحقت بالنازيين حين تحول ميدان القتال إلى القارة



القائد العربى فوزى القاوقجى باشا

الأوربية . وهكذا نجحت العصابات فى تحرير بلادها وطرد الغاصبين من أرضها ، وكانت خير معوان لجيوش الحلفاء المنظمة التى قامت بعمليات التحرير فى أوربا بعد ذلك .

ولقد استخدم اليهود هذا النوع من التكتيكات . وأدخلوا فى حسابهم دخول الجيوش النظامية فشكلوا قواتهم على أساس حرب العصابات وأخذوا يغيرون على مراكز الجيوش العربية ويوقعون بها الضربات دون أن يصمدوا أمامها فى معركة مباشرة . ولما لعبت السياسة الاستعمارية دورها فى فلسطين ، وتوقفت الجيوش العربية بمقتضى قرارات الهدنة ووقف القتال أخذ اليهود يقاتلون بجيش منظم يرمى لكسب الأرض والدفاع عنها بجانب ما تقوم به العصابات الارهابية من معونة صادقة للقوات النظامية ، خاصة خلال الهدنة ، وتكون الحجة دائماً أنها عصابات غير نظامية لا سلطان لحكومة إسرائيل عليها ،وقد رأينا كيف استطاعت هذه الحكومة أن تتنصل من اغتيال الكونت برنادوت وسيط هيئة الأمم بينما ألقت الوزر كله على عصابات إرهابية متمردة . !

لاشك أن حربنا فى فلسطين كانت تحتاج إلى هذا النوع من التشكيلات لتعمل جنباً إلى جنب مع القوات النظامية ، وكان المفروض أن يقوم الشعب الفلسطينى بهذا النوع من القتال ، لولا عوامل الشك وعدم الثقة المتبادلة التى بذرها العدو ، وجنت الجيوش العربية نتائجها .

وحين دخلت القوات غير النظامية التى شكلتها الجامعة العربية باسم (جيش الإنقاذ) ، وتركت مهمة قيادتها للقائد العربى (فوزى القاوقجى) كان من الواجب أن تقوم بهذه المهمة الخطيرة ، فتتعقب العصابات الصهيونية ، وتغير على مراكز الجيش الاسرائيلى . بينما تحتل الجيوش

النظامية المدن والمراكز الهامة وتكون عصاباتنا فى هذه الحالة كعصابات اليهود غير مقيدة بقرارات الهدنة ووقف القتال . وما يقال عن قوات القاوقجى يقال عن جيش التحرير والجهاد المقدس ، وأفواج المناضلين العرب ، وأخيراً القوة (الخفيفة) التى تولى قيادتها الشهيد أحمدعبد العزيز. ولكن هذه القوات كلها خلطت بين عملها الأساسى الذى كان يمكن أن تنجح فيه ،ومضت تدافع عن القرى العربية وتشغل نفسها بالهجوم على المستعمرات المحصنة دون جدوى . أما القاوقجى فقد استدرجه اليهود إلى أن ظفروا بقواته وأنزلوا به الضربة القاصمة عند (مشمار هاعيميك) وبذلك انتهى أمره وتبعثرت قواته . وأما الشهيد أحمد عبدالعزيز فقد حاول مهاجمة المستعمرات حتى استقر أخيراً فى جبال الخليل . وتحولت قوته لقوة نظامية تدافع عن منطقة محدودة .

وأود قبل أن أصل إلى غايتى من وراء هذا البحث أن أناقش رأياً يقول به البعض . وهو أن دخول الجيوش العربية لفلسطين كان بداية الكارثة التى أطاحت بها . وأن فلسطين لم تكن فى حاجة إلا لعصابات تعمل بحرية ولا تتقيد بقرارات مجلس الأمن وهيئة الأمم . والواقع أن هذا الرأى لم يظهر إلا عقب الهزائم التى منيت بها الجيوش العربية . والتى ثبت أن من بعض أسبابها خضوع هذه الجيوش لقرارات مجلس الأمن بوقف إطلاق النار ،خاصة فى هدنة الأسابيع الأربعة حيث تمكن اليهود من جلب الكثير من الأسلحة ومعدات الحرب التى لم يكن لها وجود لديهم قبل ذلك التاريخ .

والرد على هذا الرأى (أن العصابات لايمكن أن تقاتل عصابات مثلها وتنتصر عليها) وأن العصابات لايمكن أن تحسم الحرب بمفردها ولكنها

كانت ولا تزال دائماً سلاحاً خطراً لو سارت فى ركاب جيش منظم وأحسن تدريب أفرادها وقـادهم . فيحتل الجيش المنظم المدن والمراكز ويتولى الدفاع عنها بينما تقوم العصابات المدربة بتحطيم قوى العدو ومهاجمة وحداته وطرق مواصلاته .

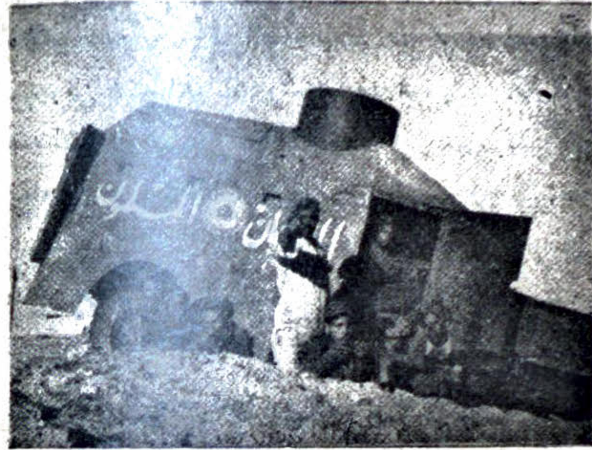
وإذن فلم يكن هناك مفر من دخول الجيوش العربية لتحقيق الهدف الذى حاربنا من أجله، ولكن الخطأ أولا وآخراً ، فى عدم استعداد هذه الجيوش استعداداً يكفل لها أداء مهمتها . وجهلها المطبق بقوى العدو الذى تحاربه . والخطأ بعد ذلك خطأ الزعماء السياسيين الذين لم يدخلوا فى حسابهم هذه الهيئات الدولية ومدى خضوعهم لها . أما دخول الجيوش نفسها فلا غبار عليه ولا مفر منه ولا يمكن أن تحسم الحرب بدونه . لا فى الماضى ولا فى المستقبل إذا أردنا حقا أن نعاود الكرة لتحرير الأرض المقدسة .

قلنا إن الدرس الذى استخلصه الإخوان من معركة (ديروم) الأولى أن يشرعوا فى تنظيم حرب عصابات تشمل صحراء النقب كلها . ولقد باشروا تنفيذ هذه الخطة ومضوا يخرجون فى عصابات قوية تدمر شبكات المياه وتنصب (الكمائن) على طرق المواصـلات ؛ حتى استطاعوا تدمير عدد كبير من المصفحات والسيارات .

ولقد حدث مرة أن قامت قوة منهم بقيادة المجاهد (حسن عبد الغنى) بتدمير شبكات المياه بين مستعمرتى (بيرى) و (اتكوما) وأباحت أنابيب المياه لأعراب المنطقة ينتزعونها من الأرض تحت حراستهم ، حتى نزعت من الأنابيب مساحات شاسعة ؛ ثم رابطت فى المنطقة ؛ لتمنع العدو من إصـلاحها ؛ وصـبر اليهود يومين عساها تنصرف لشأنها ؛ ولـكن القوة العنيدة ظلت تواصل تدمير الأنابيب ونزعها والتعرض للمصفحات والقوافل

التى تحاول إصلاحها [illegible] القيادة الإسرائيلية بدأً من الدخول فى معركة مباشرة ، فجمعت عدداً كبيراً من المصفحات من جميع المستعمرات . وأحاطت القوة الصغيرة من جميع الجهات ؛ وأخذت تقترب منها على أمل أن تظفر بها . وصمد الإخوان صموداً عجيباً ؛ وأوقعوا من اليهود عدداً من القتلى قبل أن يبعثوا فى طلب النجدات من معسكراتهم . وجاءت مصفحات الإخوان وأقامت نطاقا حول مصفحات العدو الذى سقط فى يده حين رأى نفسه محصوراً بين نارين ؛ فاضطر إلى طلب نجدات أخرى من المستعمرات القريبة ؛ وامتلأ ميدان المعركة بقوات كبيرة من الجانبين . واشتد القتال بين الفريقين شدة لم يسبق لها مثيل ؛ حتى يئس العدو من زحزحة الإخوان عن موقفهم ؛ فأخذ يطلق سحباً من الدخان ليستر انسحابه . وما كادت أطباق الدخان تنجاب عن ميدان المعركة حتى سارع الإخوان يجمعون غنائمهم من السلاح ويعودون لتدمير الأنابيب من جديد .

وأيقن اليهود أنه لا قبل لهم بمواجهة هذه القوات المتفانيـة فى حرب شريفة ، فلجأوا إلى أسلحة الغدر والخيانة ؛ وحاولوا تسميم آبار يستعملها الإخوان فى منطقة (خزاعة) حيث كان المجاهد (نجيب جويفل) يرابط فيها بسريته ؛ ولـكن عين الله المبصرة ويقظة الإخوان مكنتهم من اكتشاف الجريمة قبل وقوعها ؛ وذلك أنهم لمحوا رجلين يرتديان الملابس العربية ويتظاهران باستجلاب الماء ؛ وكان منظرهما يدعو إلى الريبـة ؛ فاقترب منهم الجندى الحارس وأمرهما بالوقوف ؛ فلاذا بالفرار ؛ فتعقبهما الحارس وعدد من إخوانه حتى أدركوهما ولم يبق بينهمـا إلا خطوات ؛ وأمروهما بالتسليم مهددين إياهما بإطلاق النار ؛ فرفعا أيديهما بالتسليم ؛ وحـين اقترب الإخوان منهما انبطحا على الأرض فى سرعة ، وقذفا على المهاجمين عدداً من القنابل اليدوية ؛ وأسرع الإخوان بملاصـقة الأرض



نوع من السيارات المدرعة ، تركها اليهود وغنمها الإخوان

ثم أطلقوا عليهما النار فأردوهما قتيلين . وبلغت النقمة بالإخوان من هذا الغدر أن حملوا الجثتين إلى مستعمرة « نيريم » . وهناك على مقربة من العدو نضحوا الجثتين بالبترول وأشعلوا فيهما النار على مرأى جيد من المستعمرة . وجن جنود اليهود وأخذوا يلوحون بأيديهم فى غضب وانفعال وحين جن الليـل هاجموا مواقع الإخوان فى (خزاعة) انتقاماً لهـذا الحادث . ولم يتمكنوا من زحزحة الإخوان أو إبادتهم ، وإن كانوا قد نجحوا فى قتل أحد المجاهدين الأبرار ؛ وذلكم هو المجاهد الشهيد (عيسى اسماعيل عيسى) من إخوان الشرقية الكرام .

وهكذا نجحت الخطة الجديدة ؛ ولم يعد الإخوان فى حاجة إلى معاودة الهجوم على المستعمرات المحصنة والتعرض لنيرانها وحصونها ؛ ذلك لأن اليهود قد اضطروا إزاء هجمات الإخوان الموفقة على قوافلهم وطرق مواصلاتهم



مدرعة أمريكية ، استولى عليها الاخوان فى إحدى المعارك

إلى تعيين داوريات ميكانيكية وقوات كبيرة من المشاة لحراسة تلك الطرق والمنشآت وحمايتها أمام تلك الهجمات ؛ ولم يكن الإخوان ليضيعوا الفرصة الثمينة ؛ فأخذوا يغيرون على هـذه القوات المبعثرة فى الصحراء ويرغمونها على القتال إرغاماً ، حتى تحولت تلك المنطقة إلى ساحة حرب قوية ، ولم يكن يمر يوم فى تلك الفترة دون أن تنشب معركة عنيفة تنتهى حتماً بقتل عدد من جنود الأعداء وتدمير عدد آخر من مركباتهم ومدرعاتهم .

ولقد حاولت القيادة اليهودية أكثر من مرة القضاء على هذه العصابات وتطهير المنطقة منها ؛ فكانت ترسل عدداً كبيراً من قواتها ؛ وكان هذا أقصى ما يريده الإخوان فيستدرجونهم إلى المناطق الوعرة ؛ ويحاصرونهم فى الشعاب والوديان .

وإذا نظرنا إلى هذه الفترة ؛ نجد أن الإخوان قد وصلوا إلى نتيجتين لم يكونوا يستطيعون الوصول إليهما بدون هذه الأعمال العصابية ؛ فالنتيجة

الأولى هى خروج اليهود من مستعمراتهم وحصونهم لمقاومة عصابات خفيفة محصنة ؛ فى بطون الشعاب والوديان ؛ والنتيجة الثانية أن الإخوان استطاعوا الحصول على كثير من الغنائم والمعدات التى لم يكونوا يملكونها كالمصفحات الضخمة والأسلحة الرشاشة البعيدة المرمى ؛ هذا عدا أنواع مختلفة وكميات كبيرة من الذخائر والقنابل .

وكان الواجب يحتم علينا منذ شرعنا فى تنظيم حرب العصابات أن نتعاون مع أعراب المنطقة ؛ غير أن الإشاعات التى كانت الدعاية اليهودية ترددها عن خيانة هؤلاء البدو ومدى تعاونهم مع العدو قد وقفت سداً منيعاً دون ذلك التعاون المنشود ؛ ولم نكن نستطيع العمل فى هذه المناطق دون أن نتبين مدى صحة هذه الإشاعات . ودون أن نحيل بدو هذه المنطقة إلى قوة متعاونة معنا على الهدف والغاية . ولقد قمنا بمحاولات كبيرة إزاء هذه المشكلة أثبتها فى هذا البحث كأساس لما جنيناه من نتائج .

بعثنا عدداً من داوريات الاستكشاف ؛ وذهبت بصحبة الإخوان المسئولين أكثر من مرة ؛ تخيل إلينا أن هناك شبه تعاون فعلا بين اليهود وبدو تلك المناطق . فهذه المصفحات اليهودية تتنقل بين المستعمرات بحرية وأمان ؛ وتمر على خطوات من مضارب البدو وخيامهم دون أن يتعرضوا لها بشىء من الأذى ؛ ولم تمض إلا أيام حتى فهمنا السبب — فبطل العجب — وعلمنا أن الخطأ يقع علينا لا على هؤلاء البدو . كان اليهود يسترضونهم بشتى السبل ويحيطونهم بكثير من صنوف الرعاية والإغراء ، فهذه أنابيب المياه تصل إلى خيام البدو ، والماء عند البدوى ضرورة عزيزة المنال ، يسير من أجله ساعات طويلة على جمله ليحصل عليها ، فإذا كان اليهود يمدونه به حتى خيمته فذلك جميل ما بعده جميل ، وها هم قواد المستعمرات اليهودية

يضيفون البدو فى خيامهم ويسامرونهم ويأكلون عندهم « العيش والملح » ويشاركونهم الأعياد والأفراح .

تلك هى الحالة التى كانت عليها قبائل (الوحيدى) و (الصانع) و (أبو معيلق) و (العزازمة) ، وغيرها من قبائل العرب ، ولا أنكر أن بعض القبائل الأخرى كانت فى حالة حرب مع اليهود من اليوم الأول لهذه الحركات ، ولكن هذا لا يمنع من تصحيح هذه الأوضاع الفاسدة ، فبدوى واحد ممالىء لليهود ، يحدث ثغرة عميقة فى خطط الدفاع ويكون أخطر علينا من كتيبة معادية تقاتلنا وجهاً لوجه .

لابد أن تصحح هذه الأوضاع ليعلم البدوى حقيقة هؤلاء الأصدقاء الألداء ، ولقد جربت البدو بنفسى فوصلت إلى نتيجة آمنت بها إيماناً عميقاً ، تلك هى إن البدوى لا ينقصه الإيمان بقضيته والتعلق بوطنه ، ولكنه فى هذه الحالة ، مضطر لسلوك هذا المسلك ، فليس لديه السلاح الذى يواجه به قوى اليهود الموزعة فى كل قطعة من وطنه ، وهو فى حالة من الفقر لا تسمح له بشراء الأسلحة وقد كانت تساوى مالا كثيراً فى ذلك الحين ، ولا توجد على مقربة منه قوات عربية منظمة تستطيع أن تدفع عنه العدوان ، وتحمى أولاده وغنمه من هجمات العدو الغادرة .

وإذن فليس الذنب ذنبه ، ولكن الجرم يقع على تلك الفئة التى وضعتها الظروف فى موضع القيادة من هذه الحرب ، والذنب بعد ذلك يتركز فى الزعامة الشعبية التى لم تكن تكلف نفسها مشقة التجول بين هؤلاء الأعراب وتنظم حركة المقاومة فى مناطقهم وتلقينهم ما يجب عمله إزاء هذه الحالة .

فعلى الذين يتهمون البدوى بالخيانة ، أن يتهموا أنفسهم بالتقصير والتضليل ، وإذا قارنا بين جهل البدوى المطبق وبين علمهم ومسئولياتهم

وعظم التبعة المعلقة فى أعناقهم أمكننا أن نحدد التهمة وأن نضع الأمور فى نصابها الصحيح .

أما الذى صنعناه نحن لتصحيح هذا الوضع وإثارة أعراب المنطقة فقد كان من البساطة والسهولة بحيث لا يحتاج إلى كثير من التفكير والتدبير ، ذلك أننا أوعزنا الى بعض شباب الإخوان أن يتسللوا فى ظلمة الليل ويبثوا الألغام على الطرق اليهودية القريبة من مضارب البدو دون أن يفطن أحد لوجودهم ، ففعلوا ، وانفجرت الألغام فى إحدى القوافل اليهودية ولم يكن العدو فى حاجة إلى التفكير ليعلم أن هؤلاء البدو هم واضعوها أو على الأقل مشتركون فى وضعها ، فأخذوا يطلقون عليهم النار بلا حساب وكانت قوة من الإخوان مستعدة على مقربة من هذه المنطقة فأغارت على مؤخرة اليهود ، وكان طبيعيا أن ينحاز العرب إلى عرب مثلهم ، وأخذوا يشاركوننا فى قتال اليهود حتى أرغموهم على دخول المستعمرات .

وهكذا نجحت الخطة وتحولت هذه القبائل منذ ذلك الحين إلى قوة معادية لليهود . وعرف الإخوان كيف يستغلون ذلك . فجندوا عدداً كبيراً من شباب القبائل وأخذوا يدربونهم على استعمال السلاح حتى إذا أتموا تدريبهم أوكلوا إليهم الأعمال الخطرة الهامة . والبدوى بطبيعته مقاتل قوى البأس فوق ما يتمتع به من مزايا تجعله بارعاً فى الإخفاء والتمويه . ولقد أظهر هؤلاء الأعراب بعد ذلك إيماناً قوياً وتفانيا فى العمل وكان لهم أبعد الأثر فى نجاح العمليات الخطرة التى اضطلع بها الإخوان بعد ذلك .

ولقد أصبحت هذه القبائل لا تكلفنا إلا شيئا يسيراً من الذخيرة . وأفراداً من الاخوان يوجهونهم وينظمون حركاتهم . ولقد تداول على قيادتهم عدد من خيرة شباب الاخوان . ممن أبلوا بلاءاً حسناً وأظهروا كثيراً من الشجاعة والقدرة أذكر منهم المجاهدين (نجيب جويفل)

و (حسن عبد الغنى) و (على صديق) وغيرهم ممن تركوا آثاراً باقية . وذكريات طيبة ، ولا يزال رجال القبائل حتى اليوم يمتدحون سيرتهم ويمجدون ذكراهم . وحين تشعبت أعمال الإخوان واتسعت الجبهات التى يحاربون فيها . وزادت القيود التى فرضتها الحكومة لمنع دخول المجاهدين من مصر . اضطررنا لتشكيل مجموعات منظمة من رجال القبائل وفتحنا باب التطوع . فانهالت جموع كبيرة من شبابهم . وفعلا تشكلت منهم عدة (سرايا) وتركنا مهمة تدريبها وإعدادها للأخ المجاهد (نصر الدين جاد) الذى بذل جهداً مشكوراً ، فى تنظيمها ، حتى صاغ منها قوة مقاتلة استطاعت أن تثبت وجودها وأن تشترك فى معارك الإخوان الكبرى ويكون لها أثر كبير فى نتائجها العامة .



إحدى فصائل المناضلين العرب الذين عملوا تحت قيادة الإخوان المسلمين

ولم تترك هذه القبائل لمصيرها بعد أن وصلنا لأقصى ما نريد من نتائج فى هذه المنطقة . فأقمنا فى منطقتهم موقعا (حصينا) للغاية واخترنا لاقامته

تلا مرتفعاً يشرف على مساحات كبيرة من الأرض . وأحطناه بالأسلاك والألغام . وزودناه بالأسلحة والعتاد . وكان ضباط الاخوان يتداولون قيادته بنظام ويشرفون منه على تنظيم داوريات مسلحة تخرج بمعونة البدو وتتعرض لقوافل التموين اليهودية وتضطرها للدخول في معركة معها . تنتهى حتما بتدمير غالبية وحداتها وقتل كثير ممن فيها . وتكررت هذه العمليات حتى روع اليهود وصمموا على محو هذا الموقع وتدميره فهاجموه بمصفحاتهم أكثر من مرة غير أنهم لم يفلحوا فى اقتحامه كما كانوا يقدرون .

ومما يدل على مدى اهتمامهم به وإصرارهم على احتلاله ذلك الهجوم الذى شنوه فى صبيحة يوم ١٩ / ٧ وحشدوا له قوات كبيرة من جميع المستعمرات القريبة ومهدوا لهجومهم بضرب شديد من مدفعيتهم ثم تقدموا تحت حماية المصفحات، واستطاع الإخوان أن يحيطوا بهم وسط التلال المتناثرة على مقربة من خربة (أبو معيلق) ،ويوقعوا بهم هزيمة فادحة الخسائر ، ويرغموهم على التقهقر بعد تدمير عدد من المصفحات ،نظير شهيد واحد خسره الإخوان هو المجاهد (سيد حجازى) ،وعدد من الجرحى منهم قائد الموقع فى تلك الفترة المجاهد (محمد الفلاحجى) من إخوان الدقهلية .

ويذكرنى هذا الذى تم بيننا وبين قبائل البادية فى مناطق النقب بقصة أخرى لاتقل عنه غرابة وعجباً . أذكر أنى كنت أقوم بزيارة لمدينة نابلس فى أحد أيام شهر فبراير سنة ١٩٤٨ م وكانت الزيارة للسلام على القائد العربى (فوزى القاوقجى) لدى دخوله فلسطين . وكنا وفداً كبيراً من إخوان يافا . وكان الطريق الذى نسلكه يشطر مستعمرة (بين شيمن) إلى قسمين . فما راعنى إلا الجنود اليهود يقفون عند مدخل المستعمرة ويشيرون لسياراتنا بالمرور بعد أن يشيروا بأيديهم محيين . وذهلت لهذه الظاهرة ، فملت على أحد الركاب من أهالى مدينة اللد . وسألته عن السر

فى ذلك . وكيف أن اليهود لم يطلقوا علينا النار فى الوقت الذى تدور فيه المعارك بشدة فى جميع أنحاء فلسطين . فقال لى « إن اليهود قد اتصلوا بنا وقالوا إن يهود اللد وعرب اللد أصدقاء ولا يهمهم ما يجرى فى المناطق الأخرى » .

وانخدع العرب فترة قصيرة من الزمن ، حتى قامت جماعة معارضة كان قوامها الشباب الكريم من أهالى المدينة ، فاشتركت منطقتهم فى القتال وقامت بنصيب كبير فيه ، ودارت الأيام دورتها وكانت تلك المستعمرة هى المركز الذى حشدت فيه القوات اليهودية ، وهاجمت منه المدينة من الخلف وأرغمت أهلها على الهجرة والفرار بحياتهم موقعة بهم أشنع ما عرفته الحروب من وحشية وإجرام . ولعل القارىء قد فهم الغرض الذى كان يرمى إليه اليهود من وراء هذه الأساليب الماكرة من تشكيك العرب فى قضيتهم ، وإضعاف المقاومة فى بعض المناطق حتى يتفرغوا لكبحها فى المناطق الأخرى ، ولا شك أنها أساليب تدل على ما امتاز به اليهود من المكر والخداع .

تلك هى القصة التى ذكرتها وأنا بصدد معالجة ذلك الإشكال الماثل الذى تعرض لى فى صحراء النقب . والذى تغلبنا عليه بتلك الخطة المضادة التى قمنا بها . والتى فاتت غيرنا من القوات العسكرية المنظمة حين تركت هؤلاء البدو لشأنهم ولم تفكر فى الإفادة منهم حتى أصبحوا سلاحاً مفلولا ألقته الجيوش العربية وحمله اليهود واحتفظوا به ،وقد ينجحون فى استغلاله لو واتتهم الظروف .

١١ — مع أحمد عبد العزيز فى جولته

[يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين] .

قرآن كريم

أوضحنا فى صفحات سابقة كيف وقفت الحكومة فى طريق الاخوان ، ومنعتهم من إدخال أفواج من شبابهم كما كان مقرراً من قبل ، وكان يمكن للاخوان أن يريحوا أنفسهم من عناء الجهاد وويلات القتال ، وأن يكتفوا بالتصفيق والتظاهر كما تفعل زعامات مقدسة وأحزاب محترمة ، ولكن الاخوان لم يفعلوا شيئا من هذا ، بل نراهم يتلمسون كافة السبل والحيل ويعملون جاهدين لتذليل هذه العقبات وفتح الأبواب المغلقة أمام الجموع الوافدة من شبابهم المؤمن ، الذين تدفقوا من الأقاليم والعواصم حتى اكتظ بهم المركز العام وضاقت بهم شعب « القاهرة » . وبدأت اتصالات كثيرة ، ومؤتمرات متعددة ، انتهت إلى تكوين فرق من المتطوعين يقودها ضباط من الجيش ، وتتولى الجامعة العربية تدريبها والانفاق عليها ، وكان طبيعيا أن يرحب الاخوان بالفكرة ، فهم لا يريدون إلا إنقاذ فلسطين وانتزاعها من عصابة الشر ، وكانوا يعلمون أيضا أنه لا توجد هيئة أخرى فى مصر يمكنها أن تساهم فى هذه الحركة بنصيب كبير ، وإذن فالاخوان هم الذين سيجاهدون مهما اختلفت الأسماء ، وتغيرت المظاهر . وبدأت حركة التطوع عن طريق المركز العام ، وكان يشرف على تنظيمها المجاهد الكبير (الصاغ محمود لبيب) وكيل الاخوان المسلمين وقائد وحداتهم العسكرية ، ونجح بمعونة بعض

الشخصيات المجاهدة وعلى رأسهم معالى « صالح حرب باشا » وسعادة اللواء « عبد الواحد سبل بك » فى إقامة معسكر لتدريب فى (ها كستب) تتولى الجامعة العربية إمداده وتنظيمه ، ويشرف على برامج التدريب فيه جندى ممتاز هو البكباشى (حسين مصطفى) من رجال الجيش العامل . ولقد أخذ الناس بهذه الحركة العنيفة والاقبال الشديد على التطوع ، وعجبوا كثيرا لهذا الشباب الذى يقدم نفسه للموت عن طواعية واختيار ، وعهدهم بالشباب من أمثال هؤلاء يفرون من الجندية ، حتى إنهم يقطعون أصابعهم كيلا يصلحوا للانخراط فيها ، وكان آباء المتطوعين وأمهاتهم أشد الناس إشفاقا على فلذات أكبادهم أن تلاقى الحتف برصاص اليهود ، وشهد معسكر « الها كستب » فى أول تكوينه معارك عنيفة بين عواطف الأبوة الحنون ، وعناد الشباب المؤمن المتشبث بمبادئه ومثله العليا ، فهذا شاب من الاسكندرية هو الأخ المجاهد (عبد المنعم سعيد) يجرفه هذا التيار العاتى ، ويصمم على خوض غمار الحرب دفاعا عن الاسلام وكرامته ، فيتفق مع نفر من إخوانه ويغادرون الاسكندرية خفية ويبذلون محاولات متعدده حتى تسجل أسماؤهم فى كشوف المتطوعين ، ويقبلون على التدريب فى شغف ولذة ، ويبحث أهلوهم عنهم طويلا ويبعثوا فى طلبهم ، ويشهد معسكر « الها كستب » حواراً عجيبا بين بطلنا الصغير « عبد المنعم » وعمه الذى جاء فى طلبه ، فعمه يحاول اقناعه بالعودة ويذكره بمستقبله وحاجة أهله إلى سعيه وكده ، والفتى يجيب بحدة وتبرم (لا أريد العودة ، دعونى أؤدى بعض ما على من دين للاسلام) ويتدخل قائد المعسكر فى الأمر ويحاول إقناع الفتى باتباع نصائح عمه . ويحتد الفتى مرة أخرى ثم يصيح « لا . لا . » لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق) .

أجل ... أجل .. هكذا فهم الاخوان حقيقة دورهم فى فلسطين . جهاد خالص فى سبيل الله لا سعياً وراء الشهرة ولا طلباً للمغنم التافه ولكن سعياً



أول مجموعة مجاهدة من إخوان الاسكندرية ، ويرى الشهيد عمر عثمان بلال (فى الوسط) يتأبط صورة الشهيد عبد القادر الحسينى

وراء عزة الاسلام ، فإما نالوها ، وإما سقطوا شهداء دونها . ويأس العم من ابن أخيه وأشفق القائد على نفس الفتى المؤمن فلم يرغمه على الخروج ، وظل بطلنا ينعم فى معسكره ويمنى نفسه باليوم السعيد حين يقف أمام أعداء الله وجهاً لوجه ، ومضى العم مشدوها مما رأى ، مقتنعاً أن شيئاً جديداً قد طرأ على شباب اليوم ، وأن هذا الجيل قد بدأ يتجه اتجاهاً لا عهد للناس به .

وليس أعجب من هــذا إلا أخ من إخوان القاهرة هو المجاهد (محمد العيسوى) وقد نجح أبوه بماله من مركز ونفوذ فى إبعاده عن المعسكر بعد أن أخذ من القائد وعداً بعدم قبوله من جديد ، وعز على بطلنا أن تنهار آماله وتتحطم على صخور هذه التقاليد البالية ، ففكر وقدر ثم هداه تفكيره إلى وسيلة ناجحة ، فأخذ يهرب من أهله كل يوم ويأتى

إلى المعسكر حيث يظل الساعات الطوال خارج الأسلاك يرقب حركات التدريب ويحاول تقليدها ، حتى إذا انتهى اليوم أخذ من زملائه ما يكتبونه من محاضرات عسكرية ، ورجع إلى بيته حيث يستذكرها بشغف وعناية ، وحين تحركت الكتيبة الأولى إلى العريش بعد نهاية تدريبها ، ركب نفس القطار الذى سافرت به بعد أن اشترى على حسابه بعض الملابس العسكرية ، وفوجىء أفراد الكتيبة وقائدها حين رأوه ينزل معهم إلى المحطة ، وظل أهله يوالون السعى لإرجاعه ولكن قائد الكتيبة أصر على بقائه ، ورفض كل المساعى التى بذلت لإعادته ، بعد ما رآه من ثبات إيمانه وصدق عزيمته .

واستمطر معى سحائب الرحمة على المجاهد الكريم (فتحى الخولى) الذى أخذه أهله من المعسكر قوة واقتداراً وحبسوه فى غرفة منعزلة ، فهددهم بالانتحار إن وقفوا فى طريقه ومنعوه من الجهاد ، وكان دائماً يقول لإخوانه (إن الجنة تنادينى) ولقد أجاب (فتحى) نداء الجنة ، إذ كان أول شهيد تقدمه الكتيبة ولما يمض على وصوله إلى فلسطين سوى يومين اثنين . أمثلة كثيرة لا يحيط بها الحصر ولكن ما ذكرناه يصلح دليلا واضحاً على مدى ما وصل إليه الاخوان من نجاح رائع وهم يحشدون هذا الشباب ويربونه فى مدرسة الاسلام الخالدة .

بدأت الكتيبة تدريبها ، وأبدى الاخوان شغفاً شديداً بالتدريب ، وأقبلوا على المحاضرات الحربية يوسعون بها مداركهم ، ويزدادون إلماماً بوسائل الحرب الحديثة واستعمال الأسلحة المختلفة ، وكانوا مشوقين إلى السفر متعجلين لتطبيق ما تعلموه عمليا فى أرواح اليهود ، حتى كان يوم ٢٥ أبريل سنة ١٩٤٨ إذ صدرت الأوامر بإرسال هذه الكتيبة إلى الميدان وكان قائدها حتى ذلك الحين هو البكباشى (زكريا الوردانى) ، وكم كان المنظر مؤثراً حين حضرت عائلات المجاهدين لوداعهم ، وأقبلت جماهير غفيرة

من الشعب لتطالع الصفحة الجديدة التى نشرت لتسجل قصصاً رائعة من البطولة يكتبها هذا الشباب المؤمن بجهده وعرقه ودمه .

ألا ليت هذه الجماهير طالعت ختام هذه الصفحة ، وقدر لها أن تستقبل أبطالها حين عودتهم ، لترى كيف تنخسف قيم البطولة فى مصر . ليت هذه الجماهير شهدت بعد ذلك كيف عاد هؤلاء الأبطال بعد أن تركوا أحباءهم تحت ثرى فلسطين ، وفيهم من ترك عضواً من أعضاء جسمه عربوناً للعودة القريبة ، ولكن الحكومة تكفلت باستقبالهم ورصدت قوات من بوليسها ليكون فى انتظارهم ، لا ليقف لتحيتهم ، ولا ليصطف على الجانبين لتعظيمهم ، ولكن ليحرسهم الليالى الطوال داخل سجون الأقسام..!

سارت الكتيبة فى رعاية الله ونزلت إلى العريش ، وأخذت تعد عدتها لدخول فلسطين ، وماهى إلا أيام قلائل حتى لحق بها القائد الجديد يصحبه عدد من الضباط البواسل الذين عز عليهم الانتظار فآثروا اللحاق بقوات المتطوعين . وكان القائد الجديد ضابطاً من الفرسان برتبة « البكباشى » غير معروف من جنوده ، إذ لم يكن له مايميزه على غيره من زملائه الكثيرين ، وإن كان الضباط قد وصفوه لجنوده بإكبار وإعجاب ، ذاكرين له دروسه ومحاضراته القيمة فى كلية أركان الحرب ، وبطولاته الرائعة التى سجلها فى ميدان الفروسية . ولم يكن هذا القائد الجديد سوى البكباشى (أحمد عبد العزيز) الذى لمع اسمه بعد ذلك فى الحرب ، ودأبت الصحف العربية على تتبع أنبائه وتحركاته ، وأولته من العناية والاهتمام مالم تول أحداً من قادة الجيوش العربية ممن يفوقونه فى المركز وبعد الصيت .

ونحن إذا أردنا أن نؤرخ لهذه الكتيبة المجاهدة ، نجد أنفسنا مضطرين لتحليل شخصية قائدها ، ذلك لأن القائد هو عصب القوة وعقلها المفكر ، ومن خلال شخصيته وميوله نستطيع أن نحكم على أعمال القوة ووسائلها

فى العمل . ولن تجد هذه الحقيقة واضحة بأجلى صورها أكثر من وضوحها فى هذه الكتيبة المغامرة ، ومدى انطباعها بشخصية قائدها وميوله .

خصلتان هما الأساس الذى ارتكزت عليه شخصية أحمد عبد العزيز :

أولهما : جرأة خارقة وولع شديد بالمغامرة .

ثانيهما : اعتزاز بشخصيته ، وإعداد بمقدرته وكفاءته .



الشهيد (أحمد عبد العزيز) مع اثنين من ضباطه

جرأة غامرة وولع بالمخاطر وصل به إلى حد التهور ، وكثيراً ما كان يعرض نفسه لأخطار شديدة حتى أشفق عليه ضباطه فلم يكن يجيبهم إلا بكلمة واحدة (لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) ، واعتزاز بشخصيته وكفاءته كان كثيراً مايصل به إلى حد الغرور .

وهاتان الخصلتان هما اللتان دفعتاه للزج بكتيبته فى أخطار شديدة والقيام بالأعمال الخارقة التى ظلت الصحف تتداولها طوال فترة الحرب .

وهاتان الخصلتان أيضاً هما اللتان دفعتاه لأخطاء جسيمة عصفت بالكثيرين

من رجاله وأثرت تأثيراً بعيداً فى النتيجة العامة للحرب .

تلك هى أهم العناصر التى تكونت منها شخصية هذا الرجل ، فلنحتفظ بهذا الميزان فى أيدينا ونحن نتابع السير وراءه حين قام بهجماته على مراكز اليهود فى النقب ، وحين وقف بشدة ليدافع عن المدن الفلسطينية التى تقع فى جنوبى القدس .

بدأ أحمد عبد العزيز يعد قواته لدخول فلسطين ، وكانت قوات الاحتلال البريطانى لا تزال بها ، فقام بعدة داوريات استكشف فيها مناطق النقب الشمالية ، وصحبه فى الداورية الأولى الشيخ محمد فرغلى ، رئيس الاخوان فى فلسطين ، والشيخ فريح المصدر شيخ عشائر النصيرات الضاربة فى صحراء النقب ، وكبير معاونيه البكباشى « زكريا الوردانى » ، وبعد عدة داوريات ومشاورات قرر الدخول إلى منطقة (غزة) ومهاجمة المستعمرات الواقعة فيها ، فأصدر أوامره فى ٥ مايو بالتحرك ولكى يتفادى الصدام مع قوات الاحتلال الانجليزية القيمة على الطريق الرئيسى فى (رفح) استعمل طريقة غريبة فسار بسياراته على شريط السكة الحديدية ، حتى وصل مدينة (خانيونس) أول المدائن الفلسطينية الساحلية ، وهناك قابله الأهلون مقابلة حافلة وتقدم أعيان المنطقة إليه طالبين أن يعمل على تجنيد أبنائهم وتنظيمهم ضمن قواته فوعدهم خيرا ، ولم تطل إقامته فى (خانيونس) فبدأ عملياته بأن أرسل قوة صغيرة من الاخوان تهاجم قافلة يهودية فاشتبكت معها فى ١٣ مايو وأرغمتها على الفرار ، وفى هذه المعركة سقط الشهيد المبرور « فتحى الخولى » الشاب الذى أشرنا إليه فى أول هذا الباب .

كانت خطة أحمد عبد العزيز ترمى إلى مهاجمة المستعمرات اليهودية ، وكان يريد أن يسلك السبيل الخاطىء الذى سارت فيه قوات الاخوان الحرة من قبل ، ولقد اتصل به الأستاذ « محمد فرغلى » وبين له خطورة هذا

الاجراء متخذاً من كارثة الاخوان فى (كفارديروم) مثلا لما يقول ، لكن هذه النصائح لم تجد سبيلها فى نفس أحمد عبد العزيز وعز عليه أن يتراجع فى أمر أبرمه فصمم على مهاجمتها وقدر له أن يتلقى على يديها درسا قاسياً دفع ثمنه الفادح من خيرة شباب الاخوان وزهرة رجالهم .

اتجه تفكير أحمد عبدالعزيز إلى مهاجمة مستعمرة (كفارديروم) أول المستعمرات اليهودية وأقربها إلى طرق المواصلات ، فبدأ فى ١٠ مايو بإرسال داورياته لتحصل على معلومات تكون أساساً لخطته ، حتى إذا تم له ما أراد نظم الخطة ، وكانت كلها تدور على أن مدفعيته الضخمة ستدك الأبراج والحصون ، ولن يجد مشاته أحداً فى قلب المستعمرة لأن حماتها سيكونون جميعاً تحت الأنقاض .. ! ! ، وكانت خطته ـ بإيجاز ـ تقضى بأن تبدأ المدفعية فى دك الحصون فى الساعة الثانية صباحاً لمدة عشر دقائق ، يبدأ الفدائيون بعدها فى نسف حقول الألغام وموانع الأســلاك الشائكة ، ثم تهاجم المشاة المستعمرة من ثلاث جهات لتتم تطهيرها واحتلالها ، وأترك وصف هذه المعركة للأخ المجاهد (أحمد لبيب الترجمان) أحد قواد الإخوان فى الميدان وقائد جماعات الاقتحام فى هذه المعركة .

قال الأخ «لبيب» إن أول الأخطاء التى تورطنا فيها كان تأخير الهجوم عن موعده المقرر ، فبدل أن تبدأ المدفعية ضربها فى الساعة الثانية ، بدأته فى الساعة الرابعة والنصف حين وضح النهار وأصبح فى مقدور العدو مراقبة المهاجمين وحصدهم بالبنادق والرشاشات . أما لماذا تأخر ضرب المدفعية فكان العذر أقبح من الذنب ، ذلك أن الضابط المختص لم يسجل الأغراض التى تقرر ضربها بالنهار ، ليسهل عليه ضربها بالليل ، مما اضطره إلى تأخير الضرب حتى يسفر النهــار وتتضح الأغراض ، وانطلقت المدافع بعشرات القنابل واستمرت الأبراج واقفة لا تتزعزع ، وحينئذ وضح أمامنا أن الخطة

فاشلة وأن الهجوم لو استمر فسيتحول لكارثة مروعة ، وحاولنا تأجيل الهجوم ليوم آخر أو تحوير الخطة بحيث تتلاءم مع الأوضاع الجديدة ، ولكن الأوامر صدرت بمواصلة الزحف واحتلال المستعمرة ، وأطلقت المدفعية الكبيرة أفواهها ، وانطلقت مدافع (الهاون) تلف المستعمرة بسحابة من الدخان ، وبدأ المجاهدون يزحفون إلى أغراضهم ، والعدو الماكر يغرى بالتقدم حتى أصبحنا على الأسلاك والمستعمرة لا تزال هادئة ساكنة ، وفجأة تشققت الأرض عن عيون كثيرة ، وانسابت سيول دافقة من النيران ، وتساقط المجاهدون حتى امتلأت الساحة بالجرحى والشهداء ، وكان مقرراً أن يدمر الفدائيون الأسلاك الشائكة بألغام (البنجالور) غير أن حملتها أصيبوا جميعاً ، ورأينا أنفسنا فى وضع حرج ، ونيران العدو لا تزال تشق طريقها فى الجموع العارية ، وفجأة تقدم شاب أسمر طويل وصاح فى إخوانه ليتراجعوا إلى الوراء ، وتراجعت الجموع قليلا للوراء ، فقذف الشاب بنفسه على الأسلاك الشائكة المشحونة بالألغام ، فانفجرت وتطايرت الأسلاك الشائكة وتطاير جسده معها أشلاء ممزقة ، وفتحت السماء أبوابها لتستقبل ضيفاً جديداً كان أهل الدنيا يعرفونه باسم (عمر عثمان بلال) . وقضى على البطل الجرىء ولكن بعد أن حقق المعجزة وفتح لإخوانه ممراً فى الأسلاك وفرشه لهم بدمه الطاهر . وتدفقت الجموع إلى المستعمرة وأخذت تحتمى من نيران العدو بحفر القنابل وخنادق المواصلات ، ورأى العدو ذلك فجن جنونه وأخذ يركز الضرب على هذه الثغرة ، وانطلقت مدافعه ورشاشاته تقيم أمامها سداً كثيفاً من النار والبارود ، فارتبكت الجموع مرة أخرى ووجدها العدو فرصة سانحة فشدد التنكيل ، وفجأة وصلت المهزلة إلى آخر مراحلها إذ انطلقت مدفعيتنا من الخلف وبدل أن تصب نيرانها على اليهود المختبئين فى المستعمرة ، أصابت المجاهدين الزاحفين حولها ، وتسبب عن هذا

الخطأ الشنيع قتل عدد كبير ، وكان طبيعياً أن يحل الذعر وتنهار الروح المعنوية وتتوقف المعركة عند هذه النهاية الدامية ، وتفتح الجنة أبوابها لتستقبل سبعين ضيفاً جديداً من خيرة شباب مصر ، وتستعد مستشفيات (غزة) و(القاهرة) لتستقبل خمسين جريحاً من جرحى هذه المعركة . وكان ممن جرح فيها اليوزباشى البطل « معروف الحضرى » بحمله الاخوان من داخل المستعمرة ، حيث رحل للعلاج فى القاهرة ، وقبل أن يتماثل للشفاء عاد ليواصل جهاده ويلعب دوراً هاماً على مسرح الحرب . ولا أنتهى من الحديث عن هذه المعركة بالذات دون أن أسجل خطأ فاحشاً وقع فيه المسؤولون عنها ، ذلك أنهم تركوا الشهداء والجرحى حول المستعمرة دون أن يعملوا على نقلهم ، مما أثر تأثيراً بعيداً فى نفوس المجاهدين ، ولكى أصور فداحة هذا الخطأ يكفى أن أقول إن جثث الشهداء الأبرار ظلت ملقاة حول المستعمرة أكثر من شهر حتى استطاع كاتب هذه السطور — بمعونة نفر من إخوانه — نقلهم حين أعلنت الهدنة الأولى فى ١٨ يونيو .

انتهت معركة (كفار ديروم) على هذه الصورة ، ولم يكن أحمد عبد العزيز من شهودها ، إذ كان يتلقى أنباءها أولا بأول من مقر قيادته فى (خانيونس) ، وحين تلقى هذا النبأ جزع جزعاً شديداً ، وألم لفقد هذا العدد الضخم من خيرة رجاله دون أن يحقق أدنى نتيجة ، فصمم على أن يوقع باليهود ضربة قاتلة وما هى إلا يومين حتى واتته الفرصة فلم يضيعها ، ولقن اليهود درساً مراً وأعاد لقوته روحها المعنوية التى كادت أن تتلاشى بعد هزيمتها فى (كفار ديروم) .

ضرب المجاهدون حصارا محكما حول المستعمرة ، وفى اليوم التالى للمعركة حاول العدو تحطيم هذا الحصار وإدخال قافلة كبيرة محملة بالجنود والعتاد ، وكانت هى الفرصة التى ينتظرها أحمد عبد العزيز ويسيل لها لعابه

فنظم لها (كمينا) محكما ، وحشد مدافعه على سفوح التلال المشرفة على الطريق ، وحين دخلت فى الدائرة التى رسمها ، أمر اليوزباشى « حسن فهمى » قائد مدفعيته فانطلقت المدافع من أبعاد قريبة ، وحاول اليهود الدفاع عن أنفسهم بادىء الأمر ، ولكنهم وجدوا أنفسهم محصورين داخل حلقة فولاذية ، فاختاروا أهون الضررين وقذفوا أنفسهم من المصفحات وحاولوا النجاة بأرواحهم والفرار إلى مستعمرة (كفار ديروم) ، وكانت هذه خطوة محسوب حسابها فى الخطة ، إذ كان الأخ المجاهد « على صديق » يقود فصيلة من المشاة مختبئة بعناية وراء التلال القريبة ، فلم يكد اليهود ينزلون من المصفحات ويتحركون تجاه المستعمرة ، حتى انطلقت الرشاشات من كل صوب لحصدتهم حصدا ولم ينج منهم أحد ، وحاول حماة المستعمرة نجدة إخوانهم ، وتركهم الاخوان يغادرون الأسلاك الشائكة ويبتعدون عنها ثم بدأوا يطلقون عليهم النار من (أوكار) معدة بعناية حتى سقط منهم عدد كبير ، وتراجع الباقون إلى المستعمرة ، وسكتت المدفعية ، وأطبقت الرشاشات أفواهها الملتهبة ، وأخذ المجاهدون يحصون ما غنموه ، فإذا هم أمام خمسة عشرة مصفحة ضخمة مشحونة بأحدث طراز من الأسلحة والذخائر ومواد التموين ، ولأول مرة تعلو وجوههم ابتسامات الفرح بعد هزيمة الأمس ، حين فتحوا إحدى المصفحات فوجدوها مليئة بالدجاج والطيور من مختلف الأنواع والأحجام . وكان نصرا رائعا رد لهذه الكتيبة المجاهدة اعتبارها ، وعوض لها خسارتها ، وبعد هذه المعركة تغير الموقف واقتنع أحمد عبد العزيز بالنظرية الأولى ، وهى أن مهاجمة المستعمرات دون أن يكون معه عدد من الدبابات الثقيلة ، إن هو إلا ضرب من الانتحار ، فأخذ يستخدم تكتيكات العصابات ويضرب المستعمرات بمدفعيته دون أن يهاجمها ، ويعترض طريق القوافل المصفحة ويبيدها عن آخرها ، حتى

أزعج اليهود إزعاجا شديداً وحرم عليهم التجول فى صحراء النقب ، وكان مقدرا لهذه الحركة أن تحرز نجاحا رائعا لولا ما جد على الموقف الحربى من أحداث وتطورات .

بعد هذه الحوادث بدأت القوات المصرية النظامية تزحف على فلسطين بقيادة اللواء « أحمد محمد على المواوى بك » واحتلت فى زحفها السريع كثيرا من المدن الساحلية ، ثم توقفت فى (غزة) لتنسق عملياتها المقبلة ، وكان مفروضا أن يبدأ التنسيق بتوحيد القيادة فى الجبهة المصرية ، ويبدأ التعاون الفعلى بين قوات الجيش وقوات المتطوعين . وكان من رأى « المواوى بك » أن يخضع أحمد عبد العزيز لقيادة الجيش العامة ، تنسيقا للعمل وتوحيدا للجهد ، وكان يريد أن يجعل من كتيبته (قوة ضاربة) ترافق الجيش فى عملياته ، غير أن أحمد عبد العزيز رفض هذه الفكرة وأصر على أن يستقل بالعمل بحجة أنه يقود جماعات من المتطوعين لا يلتزمون بالأوضاع العسكرية التى يلتزم بها الجيش النظامى ، وأخيرا رأى « المواوى بك » حسما للنزاع أن يتولى أحمد عبد عبد العزيز قيادة منطقة (بئر السبع) — على ألا يتجاوزها شمالا — فيدافع بذلك عن مفتاح فلسطين الشرقى ، ويوزع قوات العدو بين جبهتين واسعتين ، ويحمى ميمنة الجيش المصرى من خطر الالتفاف . وقبل أحمد عبد العزيز هذا الرأى لجمع قواته واخترق بهم صحراء النقب مارا بمستعمرة (العمارة) حيث ضربها بمدفعيته فى ١٧ مايو ، ودخل بئر السبع حيث قابله السكان مقابلة رائعة ، ولم يكد يستقر بها حتى بدأ أول حركاته بضرب مستعمرة (بيت إيشل) الحصينة ، ثم شرع فى توزيع قوته على هذه المنطقة ،فأرسل جزءاً بقيادة البكباشى «زكريا الوردانى» ليحتل (العوجة) و (العسلوج) العربيتين ، وأبقى جزءاً آخر بقيادة اليوزباشى « محمود

عبده » ليتولى الدفاع عن مدينة (بئر السبع) ومنطقتها . أما هو فقد اتخذ قيادته فى المدينة وأخذ يرسم الخطط لمهاجمة اليهود فى كل مكان من الصحراء ، وبدا أن الخلاف قد انتهى عند هذا الحد وحل محله التعاون والانسجام لولا أن جاء وفد من مدينة (الخليل) فى ١٩ مايو وقابل أحمد عبد العزيز والتمس منه إرسال جزء من قواته للاشتراك مع الجيش الأردنى فى الدفاع عن الخليل وبيت لحم ، وهنا نجد أحمد عبد العزيز يوافق على توزيع قوته ، ويقرر الزحف إلى الخليل ، غير عابىء بالتعليمات التى اتفق عليها مع القائد العام ، وغير عابىء بما قد تجره هذه الخطوة من مشاكل سياسية ، إذ أن هذه المناطق كانت تدخل ضمن الجبهة الأردنية حسب الخطة العربية العامة .

وفى يوم ٢٠ مايو زحف أحمد عبد العزيز إلى الخليل على رأس قوة صغيرة تاركا مهمة الدفاع عن مدينة (بئر السبع) ومنطقتها لليوز باشى « محمود عبده » وفصائل الاخوان المسلمين التى تعمل تحت قيادته . ولندع أحمد عبد العزيز يواصل زحفه إلى الخليل ، ولنقف نحن قليلا مع حماة بئر السبع حيث نشهد طرفا من أعمالهم الرائعة .

قرر اليوز باشى « محمود عبده » محاصرة المستعمرات وإنهاك قوى العدو بالغارات المتواصلة على مواصلاته ومراكزه ، وأخذ يبعث بالدوريات المسلحة لتجوب الصحراء وتعترض طرق القوافل وترغمها على الفرار تاركة خلفها الكثير من الأسلحة ومعدات الحرب ، ولقد حاول اليهود فى ٧ مايو توصيل بعض المؤن إلى مستعمراتهم المحصورة ، وكان الطريق الذى يسلكونه يمر فوق جسر مقام على أحد الوديان العميقة ، فقرر الاخوان نسف هذا الجسر حين مرور القافلة فوقه ، وفعلا قامت قوة من بئر السبع بقيادة المجاهد « على صديق » وبثت الألغام تحت الجسر ، واختبأت داخل الشعاب



فرغوا من إعداد « الكمين » وجلسوا يرقبون مرور الصيد الثمين

والمنحنيات القريبة ، ولم يطل بها الانتظار إذ تقدمت قافلة العدو وهى جاهلة تماما ما ينتظرها ، فما إن توسطت الجسر حتى انفجرت الألغام الهائلة وتطايرت أجزاء الجسر فى الهواء ، وانقلبت مصفحات العدو فى الوادى السحيق ، وانتهز الاخوان الفرصة فقاموا يقتلون كل من تظهر رأسه تحت الردم ، وأسفرت المعركة عن قتل عدد من جنود الأعداء ، وأسر عدد آخر من المصفحات ،أطلق الاخوان على أكبرها اسم قائدهم (محمود عبده) وكما أرهب محمود عبده (الضابط) اليهود بخططه وكمائنه ، فقد أرهبت محمود عبده (المصفحة) اليهود بعد ذلك حين كانت تشترك عمليا فى جميع الدوريات الناجحة . !

أما أحمد عبد العزيز والاخوان الذين معه فما كادوا يدخلون مدينة (الخليل) حتى استقبلهم السكان فى مظاهرات حماسية واجتمع الناس بهم فى مسجد (الخليل) إبراهيم حيث وقف الأعيان ورءوس القبائل يرحبون بمقدمهم ويبدون سرورهم البالغ لدخول هذا النوع المؤمن من المجاهدين



البوزباشى « محمود عبده » قائد الإخوان المسلمين
فى « بئر السبع » و « صور باهر »

إلى ديارهم ، وما كاد الجمع ينفض حتى ركب أحمد عبد العزيز فى داورية إلى مدينة بيت لحم ، ولقد بدأ النزاع بين الأردنيين والمتطوعين فى اليوم الأول إذ كانت قوة من الجيش الأردنى تحتل المدينة وتتخذ من مركز البوليس فيها قيادة لقوات الاحتلال ، وكانت هذه القوة ترفع علمها على سارية المركز ، وأراد المتطوعون أن يرفعوا علمهم فمنعهم الأردنيون بحجة أن هذه المدينة تدخل ضمن جبهتهم ، وبدأ الصراع بين الفريقين ، وانقسم أهل المدينة إلى معسكرين ، هذا يشايع المصريين ، وذاك يشايع الأردنيين ، ووجدتها عناصر الفتن فرصاً سانحة لبذر بذور الجفاء ، واستغلها الجنرال « كلوب » أسوأ

استغلال فأخذ يوغر صدور المسؤولين فى حكومة شرق الأردن ويتخذ من هذا الموقف دليلا على نوايا مصر إزاء جارتها العربية !

قرر أحمد عبد العزيز تخفيف القوات التى تركها فى (العوجة) و (العسلوج) و (بئر السبع) وسحب معظمها إلى الخليل وبيت لحم ، حيث أخذ ينظم خطط الدفاع عن المدينتين ، متخذا مقر قيادته فى فندق (وندسور) ، فى أحد أحياء مدينة (بيت لحم) الساحرة .

١٢ — فى الدفاع عن بيت لحم والخليل

[لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون] (قرآن كريم)

تقع (مدينة بيت لحم) على بعد ستة أميال جنوبى القدس ، وهى إحدى المدن المسيحية المقدسة ، إذ تقع فيها كثير من آثار المسيحين وكنائسهم ، وخاصة كنيسة (المهد) التى يحج إليها المسيحيون من جميع بقاع العالم ، وغالبية سكانها العظمى من المسيحيين العرب ، وكم كان جميلا من هؤلاء الأحباب ، أن يحتفوا بالاخوان عند دخولهم للدفاع عن مدينتهم ويكونون معهم أسرة واحدة متعاونة ، وكان الاخوان يبادلونهم هذا الشعور الكريم لما رأوه من إخلاصهم ، ولما شهدوه من غيرة صادقة على كرامة العرب والمسلمين ، ولعل فى هذا التعاون الصادق أكبر رد على أولئك الذين يحاولون تشويه حركة الاخوان ويلصقون بها تهمة التعصب الذميم وهم يعلمون أن الاخوان براء من هذا الاتهام ، ولكنها تهمة يحاولون بها خدمة المستعمر الدخيل وتثبيت أقدامه فى هذا الوطن المسكين .

وها هى معارك بيت لحم وعدد الاخوان الهائل الذى استشهد حول أسوارها دفاعا عن مقدسات المسيحين وآثارهم ، تقف دليلا شاهداً على مدى التعاون الذى يجمع بين العنصرين الشقيقين ، ويوحد بين الطائفتين الحبيبتين ، ولقد كنت شخصيا أهتم بهذا المعنى عند زياراتى المتكررة

بيت لحم ، فكنت التقى ببعض رؤساء الطوائف المسيحية بها ، وأسألهم عن نظرتهم للاخوان وحركتهم ، وكانت نفسى ترتاح كثيراً حين أستمع إلى إجاباتهم وكلها مزيج من الحب والاطمئنان ، وكيف لا تكون كذلك وهم يرون بأعينهم مقدار الجهود التى يبذلها الاخوان دفاعا عن عرب فلسطين لا يفرقون فى ذلك بين عربى ومسيحى ، ولقد ظل الاخوان فى مدينتهم عاما كاملا دون أن تقع حادثة واحدة من تلك الحوادث التى تقع عادة بين الجنود والمدنيين من أهل البلاد .

كان الجيش العربى الأردنى يحتل مدينة « بيت لحم » قبل دخول أحمد عبد العزيز ، وكان يتخذ مقر قيادته فى دير (مار الياس) الواقع شمالى المدينة ، وكان هذا الجيش مشتبكا مع مستعمرة (رامات راحيل) الواقعة على طريق بيت لحم — القدس ، غير أنه فشل فى اقتحامها وبقيت (رامات راحيل) كما كانت دائما مصدر خطر كبير . فهى تقع على ربوة عالية ، وتتحكم فى الطريق الرئيسى الذى يصل بيت لحم بالقدس . فوق أن المدافعين عنها يمكنهم مراقبة القوات الموجودة ببيت لحم وإحصاء حركاتها وسكناتها ، لذلك كله نرى أحمد عبد العزيز يتجه إلى اقتحامها منذ أن هبط أرض المدينة .

ولقد بدأ فى ٢٤ مايو فأرسل قوة من جنود الاخوان بقيادة (لبيب الترجمان) لتقوم باستكشاف المستعمرة وكتابة تقرير واف عن تحصيناتها ، وقامت الداورية بعملها خير قيام ونجحت فى التسلل إلى مكان قريب من المستعمرة . حيث أخذت تراقب تحصيناتها ، ومواقع الدفاع عنها ، وظلت فى موضعها يوما كاملا حتى فطن اليهود لوجودها وأخذوا يطلقون عليها النار من قمم الأبراج ، واشتبكت معها الداورية غير أن قائدها أمر بالانسحاب إذ كان هدفه هو « الاستكشاف » فحسب وليس الدخول فى معركة مباشرة .

وحين وصل إلى بيت لحم عكف على كتابة تقريره وضمنه ما وصل إليه من معلومات عن المستعمرة ونقط القوة والضعف فى الدفاع عنها وقدمه إلى أحمد عبد العزيز الذى جعله أساسا لخطته المقبلة .

كانت الخطة الجديدة لا تختلف كثيراً عن الخطة التى اتبعت فى (كفار ديروم) إذ تقرر أن تبدأ المدفعية بقصف الحصون والأبراج ثم يزحف المشاة تحت غلالة من نيران مدفعية (الهاون) وقنابلها الدخانية . ثم تتقدم جماعات الفدائيين من حملة ألغام (البنجالور) لنسف العوائق السلكية وحقول الألغام .

غير أن هذه الخطة نجحت فى احتلال (رامات راحيل) وكان سر نجاحها أن الأرض المحيطة بالمستعمرة كانت جبلية مليئة بالمنحنيات والفجوات ، حين كانت الأرض المحيطة بكفار ديروم سهلا منبسطاً يمتد إلى مسافات شاسعة .

وفى مساء يوم ٢٦ مايو كان كل شيء هادئاً حول مستعمرة (رامات راحيل) وكان جنود (الهاجاناه) فيها ينامون ملء أجفانهم مطمئنين إلى حصونهم القوية ، حتى انتصف الليل — أو كاد — وبدأت أشباح كثيرة تنطلق من مركز رئاسة أحمد عبد العزيز حيث يبتلعها الظلام الكثيف ، ثم تلتقى فى سكون فى مناطق مختلفة فى الجبال المحيطة بالمستعمرة ، ثم انطلقت إشارة ضوئية زحف بعدها المجاهدون ثم توقفوا عند نقط معينة تحددت فى الخطة المرسومة .

وعند مادقت ساعة الكنيسة الكبيرة دقتين بعد منتصف الليل ارتجت الأرض تحت دوى المدافع ، وتمزقت حجب الليل المظلم من وهج القنابل المحرقة التى انقضت كالشهب على المستعمرة الساكنة . ولم تمض إلا دقائق حتى شبت الحرائق فى أكشاكها الخشبية وتفجرت حقول

الألغام التى لف بها العدو مستعمرته ، ثم سكتت المدافع ، وأصدر (لبيب الترجمان) أوامره لقوته فبدأت تزحف تحت غلالة كثيفة من قنابل الهاون المتفجرة وقنابل الدخان ، وفى لمح البصر اندفع الفدائيون يفجرون ألغامهم تحت الأسلاك الشائكة ، ومن ورائهم فصائل الاقتحام تعبر مسرعة لتحتل الأغراض التى خصصت لها ، وبدأ الاشتباك الرهيب عند الخنادق «والدشم» ، واستماتت اليهود فى الدفاع عن مستعمرتهم ، ولم يضيع الإخوان الوقت فتسلل نفر منهم إلى الأبراج العالية يفجرون تحتها الألغام ويحيلونها أنقاضا وركاما ، وأثرت هذه الانفجارات الفاجئة تأثيراً سيئاً فى نفوس المدافعين عن المستعمرة ، وأسقط فى أيديهم ، فبدأوا يجلون عبر ممراتهم السرية إلى مستعمرة (تل بيوت) على مقربة من القدس الجديدة .

وعكف المجاهدون على الخنادق يتمون تطهيرها وحين كان آخر يهودى يغادر المستعمرة هارباً ، كان صوت المؤذن يتهادى مع النسيم من أعلى قمة فوق أعلى برج — الله أكبر ... الله أكبر ... أشهد أن لا إله إلا الله ... أشهد أن محمداً رسول الله .

سقطت المستعمرة أمام هذه الخطة ، وأخذ الاخوان يجوسون خلال أبنيتها وأبراجها فرأوا ما أذهلهم من الخيرات والمؤن المكدسة ، إذ كانت هذه المستعمرة هى مركز التموين الذى يشرف على إمداد المستعمرات الواقعة فى جنوبى القدس . وكان عدد القتلى من اليهود فى هذه المعركة كبيراً للغاية إذ وجد تحت الردم مايزيد على المائتين ، عدا من نجح اليهود فى أخذه معهم عند انسحابهم ، أما خسائر الاخوان فكانت تافهة إذ أنها لم تتجاوز تسعة من الشهداء والجرحى وشهيداً واحداً من قوة الاخوان المسلمين الأردنيين ، التى كانت ترابط فى (صور باهر) بقيادة المجاهد (عبد اللطيف أبو قورة) رئيس الاخوان فى عمان .

لم يكن انسحاب اليهود نهائياً من المستعمرة إذ كانوا يبيتون النية لاستردادها وطرد الاخوان منها ، فصعدت طائراتهم فى اليوم التالى تستكشف الحالة فيها فلم تجد إلا عدداً قليلا من المجاهدين ، وكان الخطأ الذى يؤخذ على قيادة المتطوعين أنها لم تعزز الانتصار الذى أحرزته . ولم تضع الخطة السليمة للمحافظة على المستعمرة ، وكان عذر أحمد عبد العزيز فى هذا الخطأ أن قوته الصغيرة كانت موزعة فى خط طويل يمتد من (العوجه) إلى (بيت لحم) وأن أسلحته وذخائره كانت قليلة تافهة ولقد طالب مراراً بتزويده بالسلاح والذخيرة ، غير أن « المواوى بك » رفض إمداده بها وسبب ذلك — كما سمعته من ضباط هذه القوة — أن أحمد عبد العزيز تخطى أوامره وتجاوز الحدود التى رسمها له . . ! !

وفى اليوم التالى تجمعت قوات يهودية كبيرة من القدس الجديدة ومستعمرات (تل بيوت) و (أرنونه) فطالب الاخوان بتعزيز القوة وإرسال عدد آخر يشترك معهم فى الدفاع عن المستعمرة ، ولكن القيادة قلبت كفها محتجة بعدم وجود قوات لديها ، حتى يوم ٢٨ مايو إذ حسم اليهود المعركة فأغاروا بقوات كبيرة قدرت بخمسة آلاف ، تؤيدها المدفعية والعربات المدرعة ، واستبسلت القوة الصغيرة من الاخوان فى الدفاع على أمل أن تنجدهم القيادة بالقوات اللازمة ، وطال بهم الانتظار زمناً طويلا دون جدوى فقرروا الانسحاب بعد أن دمروها تدميراً تاما ولم يتركوا فيها بقعة واحدة تصلح للايواء .

حاصر الاخوان المستعمرة وما جاورها ، وتولوا الدفاع عن قرية (صور باهر) العربية ، ولقد حدث فى أوائل شهر يونيو أن حلقت طائرة يهودية تحمل أسلحة وذخائر ، وأرادت إلقائها على (رامات راحيل) وكان الوقت ليلا ، ورأى الاخوان أن المستعمرة تطلق إشارات حمراء لتدل الطائرة على موضعها ، فما كان منهم إلا أن أطلقوا إشارات حمراء

مشابهة ، فاختلط الأمر على الطائرة وألقت حمولتها فوق (صور باهر) وكانت صناديق ضخمة مليئة بأجزاء المدافع وأنواع الرشاشات الحديثة والأدوية الثمينة .

أراد اليهود تعزيز النصر الذى أحرزوه فى ختام معركة (رامات راحيل) فأرسلوا قوة من جنودهم هاجمت الجيش العربى الأردنى فى مقر قيادته فى (دير مار الياس) واضطرته لاخلائه ، وكان هذا الدير يقع على مقربة من (صور باهر) حيث ترابط فصائل من الاخوان ، فوق أن احتلاله باليهود كان يؤثر تأثيراً بعيداً فى موقف القوات المرابطة فى (بيت لحم) ، فلم يجد الاخوان بداً من معاودة احتلاله ، وتقدمت قوة منهم بقيادة المجاهد « حسين حجازى » ، تعاونه قوة فلسطينية من جيش الجهاد المقدس يقودها المجاهد العربى « جادالله » وهاجمت اليهود على غره واضطرتهم للانسحاب موقعة بهم كثيراً من الخسائر .



جمع من ضباط الإخوان أمام مقر قيادة (دير مار إلياس)

وكان هذا النجاح حافزاً على القيام بحركة جديدة ، ذلك أن مستعمرة (تل بيوت) دأبت على إطلاق النيران من برجها الضخم وتسبب عن ذلك كثيراً من الخسائر والاضرار ، مما اضطر أحمد عبد العزيز إلى إصدار أوامره للأخ المجاهد (حسين حجازى) ليتولى تدمير هذا البرج الخطر .

وفى ليـلة ٤ يونيو انطلقت جماعة من الاخوان من بيت لحم ، وأحيط انطلاقهم بتكتم كبير ، حتى أن زملائهم فى القوة لم يعلموا حقيقة المهمة التى سيقومون بها ، حتى لمعت برقة خاطفة أضاءت صفحة السماء وأعقبها انفجار هائل ارتجت له أركان المدينة ، وشاهد الناس أحجار البرج الضخم تتناثر فى الهواء ثم تتهاوى لتصنع من تراكمها قبراً كبيراً يضم نخبة من رجال الهاجاناه .

ولقد علقت جريدة (أخبار اليوم) فى عددها الصادر فى ٥ يونيو تصف هذه العملية الجريئة فقالت بعد كلام طويل (وفى الليـل تسلل (حسين) ومعه أربعة جنود . . . وزحفوا على الأشواك فى صور باهر أربعة كيلو مترات تحت تهديد الرصاص الطائر فى الهواء ، والحيات الزاحفة بين الأحجار .

وقرب الفجر سمعت بيت لحم انفجاراً مدويا وتهدمت ثلاثة حصون من (تل بيوت) .

وفى الصباح عاد (حسين حجازى) ليتلقى تهنئة قائده . . . ومعها لقب بطل (تل بيوت) !

وبينما كان المجاهدون يوجهون ضربات مركزة فى كثير من المناطق ، ويعدون أنفسهم للوثوب على القدس الجديدة إذا بالدول العربية تقبل الهدنة الأولى ، وتصدر أوامرها لجيوشها بوقف اطلاق النار لمدة أربعة أسابيع تبدأ من يوم ١١ يونيو سنة ١٩٤٨ . ولم تكن الهدنة فى حقيقتها إلا أسلوباً جديداً

ابتكرته هيئة الأمم لمساعدة اليهود وتمكينهم من جلب الأسلحة الثقيلة والذخائر ، ولقد كان قبولها من جانب العرب إقرارا بالأمر الواقع واعترافا فعليا بقيام إسرائيل . ولم تقف فائدة الهدنة لليهود عند حد جلب السلاح والعتاد فحسب ، ولكنها أيضاً كانت وسيلة لاحتلال المواقع الهامة ، إذ أن أغلب المراكز الخطيرة لم يستطع اليهود احتلالها إلا بهجمات غادرة قاموا بها خلال الهدنة ، وكانت الحجة دائماً عند هيئة الأمم وعند حكومة إسرائيل ، أن أصحاب هذه الحركات الغادرة ليسوا إلا عصابات فوضوية متطرفة ، وكانت الدول العربية تصدق هذا الزعم ، وتشفق على هيبتها وكرامتها أن تجارى عصابات فوضوية ، وهى الدول المحترمة ذات المركز والسلطان !

وعن هذا الطريق الوضيع احتل اليهود أغلب المناطق التى وقعت فى أيديهم . ولقد نجح الاخوان فى تكبيل المستعمرات اليهودية حول « بئر السبع » عن طريق الداوريات الكثيرة التى كانوا يعثون بها ، وعن طريق المواقع الحاكمة التى احتلوها على طرق المواصلات . فحاول اليهود اغتنام الهدنة ـ كعادتهم دائماً ـ وهاجموا قرية (العسلوج) حيث كانت ترابط قوة صغيرة يقودها اليوزباشى (عبد المنعم عبد الرءوف) . ولم تصمد القوة الصغيرة طويلا ، أمام هذا الهجوم المباغت فتسرب أفرادها إلى الصحراء مذعورين ، حين رأوا أنفسهم أمام قوات كبيرة من العدو تؤيدها حشود من المدرعات والدفعية ، ومما يذكر فى هذه المعركة ، أن ثلاثة من الإخوان هم المجاهدون رشاد زكى ومحمود حامد ماهر وعبد الله البتانونى من إخوان القاهرة ، كان القائد قد وكل إليهم مهمة حراسة مخازن الذخيرة ، وكانت المخازن مليئة بالأسلحة والذخائر ـــ إذ كانت هذه القرية هى مستودع الذخيرة الذى يمون المنطقة ـــ وأفاق المجاهدون على أنفسهم فوجدوا العدو فى داخل المواقع ، وسمعوه يحاول احتلال المخازن فأخذوا يتدبرون موقفهم . إنها

كارثة كبرى أن يضع العدو يده على هـذا السلاح الـكثير فى وقت يحتاج فيه إلى طلقة الذخيرة الواحدة . لابد من عمل شئ ما ، ولم يدم تفكيرهم كثيراً إذ قرروا نسف المخازن حين يدخلها العدو ، واختبأوا خلف كومة من الصناديق حتى امتلأ المخزن بالجنود اليهود ، ثم أشعلوا النار فى صناديق الفرقعات ، وفى لحظة واحدة استحال البناء الضخم إلى كومة من الأنقاض ، ومات الأبطال الثلاثة بعد أن ثأروا لأنفسهم وجروا العدو الغادر إلى كارثة مدمرة .

كان احتلال هذا الموقع يعنى قطع مواصلات الجيش المصرى فى الجبهة الشرقية ، مما دعا القيادة العامة إلى تنظيم خطة لاسترداده ، وفى اليوم التالى تحركت قوة كبيرة من الجيش النظامى تعاونها المدفعية والسيارات المدرعة ولـكنها فشلت فى الاقتراب من القرية ، لاستماتة العدو فى الدفاع عنها .

فاستنجدت القيادة العامة بالبكباشى أحمد عبد العزيز الذى وكل الأمر لليوزباشى محمود عبده قائد الإخوان فى « صور باهر » ليتولى إرسال قوة من رجاله تسترد هذه المواقع . واترك وصف النتيجة لسعادة اللواء أحمد محمد على المواوى بك القائد العام للقوات وهى مقتبسة من شهادة أدلى بها بين يدى القضاء فى إحدى قضايا الإخوان المسلمين التى عرفت باسم (قضية سيارة الجيب) .

وكانت إجابته رداً على سؤال وجهه إليه الدفاع فى القضية المذكورة .

— هل كلفتم المتطوعين بعمل عسكرى خاص عند مهاجمتكم العسلوج ؟

— نعم . العسلوج بلد تقع على الطريق الشرقى واستولى عليها اليهود فى أول يوم الهدنة ، ولهذا البلد أهمية كبرى بالنسبة لخطوط المواصلات ، وكانت رئاسة الجيش تهتم كل الاهتمام باسترجاع هذا البلد ، حتى أن رئيس هيئة أركان الحرب أرسل لى إشارة هامة يقول فيها (لابد من استرجاع



ثلاثة من ضباط الاخوان فى بيت لحم
وهم من اليمين (يحي عبد الحليم ، لبيب الترجمان ، أحمد شعبان)
يقفون أمام قيادة الاخوان فى صور باهر

العسلوج بأى ثمن) فكانت الخطة التى رسمها لاسترجاع هـذا البلد هى الهجوم عليها من كلى الطرفين من الجانبين فكلفت المرحوم أحمد عبد العزيز بك بإرسال قوة من الشرق من المتطوعين وكانت صـغيرة بقيادة ملازم وأرسلت قوة كبيرة من الغرب تعاونهـا جميع الأسلحة ، ولـكن القوة الصغيرة هى التى تمـكنت من دخول القرية والاستيلاء عليها .

ولما سأله المحامون عن السبب فى تغلب القوة الصغيرة . أجاب :

— القوة الغربية كانت من الرديف وضعفت روحهم المعنوية بالرغم من وجود مدير العمليات الحربية فيها إلا أن المسألة ليست مسألة ضباط . المسألة مسألة روح . إذا كانت الروح طيبة يمكن للضابط أن يعمل مايشاء ولكن إذا كانت الروح ميته لايمكن للضابط أن يعمل شيئاً . لابد من وجود الروح المعنوية) . وهكذا تحررت (عسلوج) وكان تحريرها على يد قوة من الإخوان بقيادة ضابط ملازم . هو الأخ المجاهد « يحيى عبد الحليم » من إخوان القاهرة .

ورغم هذا النجاح الباهر الذى أحرزه الإخوان ، وعظم الخسائر التى منى بها العدو ، كانت خسائرنا صغيرة جداً لا تتجاوز عدداً من الجرحى من بينهم قائد القوة المهاجمة المجاهد « يحيى عبد الحليم » .

بدأ أحمد عبد العزيز خلال الهدنة يجمع قواته المبعثرة ويحشدها فى (بيت لحم) . ويبـدو أن القيادة العامة المصرية رضخت للأمر الواقع فأمدته ببعض الأسلحة والذخيرة وزودته بعدد من الجنود . فأخذ يحصن نفسه داخل المدينة ، وأقام خطاً دفاعياً حولها يمتد من (صور باهر) إلى (كرمزان) ماراً بقرى (مار الياس) و (بيت صفافا) و (شرفات) و (الولجا) ، وإلى جانب ما أثبته الإخوان من بطولة ومقدرة فى الأعمال الهجومية ، فإن مقدرتهم على الدفاع والتحصين كانت مثار إعجاب

الضباط والمراقبين ، وكانت مواقع (صور باهر) الحصينة وما أقيم فيها من خنادق (ودشم) نحتت ببراعة فى الأرض الصخرية الصلبة ، تشهد بعظم الجهد الذى بذله الإخوان لتحصين هذه القرية العربية ، والاحتفاظ بها حتى آخر مراحل القتال ، رغم الهجمات المتوالية التى شنها العدو ، وحاول فيها احتلالها ليضع القوات المرابطة فى بيت لحم والخليل كلها تحت رحمته .

وكانت أول المحاولات التى قام بها العدو هى اقدامه على إحتلال مرتفعات (جبل المكبر) فى ١٨ أغسطس سنة ١٩٤٨ .

يقع جبل المكبر إلى الجنوب الشرقى من القدس القديمة . وهو مرتفع منيع يستطيع من يحتله أن يهيمن على القدس كلها . ويقطع الطريق الرئيسى الذى يصلها بعمان . فوق أنه يتحكم فى القوات المتطوعة التى ترابط فى جنوب القدس . وكان هـذا المرتفع إحدى حلقات الدفاع التى يتولاها الإخوان المسلمون المرابطون فى قرية (صور باهر) .

ولقد كان اليهود يؤملون فى مهاجمة الإخوان على غرة ، فبدأت جموعهم تتحرك فى الساعة الثامنة من مساء ١٨ أغسطس من أحيـاء القدس اليهودية ومن المستعمرات الواقعة فى جنوبها . ثم بدأوا يزحفون فى سكون وهدوء غير أن نقط المراقبة الأمامية فطنت لهذه الحركة وأرسلت تخبر قائد (صور باهر) بهذا النبأ وتطلب توجيهاته السريعة . وبدأ (محمود عبده) يفكر فى الموقف ويضع خطته على أساس الأنباء التى تصل إليه تباعا . ولم يكن يعنيه وقف الزحف اليهودى والاحتفاظ بالموقع . ولكنه كان يريد إبادة هذه القوات ، وتلقين اليهود درسا قاسيا يحفظونه عن الإخوان وشدتهم فى القتال .

وحين بدأ يتحرك بقوته من (صور باهر) كانت عواصف الرصاص

تثور فى قمة الجبل وكان التليفون يخبره أن طلائع العدو قد اشتبكت مع مواقع الإخوان الأمامية . وما إن وصل حتى كانت المعركة فى أعنف مراحلها ، وكان واضحاً أن العدو يستميت فى احتـلال هذا الموقع ويقذف كتلا هائلة من قواته لتحقق الغرض فى أقصر وقت ممكن ، وكلما تكسرت موجة تحت أقدام الأبطال المؤمنين تدفقت فى أثرها موجة أخرى . ولا عجب فى ذلك فقد كان طريق الإمداد مفتوحا على مصراعيه ، والقدس اليهودية وفيها عشرات الألوف على مرمى حجر من أرض المعركة . فصمم على التصرف السريع وكانت أولى الخطوات التى أقدم عليها أن أمر فصيلة من جنوده فدارت إلى اليمين واقتربت من الطريق الذى يستخدمه العدو فى تحركاته وأخذت تطلق النار على القوافل التى تتحرك صوب المعركة ، وفى نفس اللحظة كان يصدر أمره للمدافعين عن الجبل بالإنسحاب إلى الوراء فظن العدو أن المقاومة قد انتهت ، فتقدم ليحتل المواقع التى أخلاها المجاهدون وفى نفس الوقت كانت أفواه المدافع تنفتح من كل صوب وتقذف كتلا من اللهب على قمة الجبـل ، ولم يكن لليهود حينها ما يحتمون فيه ، فقتل منهم عدد كبير ، فبدأوا يتراجعون فى ذعر وارتباك .

تقدمت بعد ذلك قوات من المشاة وحاصرت قمة الجبل ، واشتبكت مع العدو فى قتال عنيف ، وحاول اليهود التراجع إلى القدس بعد ما يأسوا من وصول النجدات المطلوبة ، ولـكن القوة الخلفية فاجأتهم بالنيران الحامية . وبينما كانت المعركة تسير على هذا النحو المرسوم إذ أصيب اليوزباشى (محمود عبده) بطلقات طائشة فحمله مرافقوه للخلف دون أن يفطن أحد ، وبعثوا رسالة مستعجلة لقيادة بيت لحم يخبرونها فيها بإصابة القائد ، ولم تمض إلا لحظات حتى جاء الأخ المجاهد (لبيب الترجمان) ليتولى قيادة المعركة فى مراحلها الختامية

أخذ اليهود يتسللون فرادى إلى المنطقة الحرام ودار الحكومة حيث يوجد بعض مراقبى الهدنة ورجال هيئة الأمم وفطن الإخوان للأمر فتابعوهم إلى هناك ، وضربوا حصاراً محكما حول دار الحكومة وهددوا بتدميرها ، مما اضطر رجال هيئة الأمم إلى الاستغاثة بالبكباشى (أحمد عبدالعزيز) الذى جاء لتوه ، واستجاب لرغبة مراقبى الهدنة بوقف اطلاق النار ، ولكنه أصر على احتلال مرتفع يدعى (رأس الأحرش) يشرف على دار الحكومة والحى اليهودى بالقدس . وبذلك أصبح الإخوان خطراً شديداً يهدد القدس الجديدة واتخذوا من هذا الموقع نقطة يراقبون منها حركات اليهود وسكناتهم .

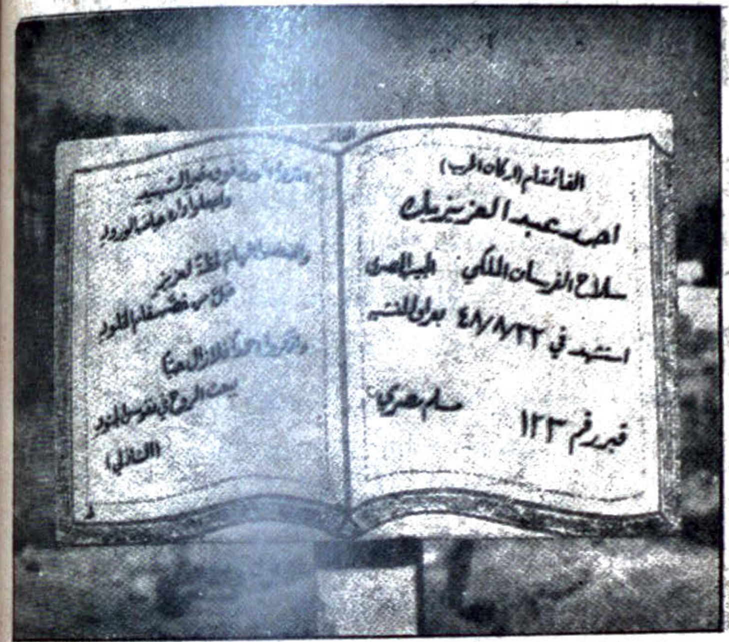
وحاول اليهود فى اليوم التالى القيام بهجوم كبير على نفس هذه المواقع أملا فى احتلالها ورد اعتبارهم بعد هزيمة الأمس ، ولكن يقظة الإخوان واستماتتهم فى الدفاع وقفت سداً منيعاً دون وصولهم لهذه الغاية ، مما اضطرهم إلى التراجع فى ذلة وانكسار ؛ وكانت خسائرهم فى هذه المرحلة تتجاوز المائتين حسب تقدير مراقبى الهدنة عدا فقدانهم لجميع الأسلحة والمعدات التى دفعوا بها فى هذه المعارك .

بدأت بعد هذه الفترة مرحلة مفاوضات طويلة لتخطيط حدود المنطقة الحرام ، وكان أحمد عبد العزيز فخوراً بجنود الإخوان وبما أحرزوه من انتصار رائع ، مما جعله يملى إرادته على اليهود ويضطرهم للتخلى عن منطقة واسعة مهدداً باحتلالها بالقوة ، وكانت المفاوضات تدور فى مقر قيادة الجيش العربى بالقدس ويحضرها الكولونيل (عبد الله التل) القائد العربى فى المدينة المقدسة ، وحين انتهت المفاوضات فى ليلة ٢٢ أغسطس أراد أحمد عبد العزيز أن يحمل نتائجها إلى القيادة المصرية العامة فى (المجدل) ، وأصر على أن يذهب فى ليلته ، وكانت المعارك فى ذلك الحين تدور بشدة

على الطريق المؤدى للمجدل مما جعل ضباطه يلحون عليه فى التريث وعدم الذهاب ، ولكنه قطع هذه المحاولات حين قفز إلى سيارته (الجيب) وهو يقول : « قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إلا ما كَتَبَ اللهُ لنا » ، وانطلقت السيارة فى طريق المجدل ولم يكن معه إلا اليوزباشى (الوردانى) واليوزباشى (صلاح سالم) من ضباط رئاسة المواوى بك ، وسائق سيارته .

وكانت « عراق المنشيه » فى ذلك الحين تستهدف لهجمات متواصلة مما دعا القيادة العامة إلى منع السير على هذا الطريق بالليل ، وما إن وصلت السيارة إلى مواقع عراق المنشية حتى صاح الحارس يأمر السيارة القادمة بالوقوف ، ولكن سوء الحظ تدخل هذه المرة ، إذ ضاع صوت الحارس فى ضجيج السيارة ، فأطلقت نقطة المراقبة النار ، وتدخل سوء الحظ مرة أخرى حين أصابت أول رصاصة البكباشى (أحمد عبد العزيز) فى جنبه ، وحمله مرافقوه إلى عيادة طبيب بمدينة (الفالوجا) ولكن قضاء الله كان قد سبقهم إليه ، فصعدت روحه إلى بارئها ، ولم يكد الخبر يذاع على الناس حتى عم الوجوم الجميع ، وبكاه كل فرد فى الجيش وكان أكثر الناس حزنا عليه وألما لفراقه أولئك الجنود الذين زاملوه فى الميدان وقاسموه مرارة الهزيمة ونشوة النصر ، ونعته وكالات الأنباء ومحطات الإذاعة العالمية وأسف لفقده الحلفاء والأعداء ، ونعوه للناس بمزيد الإعجاب والإكبار ، وبموت أحمد عبد العزيز طويت صفحة من أمجد صفحاتنا العسكرية ، وأفل نجم لامع كان فى سماء الحرب ملء سمع الناس وبصرهم ، وخلا بذلك مكانه فى الميدان ، وصعدت روحه الطاهرة لتحتل مكانا مرموقا فى ملكوت الله وجنته ، وشطب اسمه من كشوف الجيش المصرى ليسجل فى كشوف التاريخ ، كأبرز شخصية عسكرية أنجبتها حرب فلسطين .

مات أحمد عبد العزيز فعينت القيادة العامة ضابطا جديدا لقيادة



على قبر الشهيد « أحمد عبد العزيز » فى غزه

(بيت لحم) هو البكباشى « محمد فكرى » من سلاح المدفعية ، لكنه عاد بعد أيام قلائل ، حين لم يستطع الانسجام مع ضباط المتطوعين ، فرأت القيادة أن تبعث بالبكباشى « عبد الجواد طباله » قائد كتيبة المتطوعين الثانية ، والتى كانت تتولى محاصرة المستعمرات وحراسة بعض القطع على خطوط المواصلات .

ولقد أتمت هذه الكتيبة تدريبها فى معسكر (الهاكستب) بعد سفر الكتيبة الأولى ، وكانت هذه الكتيبة تحوى عناصر طيبة من الإخوان كان على رأسهم الأخ المجاهد (صلاح البنا) الذى كان له أبعد الأثر فى

تنظيمها وتدريبها ، وكان مقررا لهذه الكتيبة أن تحتل مدينة (بئر السبع) وتدافع عنها ، غير أن قائدها أشار باستحالة تنفيذ ذلك ، لنقص مرتبها فى الأسلحة ، وخلوها تماما من مدفعية الميدان والمدفعية المضادة للدبابات. وأخيرا استقر الرأى على أن تحاصر بعض المستعمرات الواقعة فى منطقة غزة — رفح فأبلت فى القيام بهذا الدور أحسن البلاء .

وظلت على هذا الوضع حتى موت أحمد عبد العزز وحين استدعت الحالة ذهاب قائدها لتولى القيادة فى (بيت لحم) تقرر انتقالها للانضام لزميلتها (الأولى) ، وتكونت من الكتيبتين وممن انضم إليهما من جماعات المناضلين والسودانين والليبيين القوة التى عرفت باسم (القوة الخفيفة) والتى كان لها الفضل فى المحافظة على منطقة الخليل وبيت لحم وتسليمها لقوات شرق الأردن بعد نهاية الحرب وإعلان الهدنة . وصل القائد الجديد وافتتح نشاطه بالمرور على خطوط الدفاع . وكانت الحالة فى المنطقة هادئة نسبيا إلى أن نقض اليهود الهدنة بعد أيام قلائل فاحتلوا منزلا قريباً يقع فى الشقة الحرام واتخذوا منه وكراً خطيرا للقناصة يستعيضون به عن البرج الذى نسفه الإخوان فى (تل بيوت)، وأخذوا يطلقون منه النار على المجاهدين فى مواقعهم ، وحاولوا اقتناص قائد المنطقة نفسه حين كان يحاول الوصول إلى دار الحكومة للاجتماع بمراقبى الهدنة ، وكانت الأنباء تشير إلى أن لجنة من كبار ضباط الجيش الإسرائيلى قد نزلت فى هذا البناء واتخذته مقرا تشرف منه على جبهات المتطوعين وتضع خطة لمعارك شاملة تكتسح فيها هذه القوات .

لم يكن هناك بد من تدمير هذا البناء فصدرت الأوامر لقائد الإخوان فى (صورباهر) ليتولى تنظيم هذه الخطة وتنفيذها ، وفى ليلة حالكة الظلام تسللت جماعة من الإخوان تحمل ألغامها وأسلحتها ووجهتها هذا المنزل



البكباشى « عبد الجواد طباله » قائد القوة الخفيفة مع أركان حربه اليوزباشى معروف الحضرى

المقام بين ثلاثة مستعمرات من أخطر مستعمرات اليهود ، واستمروا يزحفون على بطونهم وقتا طويلا حتى اقتربوا منه ، وبينما كانوا يعالجون فتح الباب الخارجى انتبه اليهود للحركة ، فأخذوا يطلقون عليهم النار من أعلى المنزل ومن (الدشم) المسلحة المقامة حوله ، وبادلهم الإخوان الضرب ، غير أن شدة النيران المنبعثة من المنزل وخشية الإخوان من المستعمرات القريبة ،

جعلتهم يلقون ألغامهم بعيداً عن البناء ويشعلونها ، وحين انفجرت أحدثت دويا هائلا ، غير أن البناء ظل قائما كما كان ! وجرح فى هذه الحركة الأخ (عثمان عبد المجيد) ، وحمله رفاقه معهم إلى معسكرهم فى (صور باهر) .

وثار قائد (صور باهر) على هذا الفشل ، وأصر على تدمير البناء ، وفى اليوم التالى تحركت قوة كبيرة مكونة من بعض الإخوان السوريين ، وعدد من مجاهدى الإخوان الأردنيين ، وقد اشتبكت هذه القوة فى معركة مع حماة البناء ، غير أنها نجحت فى الوصول إلى المنزل وتدميره على جميع من فيه من الضباط والجنود . وأترك للبكباشى (طباله) قائد القوة الخفيفة الكلام عن هذه العملية الجريئة فى مقال نشرته له إحدى المجلات العسكرية تحت عنوان (ولاء فى بطولة) .

(عالج قائد الداورية الباب معتمداً على أن صوت الرصاص يعلو صوت معالجة الباب ، ولكن الباب لم يفتح فهو موصد من الداخل ، وإذا بالقائد يضغط بسبابة يمناه (تتك) سلاحه فيطير قفل الباب ويفتح على مصراعيه ، وفى لحظات أشعل الآخرون العبوات وألقوا بها داخل الدار وارتد الجميع للخلف قليلا ورقدوا إلى أن صم آذانهم صوت انفجار هائل تطاير على أثره الغبار فى كل مكان ، وإن هى إلا غمضة عين فتسمع أنة موجعة صادرة من أحدهم فهرع إليه القائد فوجد الدم ينزف من جرح فى رأسه . فحمله بمعاونة زملائه وهرعوا عائدين وكل منهم يتلفت للخلف ليروا أثر ما عملوا فلا يروا إلا غباراً يعلو الأرض ، إلى أن وصلوا حوالى الرابعة صباحاً إلى رئاسة القطاع ، وبين يديهم زميلهم الجريح يحتضر لكثرة ما نزف من الدماء . ولم تجد معه الاسعافات فلفظ أنفاسه الأخيرة وهو يتساءل عما حل بالمنزل فلما علم بتدميره تماماً لفظ النفس الأخير والارتياح التام باد على أساريره .

وفى الصباح الباكر كان قائد الفدائيين يستقبل ضوء الشمس فى مواقع

«صور باهر» ويترحم على الشهيد البطل ويودعه إلى مثواه الأخير ثم عاد ليلقى نظرة على موقع المنزل فإذا هو حطام يضم بين أحجاره جثث عشرين من اليهود الغادرين ، حاولوا الاعتداء عليه فى الصباح فحكم عليهم جنوده أن لايروا ضوء صباح تال) . أما شهيدنا المبرور فى هذه المعركة فهو المجاهد (ضيف الله) من الإخوان المسلمين السوريين . وفى المساء كانت محطة إسرائيل تذيع نبأ المعركة وتنعى إلى اليهود مقتل ضابط إسرائيلى برتبة كبيرة ومعه عدد من ضباط الجيش وجنوده . ماتوا تحت الردم على مقربة من مواقع الإخوان المسلمين فى (صور باهر) .



المجاهد السورى « ضيف الله » استشهد فى معارك بيت لحم الدفاعية

فى منتصف شهر أكتوبر كانت الجبهة المصرية مسرحاً لعمليات واسعة النطاق ، وكانت منطقة (الفالوجا) فى ذلك الوقت تهاجم بعنف وشدة ، والمجدل عرض لغارات جوية مروعة ، و فى ذلك الوقت أيضاً كانت القيادة الإسرائيلية فى القدس تحاول تصفية حسابها مع قوات المتطوعين فى « بيت لحم » وبدأت أعمالها بهجوم حاد على (صور باهر) غير أن هجماتها المتكررة تكسرت تحت تحصينات الإخوان القوية . فأخذت تدور حول خطوط الدفاع تتلمس أضعف النقط فيها حتى نجحت يوم ١٩ أكتوبر فى اقتحام مرتفع شاهق يعرف بتبة (اليمن) . ولم يضيع اليهود الفرص فأخذوا يحشدون قوات كبيرة ويعدون أنفسهم للوثوب على المرتفعات المجاورة

والسيطرة على بيت لحم كلها ، مما اضطر قيادة (صور باهر) إلى إرسال قوة كبيرة لتقوم بهجوم مضاد تستعيد به هذا المرتفع ، وبدأت المعركة بين الفريقين حامية شديدة ، وكان مما يستلفت النظر ويدعو للاعجاب هو براعة اليهود وسرعتهم الفائقة فى أعمال التحصين ، لاتكاد قواتهم تستقر فى موقع من المواقع إلا وتسارع بتحويله إلى قلعة محصنة ، وكان ذلك مما يساعدهم دائماً على الاحتفاظ بالمواقع التى تسقط فى أيديهم ، ويبدو أن هذه الظاهرة ناتجة عما عرف عن المقاتل اليهودى من جبن وضعف ، فهو يستعيض عن الشجاعة الأصيلة بتحصينات مصطنعة، ولا يقوى على مواجهة خصمه فى الدفاع إلا إذا كان مختفياً خلف أطباق كثيفة من «الدشم» والأسلاك الشائكة .



حماة جنوبى القدس من ضباط الجيش يتوسطهم الاميرالاى (سيف اليزل خليفة) وعلى يمينه البكباشى (وليم مرقس وعن يساره (البكباشى عبد الجواد طبالة)

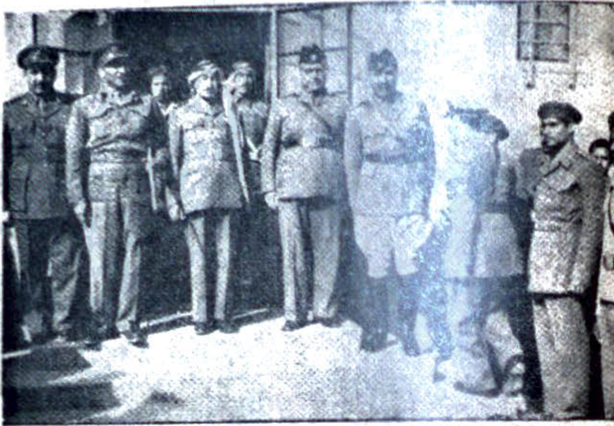
نجح الإخوان فى الهجوم الذى شنوه وتراجع اليهود بعد مقاومة شديدة وخسائر من الطرفين، وكان يضاعف من هذا النجاح أهمية الموقع وخطورته الشديدة لو بقى فى يد اليهود ، وهاأنذا أنقل نص إشارة رسمية بعثتها قيادة « بيت لحم » إلى الجهات العسكرية المسؤلة بتاريخ ٢٠ أكتوبر ١٩٤٩

(قام العدو بهجوم عنيف على جميع مواقعنا الدفاعية تحت

ستار غلالة شديدة من نيران الأسلحة الأرتوماتيكية والهاونات وقاذفات الألغام والمدفعية الثقيلة * صدت قواتنا الهجوم * تمكن العدو من الاستيلاء على مواقعنا بجبل (اليمن) * قامت قوة من الإخوان المسلمين بقيادة الملازم أول خالد فوزى بهجوم مضاد فطردت العدو بعد أن كبدته خسائر فادحة * خسائرنا ضعيفة وقد أبلغنا مراقبي الهدنة) .

وقد علقت أغلب الجرائد العربية واليهودية على هذه المعركة وذكرت جهود الإخوان فيها بالإكبار والإعجاب ، وكتبت جريدة (الناس) العراقية في عددها الصادر يوم ٧/١١ مقالا تحت عنوان (بسالة متطوعة الإخوان المسلمين) جاء فيه (. . . . . . وإن اليومين الماضيين امتازا ببسالة منقطعة النظير من متطوعة الإخوان المسلمين فقد استولى اليهود شمالى غربى بيت لحم بعد محاولات عديدة على جبل مرتفع يسمى « تبة اليمن » ويشرف على قرى « الولجة » و « عين كارم » و « المالحة » وماجاورها وأصبحوا يهددون كل المناطق المحيطة بها ، ورأت قيادة الجيش المصرى ضرورة تطهيرها فندبت لذلك عدداً من متطوعة الاخوان المسلمين فى (صور باهر) ، فتقدمت سرية منهم ، ولم تمر ساعة حتى كانت هذه الفرقة قد أجهزت على القوة اليهودية وغنمت ذخيرتها ومتاعها وحررت قرية « الولجة » ، وأصبحت تسيطر على منطقة واسعة وقد أصدرت قيادة الجيش المصرى أمرا بتسمية الجبل (تبة الاخوان المسلمين) وقد استشهد من الاخوان كل من مكاوى سليم على من الزقازيق والسيد محمد قارون من المنصورة وإبراهيم عبد الجواد من الفيوم ، رحمهم الله رحمة واسعة) .

يأس العدو من اقتحام « بيت لحم » و « الخليل » لوجود هذه القوات المؤمنة فيها ، فبدأ يركز هجومه على مناطق « اسدود » و «المجدل» واستطاع أن يرغم القوات المصرية على إخلاء هاتين المنطقتين



نجح المجاهدون فى المحافظة على مناطق الخليل وبيت لحم وهامى قيادة الجيش الأردنى تتسلم المنطقتين



فرقة الجيش الاردنى الموسيقية تودع الابطال المجاهدين عند رحيلهم لأرض الوطن

والايقاع بقوة كبيرة حاصرها فى الفالوجا وظل يحاصرها حتى نهاية الحرب.

وبحصار الفالوجا عزلت قوات المتطوعين عن القيادة العامة تماما ، ولم يعدلها طريق يصلها بالقاهرة سوى الطريق الجوى الذى يصل عمان بالقاهرة ، وبدأت هذه القوات المغامرة تقاسى محنا شديدة . سببها الحصار الشديد ، وكثرة ما تعرضت له من هجمات متواصلة ، ورغم ذلك كان كل مايشغل الإخوان هو مصير إخوانهم المحصورين فى الفالوجا ، فبدأوا ينظمون بمعونة المجاهدين العرب خططا لتموينهم ، وتسللت قوافلهم عبر الصحارى الواسعة التى يسيطر عليها العدو ، تحمل المؤن للقوات المصرية المحصورة ، وتتعرض فى طريقها الطويل لكثير من المآزق والأخطار ، وكم من مرة اصطدمت القوافل مع دوريات اليهود واشتبكت معها فى معارك دامية ، ونتج عن ذلك كثير من الخسائر ، ولكن الإخوان لم يكونوا يحسبون للموت حسابا ما دام ذلك فى سبيل وطنهم وكرامة جيشهم .



المجاهد مكاوى سليم على
من شهداء « معركة تبة الإخوان »

وإذا ذكر هذا النشاط الرائع فلا يمكن أن نغفل الدور الخطير الذى قام به اليوزباشى (معروف الحضرى) حين قاد جماعات الإخوان المسلمين فى تسللها إلى (الفالوجا) وظل يؤدى واجبه بإيمان وثبات حتى ظفر اليهود به فى إحدى العمليات ، ونقلوه إلى خطوطهم الخلفية حيث ظل يقاسى مرارة الأسر فى معسكراتهم حتى منّ الله عليه بالنجاة ؛ حين انتهت الحرب وتم تبادل الأسرى .

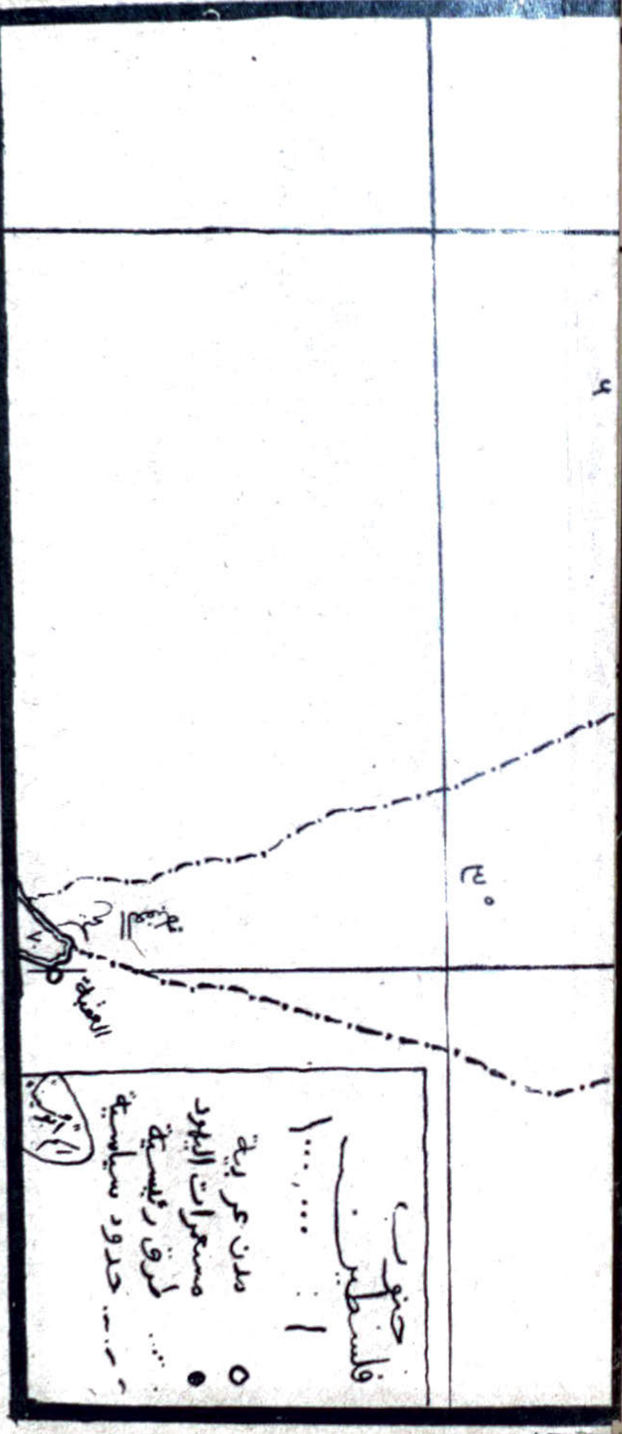
وبينما كان الإخوان يعملون بهمة وإخلاص فى تموين (الفالوجا) ومعاونتها على تحمل آلام الحصار ويستميتون فى الدفاع عن مناطق (بيت لحم) و (الخليل)، إذ روع العالم الإسلامى بنبأ القرار الغاشم الذى أصدره (النقراشى باشا) وحل بموجبه هيئة «الإخوان المسلمين» فى مصر، وكانت طعنة نجلاء وجهها الانجليز على يد صنائعهم من المستوزرين، إلى ظهر الشبيبة الإسلامية المحاربة. وجن جنون الاخوان عند سماعهم هذا النبأ، غير أن الأوامر التى وصلتهم بعد ذلك من (المرشد) الشهيد كانت



مشهد الجنازة الصامتة التى أقامها مجاهدو الإخوان فى (بيت لحم) بعد سماعهم باغتيال الأستاذ الإمام

تأمرهم بالتزام الهدوء والاخلاد إلى السكينة. ولن يتصور أحد عظم الكارثة التى كان يمكن أن تقع لو ركب (الاخوان) رءوسهم، وقاموا بأى إجراء طائش، إذ كانوا هم وحدهم يدافعون عن منطقة من أكبر المناطق والعدو يحيط بهم من كل جانب وينتظر الفرصة ليبتلع هذه المدن الغنية الواسعة

وقدر الاخوان عظم الخطر، فقهروا عواطفهم واكتفوا بإرسال برقية إلى كبير الأمناء بقصر عابدين ضمنوها سخطهم الشديد لصدور هذا الاجراء الظالم. ثم عكفوا على أداء واجبهم من جديد وكأن شيئا لم يحدث حتى انتهت الحرب وأعلنت الهدنة وبدأوا يغادرون أسر اليهود ليقعوا مرة أخرى فى أسر السعديين، وقدّر لهم أن يلبثوا فى الأسر الآخر عاماً كاملا، قضوه بين معسكرات الاعتقال فى «رفح» و «العريش» حتى انهارت قوائم العهد الأغبر بما حملت من أوزار وآثام، وبدأ المجاهدون يستردون حرياتهم المفقودة شيئا فشيئا ..!!

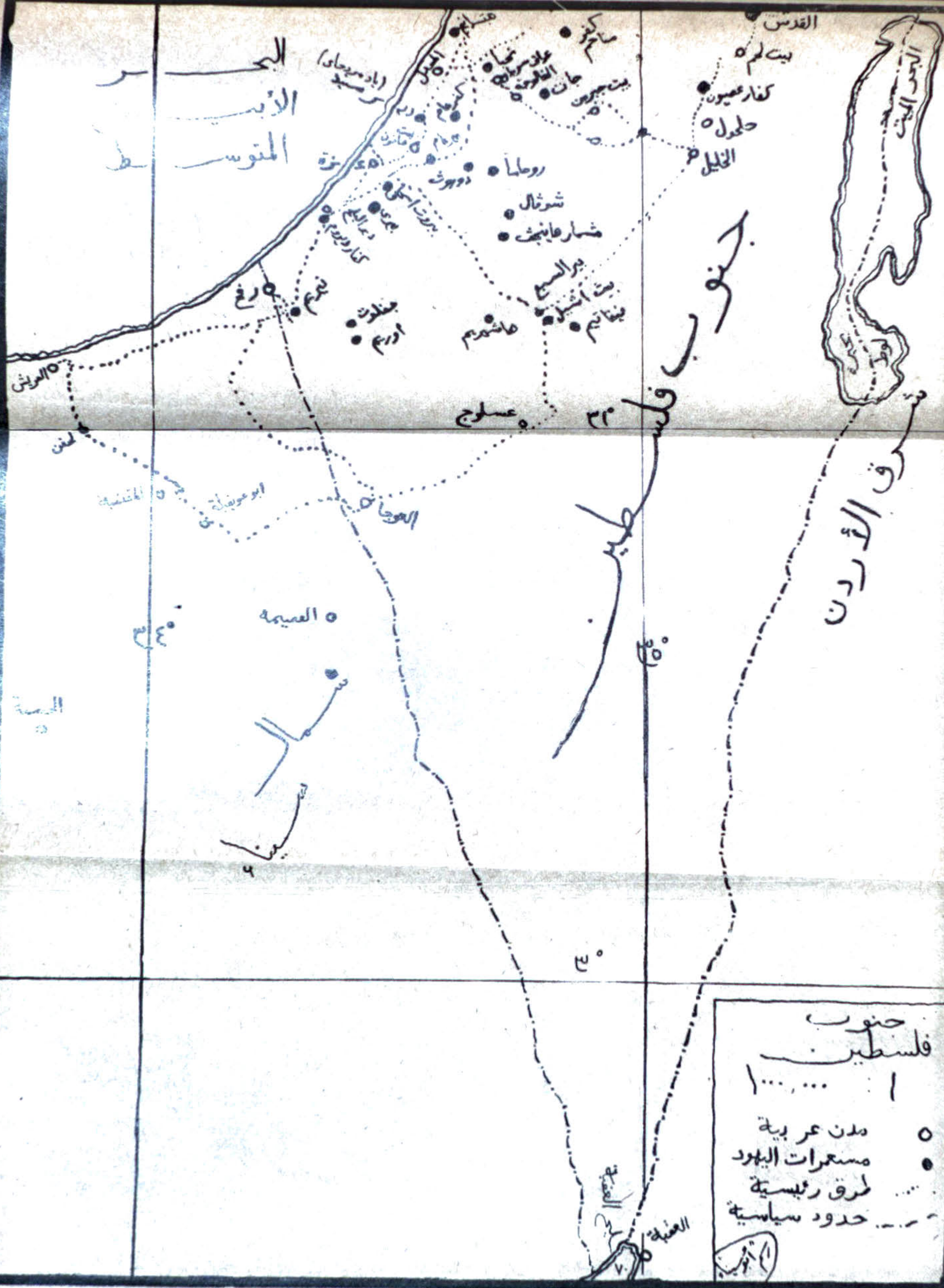


١٣ — دخول الجيش المصرى إلى فلسطين

« ماينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها
حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » ،
محمد رسول الله

توغل الجيش المصرى فى أرض فلسطين ، غير مبال بخطر شديد يجثم على ميمنته ، ويتمثل فى عدد هائل من المستعمرات المحصنة التى أعدت باتقان ، لتقوم بدورها فى الوقت المناسب .

وكانت الخطة العربية العامة تقضى بأن يحتل هذا الجيش قطاعاً هائلا يمتد من قرية (رفح) على الحدود المصرية إلى قرية (يبنا) على مسيرة عشرين ميلا من (تل أبيب) ، حيث تكون الجيوش العربية الأخرى الزاحفة ، قداحتلت نقطا مماثلة قريبة منها ، ثم تتجمع هذه القوات وتتصل مكونة حلقة فولاذيةحول عاصمة العدو ، لتفصلها عن بقية المناطق . وكان واضعو هذه الخطة يعتقدون أن احتلال العاصمة ، سينهى هذه الحرب ويضطر العصابات اليهودية المسلحة إلى الاستسلام ، ولقد فات هؤلاء أن المستعمرات اليهودية قد وزعت فى فلسطين توزيعاً عسكرياً تحت إشراف الأنجليز ، يضمن لليهود الاستمرار فى القتال مدة طويلة وأن كل مستعمرة من هذه المستعمرات كانت تحتوى على أعداد كبيرة من الجند ومقادير هائلة من السلاح والعتاد ، ويمكن لهذه القوات أن تتجمع وتكون جيشاً لجباً ، وتستمر فى المقاومة حتى تتدخل الدول الكبرى ، وتضيع على العرب ثمرة انتصارهم . على أن هذه الخطة لم يقدرلها النجاح ، لما انطوت عليه من جهل بالغ بقوى العدد وأساليبه فى المقاومة ، فضلا



جنوب فلسطين
البحر الأبيض المتوسط
شمال سيناء
شرق الأردن
البحر الميت
القدس
بيت لحم
كفار عصيون
حلحول
الخليل
غزة
رفح
العريش
العوجا
عسلوج
بير السبع
روحاما
شوفال
العقبة
العصيمه
جنوب
فلسطين
١ : ١٠٠٠,٠٠٠
مدن عربية
مستعمرات اليهود
طرق رئيسية
حدود سياسية

عن عدم التعاون الذى لا نلمس أى أثر له فى تنفيذها بين الجيوش العربية ، التى كان مفروضاً أن تعمل تحت قيادة موحدة ، ولكن ما كادت المعركة تدخل دورها الحاسم حتى أصبح كل جيش يقاتل على حدة فى المنطقة التى اختص بها ، ولقد زادت هذه الحقيقة وآثارها وضوحاً حين اشتد الضغط على جبهة الجيش المصرى فى الجنوب ، وظلت الجيوش العربية الأخرى تنعم بالهدوء والراحة خلال الهدنة . !!

حتى إذا انتهت الحرب قام كل جيش يبرر موقفه وينحى باللائمة على زملائه ، ولنستمع إلى هذه المساجلة الصحفية التى دارت على صفحات (مجلة النهار) البيروتية بين القائد الأردنى الجنرال (كلوب) ، والكولونيل (منير أبو فاضل) المفتش العام لقوات الجهاد المقدس .

فقد نشرت المجلة المذكورة حديثاً خطيراً للجنرال كلوب دافع فيه عن مسلك الجيش الأردنى وبرر تراجعه عن اللد والرملة وتعرض بالنقد الشديد للجيش المصرى مكرراً أنه لم يقم بواجبه مطلقاً لانقاذ فلسطين ، فإن هذا الجيش (المصرى) هو الذى عرقل بتصرفاته أعمال الجيش العربى الأردنى ، ومنعه من القيام بهجوم صاعق على مراكز اليهود والقضاء عليها فى مدة قصيرة . . . ! !

ورد الكولونيل أبو فاضل على هذا الزعم متهماً الجنرال كلوب بهذه التهم الخطيرة قائلا :

١ — إن الجنرال كلوب هو الذى مهد للضربة القاتلة التى تلقاها الجيش السورى فى (سمخ) . وأنه هو الذى أفسح المجال للعدو ليلتف حول مواقع الجيش السورى فى شمال فلسطين .



مدفعية الجيش المصرى ، تدمر إحدى المواقع اليهودية قبل مهاجمتها



مشاة الجيش المصرى فى زحفهم على إحدى المستعمرات

٢ — إن الجنرال كلوب هو الذى منع قوات الأردنية من الاشتراك فى المعارك التى دارت فى القدس وأنه هو الذى منع مدفعية جيشه من دك مراكز اليهود ومعاونة المناضلين العرب فى دفعهم عنها .

٣— إن الجنرال كلوب هو الذى أمر بإخلاء اللد والرملة رغم أن قواته كانت كافية للدفاع عنها، وذلك ليفسح المجال للعدو للقيام بحركة التفاف حول جناح الجيش المصرى وعزل قواته فى الفالوجا وضرب لذلك مثلا (إن قائد القوات الميكانيكية الأردنية فى منطقة اللد كان بريطانياً ، وهو الذى نفذ أوامر كلوب وأمر الجنود العرب بالانسحاب تاركا مئة ألف عربى لقمة سائغة لليهود ، وكان القائد اليهودى الذى هاجم اللد ضابطا بريطانيا أيضا هو الآخر وأن اتصالا لاسلكياً تم بين الضابطين البريطانيين اتفقا فيه على سحب القوات العربية رغم إرادة الضباط العرب . ومعارضة الجنود الأردنيين البواسل) . !

وليس من شأنى فى هذا الكتاب أن أناقش هذه التهم التى تبادلها قواد العرب . ولكنى آخذها دليلا واضحاً على عظم التعاون والثقة المتبادلة التى كانت تسود الجيوش العربية وهى تقوم بحملتها المقدسة لتحرير فلسطين من عصابات الشر وتسليمها لأهلها العرب . ! !

لم تحاول المستعمرات اليهودية إذن أن تعترض طريق الجيش المصرى حسب الخطة اليهودية العامة ، بل أظهرت كل معانى الضعف والاستسلام ، وكان بعضها يرفع الأعلام البيضاء على قمم الأبراج الشاهقة ، حتى يمضى الجيش فى تنفيذ خطته .

ولقد حاول الجيش المصرى دخول بعض المستعمرات القريبة من مواصلاته ، وتركه اليهود يقترب منها ثم أخذوا يطلقون النار على وحداته

من أبعاد قريبة ، فحاول الجيش اقتحامها بالقوة ، وكانت أول محاولة له أن هاجم مستعمرة (نيريم) الدنجور على الحدود المصرية فى ١٦ مايو ودكها بالمدفعية ، ثم حاول اقتحامها بمشاته ولكنه وجد فيها مقاومة عنيفة اضطرته لصرف النظر عن محاولته ، ومواصلة الزحف مكتفياً بمحاصرتها .

وتكررت المحاولة على كثير من المستعمرات ولكن هذه المحاولات ذهبت عبثاً رغم كثرة الخسائر التى تكبدها الجيش . ولا أستطيع أن أمر على ذكر هذه المعارك دون أن أشير إلى الروح المعنوية العالية التى كان يتمتع بها أفراد هذا الجيش ، هذه الروح التى دفعتهم لملاقات الموت بصدور عارية ، والتقدم صوب الأبراج المحصنة دون أدنى وقاية يحتمون بها ، إلا إيمانهم بالله وثقتهم فى نصره وتأييده .

ولقد أثبتت هذه الروح القوية وجودها وآتت ثمارها يوم أصر الجيش على اقتحام مستعمرة دير سنيد المحصنة فى يوم ١٩ مايو وقاوم العدو مقاومة عنيفة ، غير أنه اضطر إلى إخلائها أمام ضغط هؤلاء الجنود البواسل وشدة بأسهم تاركاً خلفه عشرات من القتلى وكميات وفيرة من المؤن والعتاد . ثم واصل الجيش تقدمه شمالا وأخذ يهاجم المستعمرات اليهودية الواحدة تلو الأخرى ، فهاجم (كفار ديروم) و (بيرون اسحاق) و (كوكبه) و (نجبا) وغيرها ونجح فى اقتحام (نيتسانيم) بعد معركة دامية أظهر الجنود المصريون فيها من ضروب البسالة ما يجعلهم فى طليعة المقاتلين الممتازين ، غير أن هـــذه الروح العالية لم تلبث أن ضعفت بعد تدخل السياسة وفرض الهدنة الأولى والثانية ، وما صحب هاتين الهدنتين من انسحابات وهزائم .

ومما يجدر بى ذكره فى هذا الموضع أن الجنود المصريين — على

الرغم من هذه الروح العالية وما أظهروه في بداية الحرب من شجاعة وثبات — كان واضحاً ما عليه حالتهم من نقص فى التدريب والمقدرة ، خاصة فيما يتعلق (بالأعمال الليلية) ، حين كانت هذه الناحية متوفرة تماماً فى قوات العدو ، ولا أظن إلا أن حضرات الضباط ممن اشتركوا فى الحملة يوافقوننى على هذه الملاحظة ، إذ كان العدو يقوم بأغلب معاركه فى الليالى المظلمة وبصورة تنبئ عن مقدرة فائقة ومستوى عال فى التدريب .

كان مقرراً للجيش المصرى كما ذكرت أن يواصل تقدمه إلى (يبنا) حسب الخطة العربية العامة ، ولكن ما كادت طلائعه تتجاوز (اسدود) وتقترب من الهدف ، حتى تجمعت القوات اليهودية من منطقة (رحبوت) ، وهاجمته هجوماً عنيفاً ، غير أن الجيش أفلح فى صد هذا الهجوم وتكبيد العدو خسائر فادحة ، ولكن اليهود بهجومهم هذا حققوا نتيجة واحدة ، هى (تثبيت) الجيش المصرى فى اسدود .

وكانت هذه هى نقطة التحول فى الحرب إذ لزم الجيش المصرى موقف الدفاع عن نفسه وعن الأرض التى احتلها ، وتغيرت تبعاً لذلك نظرة القيادة العامة للموقف ، وأخذت تنحو منحى جديداً ، فبدل أن تبذل جهدها فى تتبع العصابات اليهودية والقضاء عليها رأت أن تعزل مستعمرات النقب عن بقية أجزاء فلسطين فزحفت القوات المصرية شرقاً واتصلت بقوات المتطوعين المصريين المرابطة فى جبال الخليل ، وبذلك أصبحت القوات المصرية تكون إطاراً وهمياً حول منطقة معادية تموج بعشرات المستعمرات وعشرات الألوف من الجنود . !

والآن أريد أن أتساءل ما الذى كان يحدث لو تجمع اليهود على حدود مصر الشرقية ، وحاولوا الاشتباك مع الجيش المصرى عند دخوله لمنعه من التوغل فى أراضى فلسطين ؟ لاشك أن القيادة المصرية كانت تراجع

موقفها ، وتحجم عن المضى فى تنفيذ خطتها قبل أن تطهر هذه «الجيوب» الخطرة التى يتجمع فيها العدو .

ولكن اليهود لم يفعلوا ذلك ، لا ضعفاً منهم كما يقول البعض ، ولكنهم وضعوا خطتهم الدفاعية على أساس (بعثرة) الجيش المصرى وإعطائه الفرص ليحتل مساحات شاسعة ، مع علمهم أنه لا يملك القوة العددية الكافية ليسيطر على هذه المناطق الواسعة سيطرة صحيحة ، وعندئذ تقوم المستعمرات بدورها المرسوم فتهاجم قواته ويصبح من الميسور القضاء عليه .

ولقد كان الإنسان منا يعجب كثيراً وهو يمر على بعض المراكز الهامة التى يحتلها الجيش ، فلا يجد إلا قوات ضئيلة مبعثرة هنا وهناك لا يمكنها الصمود أمام أى هجوم لأكثر من دقائق معدودة .

وكان هذا هو الوضع الطبيعى لجيش قليل العدد اضطرته ظروفه لحماية مناطق شاسعة يعجز عن حمايتها أضعاف أضعافه ، وليست هذه الخطة التى اتبعها اليهود من تفكيرهم ووضعهم ، ولكنها خطة قديمة استعملت أكثر من مرة : استعملها الروس أمام نابليون حينما تركوه يحتل المناطق الشاسعة من الأراضى الروسية قبل أن يقوموا بالهجمات المضادة على جيشه ، واستعملها الروس مرة أخرى حين عبرت الجيوش الألمانية الأراضى الروسية فى يونيه عام ١٩٤١ عندما تركت المناطق الشاسعة ليحتلها النازيون فتتبعثر بذلك جيوشهم ويصبح من الميسور القضاء عليها وإيقاع الهزائم بها كما حدث بعد ذلك .

وقد تعجب حين تعلم أن كثيراً من ضباط أركان الحرب فى الجيش الإسرائيلى ، كانوا ضباطا فى الجيش الروسى خلال الحرب الروسية الألمانية وكانت هذه الخطط دروساً مستفادة ، نفذت بصورة مصغرة فى فلسطين ونجحت نجاحاً منقطع النظير .

ولست أدرى كيف غابت هذه المعانى عن أذهان القادة العسكريين فى الجيوش العربية ، ولن يزال سر هـذه الخطة قائماً ، يتذبذب بين (اللواء المواوى بك) القائد الأول للحملة ، وبين الساسة المصريين الذين كانوا يحركون القتال من القاهرة ، والذين كان أكبر همهم كسب الرأى العام ، وانتزاع تصفيقه للجيش الباسـل الذى احتل ثلث فلسطين فى مدة لا تتجاوز عشرين يوماً ، ببركة وزارة السعديين ، وحسن سياستهم !!

على أن أنصـار (المواوى بك) يقولون إن الرجل لم يغب عن ذهنه ما فى هذه الخطة من خطر ، ولـكنه كرجل عسكرى كان ينفذ مايؤمر به مضطراً ، ويواصل الزحف كما صـدرت إليه الأوامر ، ولـكن أنصاره يعودون فيقولون إن الواجب كان يقضى عليه باعتزال القيادة ، ومغادرة الميدان ، وعدم المجازفة بسمعته العسـكرية كقائد ، وسمعة الجيش بتعريضه للهزيمة المنـكرة ، من جراء خطة مرتجلة . ولسوف تظل هذه النقطة الخطيرة التى ترتب عليها ما حل بالجيش وما حدث فى فلسطين سراً مغلقاً ، حتى يأتى يوم يسـتطيع فيه (المواوى بك) أن يواجه أمته وأن يحدد مسؤولية الـكوارث التى تعرض لها جيشنا فى فلسطين والتى كادت تودى به لولا لطف الله وعنايته .

ولقد أوضحت فى كلامى عن جهود المتطوعين فى الدفاع عن بيت لحم كيف رأت القيادة العامة أن تجمع كتائبهم فى بيت لحم والخليل ، وحين تمت هذه الخطوة لم يبق مع القوات الرئيسية المصرية سوى قوات الإخوان الحرة التى كان يقودها مؤرخ هذه الصفحات والتى نفرد الأبواب التالية لمتابعة أعمالها والوقوف على مدى تأثيرها فى سـير العمليات التى دارت فى هذه الجبهة .

كانت مهمة الإخوان فى ذلك الوقت تتلخص فى إرباك مستعمرات النقب ، واشغالها فى الدفاع عن نفسها أمام هجماتهم المتـكررة ، حتى لاتفـكر فى الانقضاض على مؤخرة الجيش وهو مشغول بمعاركه الأمامية فى مناطق أسدود والمجدل والفالوجا ، فمرت بالإخوان فى ذلك الوقت فترة من أنشط الفترات ، وبلغت المعارك بينهم وبين اليهود ، إلى عنفوان شدتها ، ولم يكن يمر يوم واحد حتى تنشب الإشـتباكات الدامية فى مناطق مختلفة من الصحراء ، والإخوان فى كل ذلك غير مقيدين مطلقاً بما جد من أسـاليب الخداع والتثبيط كقرارات الهدنة ووقف القتال . بل لا أكون مبالغاً إذا قلت إن الإخوان كانوا يعملون فى فترات الهـدنة أكثر مما يعملون فى أوقات القتال ، حتى وقع منهم فى ذلك الحين كثير من الجرحى وعدد من الشهداء .

ولم تـكن جهود الإخوان قاصرة على مهاجمة القوافل ومحاصرة المستعمرات بل كانوا يشتركون مع الجيش المصرى فى عملياته الهجومية ، ولأضرب مثلا على ذلك بمعركة (بيرون اسحق) إذ قرر الجيش اقتحامها ووضع خطة محكمة لذلك .

وكان كل ما تخشـاه قيادة الجيش أن تتدخل المستعمرات الجنوبية فى المعركة ، فطلب إلى البـكباشى (عبد الجواد طباله) أركان حرب المنطقة فى ذلك الحين ، أن يقوم الإخوان بقطع الطرق التى تصـل هذه المستعمرات ومنع اليهود من دخول المعركة عن هذا الطريق ، فعهدت إلى الأخوين (نجيب جويفل) و (محمد على سـليم) للقيام بهذه المهمة ، فخرجوا بفصائلهم ورابطوا على نقاط متقاربة على الطريق ، وحين بدأت المعركة واشتد الضغط على حامية (بيرون اسحق) بعثت تطلب المزيد من

القوات ، واستجابت لها القيادة اليهودية ، وما هى إلا برهة يسيرة حتى امتلأ الطريق بالمصفحات القادمة من مستعمرات النقب الجنوبية ، ونشبت معركة شديدة بين الإخوان وهذا العدد الهائل من المصفحات ، وحاول اليهود التخلص من هذا الحصار والوصول إلى ميدان المعركة ، ولكن قوة النيران الموجهة إليهم من الأسلحة الأوتوماتيكية ومدافع الهاون و (البيات) ، وحقول الألغام التى بثت فى طريقهم ، أقنعتهم بأن طريق العودة هى أسلم طريق ، فبدأوا يتراجعون تاركين حامية (بيرون اسحق) تعانى وحدها شدة المعركة و تستغيث بقيادتها ولا مغيث . !

ولست أنسى يوم هاجم اليهود إحدى مضارب العرب الآمنة وأضرموا فيها النار بعد أن قتلوا كثيراً من رجالها ، وجاء الأحياء منهم يشكون إلينا إذ كان سبب المذبحة التى أوقعها اليهود بهم أنهم يتعاونون مع الإخوان (المجرمين) على حد تعبيرهم ! ! . وكنا مضطرين لمجابهة هذا العدوان بمثله ، حتى يأمن البدو على أنفسهم ويظلوا على ولائهم لنا ، فقررنا إيقاع مذبحة مشابهة باليهود ، وتسللت قوة من الإخوان فى جوف الليل إلى إحدى المناطق الداخلية متوغلة فى أرض يعتبرها اليهود حرمهم الخاص ، وهناك على طريق السيارات بثوا حقلا كبيراً من الألغام ، وانفلتوا فى أحد الوديان المجاورة ينتظرون مقدم (الصيد) ، وجاءت قافلة كبيرة قرب الفجر ، فلم تكد تمس الألغام حتى انفجرت وتطايرت أجزاء السيارات فى الفضاء ، وظل الإخوان فى مكمنهم حتى انجلى دخان الألغام ، وقام من نجا من اليهود ، فأخذوا يطلقون عليهم النار حتى مات من مات وفر من استطاع الفرار ، ثم جمعوا القتلى وكدسوهم كومة واحدة ، بعد أن أخذوا ما وجدوه من سلاح وعتاد ، ولم ينس الإخوان أن يتركوا منشوراً كتب فيه أن هذا

الحادث بمثابة رد لما ارتكبته العصابات الصهيونية ضد العرب الآمنين . ولقد سمع القائد العام بهذه العملية الجريئة فأبدى رغبته فى رؤية بعض الأسلحة التى غنمها الإخوان ، وأعجب كثيراً بما شاهده منها خاصة أحد مدافع « المورتر » المصنوعة حديثاً فى بلجيكا ، وكانت هذه واحدة من عشرات المعارك التى قام بها الإخوان وسببت إرباكاً عنيفاً لليهود ، وأكسبت الإخوان خبرة لا تجارى فى وسائل حرب العصابات الحديثة .

١٤ـ أخطاء .. وانسحابات

[إن كل قائد عام ، يعهد إليه بتنفيذ خطة يراها غير صالحة ، يعد مجرما . إن واجبه يقتضيه الإدلاء ببواعثه ، والمطالبة بتغيير الخطة . وأخيراً يقدم استقالته ، حتى لا يكون أداة للقضاء على جنوده] « نابليون »

أود قبل أن أستطرد فى بيان ماخفى من نشاط الإخوان المسلمين وأثرهم فى الميدان، أن أشير إلى بعض التغييرات الجوهرية التى طرأت على جبهات القتال ، بعد فرض الهدنة الأولى ليكون القارىء على حقيقة بينة من الموقف .

لزم الجيش المصرى مواقعه التى احتلها ، وأخذت وحداته تنظم وسائل الدفاع عن نفسها وتستعد لاستئناف القتال ، وعند نهاية الهدنة أخذ الجيش يهاجم مراكز اليهود بعنف وشـــدة ، ويضيق الخناق على المستعمرات الجنوبية حتى كادت تموت جوعاً وعطشاً ، وأدركت القيادة اليهودية حقيقة الخطر الذى يحيط بهذه المستعمرات ، فحاولت تموينها بالطائرات ، ولم تنجح فى هذه الخطة أيضاً إذ كان السلاح الجوى المصرى فى ذلك الحين لايزال يسيطر على الجو، وأذكر أنهم قاموا بمثل هذه المحاولات فى المستعمرات التى يتولى جنود « الإخوان » حصارها غير أن الإخوان أرغموها أكثر من مرة على إلقاء حمولتها بعيداً عن المستعمرات تحت تأثير نيران المدافع الرشاشة التى كانت تسلط عليها من أبعاد قريبة . والفرار راجعة إلى قواعدها وكانت هذه الحركة مصدر غنائم جديدة للاخوان ، ومصدر مضايقات مثيرة لليهود .

وفرضت الهدنة الثانية واستطاع اليهود خلالها أن يجلبوا أنواعاً جديدة

من الأسلحة الثقيلة والطائرات الضخمة ، وحين آنسوا فى أنفسهم شيئاً من القوة والإعداد ، ضربوا بالهدنة عرض الحائط وبدأوا عمليات حربية واسعة النطاق ، فهاجموا (تقاطع الطرق) فى ١٤ أكتوبر واحتلوها وبذلك تحطم الحاجز الذى يفصل الشمال عن الجنوب وانطلقت القوات اليهودية المدرعة تحمل الأسلحة والجنود ، وانتفضت المستعمرات الهادئة الوادعة ، ودبت معالم الحياة والنشاط فى أوصالها ، وقامت لتؤدى دورها المرسوم ، فقطعت طرق المواصلات حين كان الضغط يشتد على خطوط الجيش الأمامية مما اضطر قيادة الجيش إلى تقصير خطوطه ، والتخلى عن مناطق (المجدل) و (أسدود) والعودة إلى النظرية القديمة والتجمع فى منطقة (رفح — غزه) تاركة خلفها قوة قوامها خمسة آلاف جندى فى منطقة (الفالوجا) لم تستطع الإفلات واللحاق بالجيش المنسحب إلى (غزة) .

ولقـد اعتبر إخلاء هذه المناطق فشلا ذريعاً ، منيت به قيادة الجيش المصرى ، ومما يزيد فى ضخامة هذا الفشل أن يتم الانسحاب بسرعة وارتباك وقبل البت فى مصير لواء (الفالوجا) .

ولا أمر على ذكر هذه الانسحابات دون أن أتعرض لحقيقـة مؤلمة ، ذلك أن هذه المناطق لم تتعرض لهجوم ذى بال وكان من الميسور الصمود فيها والمحافظة عليها — أو على الأقل — الانسحاب منها بنظام وهدوء ، حتى تعمل الترتيبات اللازمة لإنقاذ قوات (الفالوجا) ، إذ كان كل مافعله اليهود أن أمروا قوة صـغيرة من جنودهم لا تزيد عن « سرية » فاحتلت قريه (بيت حانون) فى ١٦ أكتوبر وبذلك قطعوا طريق المواصلات الرئيسى الذى يربط (غزه) ببقية المناطق ، وكان الوضع الطبيعى أن يبادر الجيش فيهاجم هذه القوة الصغيرة ويؤمن طريق مواصلاته ، وكان من

السهولة عليه أن يفعل ذلك ، بل أن خطة وضعت فعلا لتطهيرها ، وكان كاتب هذه السطور أحد شهودها ، وكان مفروضاً أن تقوم قوات لتطهير هذه المنطقة ، ولكن الأمر العجيب الذى لا أستطيع تعليله حتى هذه اللحظة أن تصدر الأوامر بالكف عن تنفيذ الخطة ، وتصدر الأوامر فى الوقت نفسه لحاميات (المجدل) و (أسدود) لتنسحب إلى غزة عن الطريق الساحلى ، وبذلك نفقد السيطرة على منطقة من أهم مناطق فلسطين دون سبب ظاهر ، بل دون أن نتعرض لهجوم جوى واحد ...!!

ولقد حدثنى بعض ضباط المخابرات أن اليهود كانوا ينظرون إلى تحركات الجيش المصرى بعين الريبة والحذر ، وكانوا يعتقدون أن قواته تتجمع لتضربهم الضربة القاتلة ، ولم يكن يدور فى خاطرهم مطلقاً أن هذه القوات تتحرك منسحبة للخلف دون سبب واضح ، ولو علموا أنه يتحرك منسحباً لهاجموا قواته المختلة ، وأحالوا إنسحابه هزيمة منكرة ، ولكانت مهزلة يتندر بها الناس لأجيال طويلة ، ومأساة مروعة يتخذها التاريخ العسكرى عنواناً للجهل وسوء التصرف . والعجيب أن قوات « الفالوجا » ظلت فى مواقعها لاتبدى حراكا حتى أحاط بها العدو من كل جانب ، وهنا تتعارض الأقوال فى تعليل هذا الموقف ، فبينما يقول البعض أن « المواوى بك » إنسحب إلى غزة ولم يصدر تعليمات إلى لواء «الفالوجا» إلا متأخراً ، وبعد أن أطبقت الحلقة ووقعت هذه القوات فى «المصيدة» ، بينما يقول البعض هذا القول ويضع التبعة كلها على « المواوى بك» ، يقول البعض الآخر أن التعليمات قد صدرت فعلا لقائد « الفالوجا » « الأميرالاى السيد طه بك » لينسحب بقواته لا إلى « غزة » ولكن إلى «بئر السبع» حيث يرابط فيها ويحتل أجزاء من الطريق الذى يصلها « بغزة » بينما

تكون القوات الرئيسية قد أتمت إنسحابها إلى غزة وامتدت جنوبا حتى تلتقى بقواته ، وبذلك ينفصل الشمال عن الجنوب مرة أخرى ويكون الإنسحاب إنسحابا منظما « لخطة موضوعة » كما قيل يومئذ ، لا هروبا على غير خطة إلا حب السلامة والإبقاء على الحياة .



الاميرلاى (السيد بك طه) قائد لواء الفالوجا .

يقول البعض هذا ويقولون أن المهلة كانت كافية أمام « السيد طه بك» لينفذ هذه التعليمات ، ويؤولون عدم تنفيذها بأسباب كثيرة لاتشرف أحد الرجلين . ولست أجد وسيلة تضع حداً لهذه الاتهامات وتقضى على هذه البلبلة الفكرية إلا أن يتكلم أحدهما ويحدد التهمة ، أو أن تفتح وزارة الحربية فمها وترسل شعاعا ضئيلا على هذه الظلمات ، أم تراها لاتريد الكلام ليظل الشعب جاهلا بحقائق الأمور ، وحتى لا يتعرض « لورد الفعل » السيء بعد شعوره بالهزيمة المنكرة التى منى بها فى حرب فلسطين ؟

وليست التهمة قاصرة على بقاء قوة معطلة فى قرية « الفالوجا » وقت

أن كان الجيش فى حاجة إلى جندى واحد ، ولا لتعريض قرابة خمسة آلاف للافناء والأسر ، ولكن التهمة أكبر من ذلك بكثير . لأن بقاء هذه القوات الكبيرة فى الفالوجا ترتب عليه ضياع مدينة (بئر السبع) ، وإعطاء اليهود فرصة التجمع فى مستعمرات النقب ، وما أعقب ذلك من انهيار القطاع الجنوبى « عسلوج » — « العوجا » ، ثم اقتحام اليهود لحدود مصر الشرقية والزحف حتى مشارف مدينة « العريش » . والتهمة كما ترى كبيرة جداً لو وقعت فى أى جيش من جيوش الأرض لشكلت لها المحاكمات العسكرية ، ولصدرت فيها العقوبات القاسية ، أو على الأقل لتحددت المسئوليات والتبعات ، حتى يمكن استخلاص العبر والعظات . هذا فى أى جيش ، أما فى جيشنا فإن مثل هذه الأمور تعتبر تافهة صغيرة لا تستحق التفكير فيها فضلا عن تشكيل المحاكمات من أجلها . ! !

أما قوة « الفالوجا » فقد أحكم اليهود حولها الحصار ، وأخذوا يوجهون لها الضربات القاسية من الجو والأرض ، وظنوا أن الصيد الدسم قد وقع فى أيديهم ، وأن هذه القوات لا تلبث أن تستسلم ، غير أن القوات الباسلة خيبت ظنهم ومضت تدافع عن مراكزها بعناد واستبسال ، وإذا ذكرت هـذه الفترة من الحرب فلا يسعنى إلا أن أسجل فخراً للاميرالاى (السيد طه) قائد هذه القوة ، إذ كان لروحه العالية وإيمانه القوى أبعد الأثر فى ثبات جنوده ووقوفهم هذا الموقف الرائع ، ومما يذكر — أيضاً — أن فرصاً كثيرة تهيأت له للافلات والنجاة ، ولكنه كان يركلها بقدمه لشعوره أن فى قبولها مساساً بكرامة الجيش والأمة ، وظل يكافح بجنوده كفاح الأبطال حتى من الله عليهم بالنجاة الكريمة بعد نهاية الحرب وإعلان الهدنة ، وغادروا أرض «الفالوجا» بأسلحتهم ومعداتهم فى ١١ مارس سنة ١٩٤٨ .

وهكذا أخليت أهم المناطق وحوصرت «الفالوجا» وعزلت قوات

المتطوعين المصريين والإخوان المسلمين فى « جبال الخليل » ، ووقعت القيادة المصرية فى مأزق حرج لم تستطع معه السيطرة على الموقف ومواجهته بما يحتاجه من حكمة وحزم ، ولم يضيع اليهود الفرص ، فشددوا النكير على حامية مدينة « بئر السبع » — مفتاح فلسطين الشرقى وحاضرة النقب — وقذفوها بمئات الأطنان من القنابل من الجو دون أن تملك أى وسيلة لمقاومة هـذه الغارات الوحشية ثم هاجموها بشدة مما اضطرها للتسليم فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

ولقد استنجدت هذه الحامية بقيادتها العامة ، وتوسلت إليها أن ترسل بعض الجنود والسلاح حتى يمكنها الصمود أمام هـذه الهجمات المنكرة ، ولكن القيادة العامة كانت فى شغل شاغل فى ذلك الحين ، فهى تحاول تثبيت أقدامها فى منطقة « غزه » وجمع قواتها المبعثرة بعد الإنسحاب ، والعدو الماكر يأبى اعطاءها فرصة للتفكير فى أمرها بما يقوم به من هجمات « وهمية » على غزة ، ومن غارات جبارة على مراكز الجيش بها ، ويزيد فى إشغالها بالمناورات البحرية التى تقوم بها قطع أسطوله ، ويحاول قطع الطريق الساحلى الذى تسلكه القوات فى انسحابها من « المجدل » . وهكذا تركت « بئر السبع » لتواجه مصيرها المحزن فى أيدى حامية صغيرة من الجيش ، ومجموعات مفككة من المتطوعين الليبيين والمناضلين العرب . وبسقوط « بئر السبع » أصبح لليهود السيطرة الفعلية على أجزاء النقب الشمالية ، وأصبح فى مقدورهم التنقل بحرية بين أرجائها المختلفة . فى تلك اللحظات الحرجة كانت الفرصة سانحة أمام اليهود للهجوم على المناطق الجنوبيـة وإعادة مأساة الفالوجا فى غزة ولم تكن هناك خطة منظمة للدفاع عن هذه المنطقة ، إذ كان الجيش — كما ذكرت — مشغولا فى عمليات الإنسحاب ، ولم يكن فى هذه المنطقة كلها حتى ذلك الحين غير



مقبرة الشهداء المصريين فى مدينة « غزة »

عدة « سرايا » من الإخوان المسلمين ، ووجد هؤلاء الإخوان أنفسهم أمام حقيقة واقعة هى عبء المحافظة على جيش مصر وحمايته من أى عدوان يحركه اليهود من هذه المنطقة ، ولا يستطيع أحد أن يتكهن بفداحة الكارثة التى كانت وشيكة الوقوع ، لولا وجود هذه الفئة المؤمنة المجاهدة فى ذلك الحين .

شعرنا بخطورة الموقف ، فقدمت مشروعا إلى القيادة العامة بينت فيه الأخطار الكبيرة التى يمكن أن تقع لو فكر اليهود فى مهاجمة هذه المناطق وقطع خط الرجعة على الجيش ، وطالبت فى ختام التقرير بإطلاق يد الإخوان وإعطائهم العتاد اللازم والترخيص لهم بإحضار قوات أخرى من مصر ، متى يمكنهم تنفيذ ذلك المشروع .

وكان المشروع الجديد يقضى باحتلال مواقع (حاكمة) حول كل مستعمرة من المستعمرات الكبيرة ومحاصرتها ، وعدم إعطائها أية فرصة للتكتل حتى يفرغ الجيش من تنظيم خطوطه الدفاعية . ولقد استدعتنى القيادة العامة فى « غزة » وناقشتنى فى تفاصيل الخطة ، ثم أبدت موافقتها المطلقة على تنفيذها ، وأذكر أن اللواء « المواوى بك » قد وعدنى بكتابة خطاب إلى الأمانة العامة للجامعة العربية وإلى رئاسة أركان الحرب يطلب فيه تجنيد كتيبة من الإخوان عن طريق المركز العام والشعب وإرسالهم فوراً إلى الميدان لنتمكن من السيطرة على الموقف .

ولقد ذهبت من فورى إلى فضيلة « الأستاذ محمد فرغلى » رئيس الإخوان فى فلسطين ، وعضو مكتب الإرشاد العام ، وأطلعته على تفاصيل الخطة . فسافر من فوره إلى مصر ، ليعمل على تجهيز هذا العدد الكبير ، وعمل الترتيبات اللازمة نحو ترحيلهم إلى الميدان . وأذكر أن اللواء « موسى لطفى باشا » — وكان يشرف على إدارة العمليات الحربية فى الميدان قابلنى بعد ذلك وأبدى اعجابه الشديد بالمشروع ، وأفهمنى أن هذه الخطة لو نفذت بدقة وأحكام فسوف يكون لها الفضل الأول فى حماية الجيش فى هذه المرحلة الخطيرة ، والاحتفاظ بهذه المنطقة الباقية من فلسطين ، فوعدته خيرا ومضيت إلى المعسكرات لأعد العدة وأبدأ العمل .

جمعت الإخوان فى ساحة التدريب بالمعسكر ، وقلت لهم إن الله قد فتح لهم بابا جديداً للجهاد ، وأن الظروف قد ألقت على كواهلهم عبء المحافظة على الجيش وكرامته ، وإنه لولا ثقتى فى قوة إيمانهم ورغبتهم فى الكفاح ما قبلت أداء هذه المهمة الشاقة التى أعلم فداحتها وخطرها . ولن أستطيع أن أصور شعور الإخوان وهم يستمعون لهذه الأنباء ، كانوا

يقبلون على فى ابتهاج واضح ، وكأنهم يدعون لحفلة عرس أو نزهة خلوية، لا لميدان قتال فيه من المشقة والخطر ما فيه .!!

ولقد خرج الإخوان المسؤولون فى استكشاف حول المستعمرات وعاينوا المواقع التى رأوا احتلالها ثم عاد كل واحد منهم يعد « فصيلته » ليحتل بها مواقعه ، وكانت مشكلة المشاكل اقناع أفراد من الإخوان بالتخلف عن فصائلهم والبقاء فى المعسكر ، ولست أنسى ما كان من أمر المجاهد الشاب « عبد الحميد بسيونى خطاب » نجل العالم الجليل الشيخ « بسيونى خطاب » ، لقد كان هذا الشاب يبكى بكاء مراً حين أمره قائد فصيلته بالبقاء فى المعسكر ، وما زال يبكى ويبعث بالوساطات حتى أشفقت عليه ، فسمحت له بالخروج . وخرج من المعسكر وهو أشد ما يكون فرحا وابتهاجاً ، ولقد أخلص النية للجهاد ، فاجتباه ربه وأكرمه ، واتخذه شهيدا فى إحدى المعارك المشهورة ، التى جاءت بعد ذلك .

وأقيمت المواقع الجديدة حول المستعمرات ، ولم تكن سيارة يهودية تجرؤ على التنقل بين مستعمرة وأخرى ، إذ أقام الإخوان « الكمائن » على الطرق ، وملأوا الأرض بالألغام ، وأخذت داورياتهم المصفحة تجوب الصحراء الواسعة وتصل فى طوافها حتى مدينة « بئر السبع » نفسها ، ولكى أصور أهمية هذه الحركة وأثرها يمكن أن أقول أن خمسة عشر سيارة مصفحة ودبابة قد دمرت خلال أسبوع واحد من بدء العمل ، عدا أنابيب المياه التى كانت تدمر كل يوم مما اضطر اليهود إلى ملاقاة الإخوان وجها لوجه ، فنشبت معارك رهيبة سقط فيها بعض الإخوان ولكنها جاءت بأحسن النتائج وأبرك الثمرات . ولقد ضج اليهود بالشكوى وأبلغوا مراقبى الهدنة احتجاجاتهم أكثر من مرة ، وعلقت « محطة إسرائيل » على هذه

الحركات وهددت باستئناف القتال ضد الجيش إن لم تكف عصابات الإخوان عن نشاطها فى هذه المنطقة .

ولقد فكر بعض كبار الضباط فى زيارة تلك المواقع البعيدة الواقعة حول (وادى الشلاله) و (تل جمه) و (الرابيه) و (الشعوث) . وكان رفقتهم أحد الإخوان يدلهم على الطريق ، فلما رأوا أنفسهم يتوغلون فى الصحراء مبتعدين عن خطوط الجيش لأكثر من خمسة عشر كيلومتراً إلى الشرق ، وهالهم أن رأوا المستعمرات اليهودية خلفهم ، داخلهم شىء من الشك والريبة ، ومال أحدهم على الجندى المرافق لهم يسأله (أتراك ضللت الطريق ؟) فلما أخبره أنهم يسيرون فى الطريق الصحيح ، قال له (إنى أعتقد أنكم متفقون مع اليهود وإلا لما جرؤتم على التوغل فى مناطقهم بهذه الصورة الجنونية !) وضحك الأخ المرافق وضحك الضباط جميعا ، وحين رجعوا إلى معسكراتهم أخذوا يشيدون بما رأوا من بسالة الإخوان وشدة بأسهم .

ويجدر بى — قبل أن انتهى من الكلام عن هذه العمليات الناجحة التى قام بها الإخوان والتى أفادت فائدة كبرى فى سير الأمور — أن أذكر المعونة القيمة التى قدمتها لنا القبائل العربية من البدو خاصة عشائر (الترابين) و (الحناجرة) و (النصيرات) و (التياها) و (والمعالقة) ، الذين وضعوا كل شبابهم تحت تصرف الإخوان ، وكل ما لديهم من سلاح وذخيرة وسيارات ... تمت عمليات الانسحاب وبدأ الجيش يستقر فى المواقع الجديدة التى اختارها ، وبضياع المناطق الكبيرة السالفة الذكر وضحت نهاية الحرب وأصبح من اليسير التنبؤ بنتيجتها ، ويمكن تلخيص ما أسلفناه فى الأبواب الماضية فيما يلى :

أولا : توغل الجيش المصرى فى فلسطين دون أن يضع خطة عملية لفض « الجيوب » اليهودية الخطرة ، التى توزعت فى صحراء « النقب » كان أساسا لكل ما حدث بعد ذلك من أخطاء .

ثانياً : قبول الهدنة الأولى والثانية أعطى اليهود فرصة نادرة لاستجلاب أحدث أنواع الطائرات والدبابات وغيرها فوق أنه أثر تأثيراً عكسيا فى روح جنودنا المعنوية .

ثالثاً : كان « الغرض » الأصلى — كما أسلفنا — هو احتلال « تل أبيب » ولقد رأينا كيف فشل الجيش فى المحافظة على هذا الغرض ، ثم تعددت أغراضه واهدافه بعد ذلك حتى لم يعد له غرض معين يسعى له ويعمل لتحقيقه .

رابعاً : كان واضحا ما عليه جنودنا من قصور وعجز فى التدريب ، خاصة فيما يتعلق بالأعمال الليلية ، ولو كانوا يحسنون هذا النوع من العمليات لهاجموا المستعمرات ليلا واستفادوا من ميزة « المفاجأة » ولما تعرضوا للخسائر الكثيرة من جراء الهجمات النهارية .

خامساً : لم يكن الجيش يملك دبابات ثقيلة تسهل له مهاجمة المستعمرات الحصينة ، مما اضطره إلى العمل بالنظريات القديمة فيحاول دك التحصينات بمدفعيته قبل الهجوم ، غير أن قوة تحصينات اليهود وبراعتهم فى طرق الإخفاء والتستر فى باطن الأرض ، كانت تجعل هذه الطريقة مضيعة للجهد ومضيعة لذخيرة المدافع على قلتها .

سادساً : لم تكن لدى جنودنا ما يمكن تسميته برغبة « الاستكشاف » أو معرفة الأرض واستخدامها حين كان ذلك واضحا كل الوضوح عند

جنود الخصم ويكفى أن نقول أنه كان يسلك طرقا يصعب على أهل البلاد أنفسهم معرفتها . !

سابعاً : التزام الجيش لخطة الدفاع بعد الهدنة الأولى حطم روح جنودنا المعنوية وأعطى اليهود سيطرة تامة على الموقف الحربى ، والاشتغال بعد ذلك بالأعمال الهجومية ، خاصة إذا علمنا أن قوات العدو الرئيسية « البالماخ » لم تكن تشغل نفسها اطلاقا بالدفاع .

ثامناً : لم تكن الجيوش العربية تتصرف بموجب خطة مرسومة وقيادة موحدة مما جعل اليهود يركزون هجماتهم على كل جيش على حده ، ولقد رأينا كيف ركزوا اهتمامهم فى الجيش المصرى أقوى جيوش العرب وأفضلها نظما وتسلحا دون أن يخف زملاؤه لنجدته فى الجبهات الأخرى .

تاسعاً : كان الواجب يقضى بالإفادة من القوى الشعبية الفلسطينية وتسخيرها للمجهود الحربى ، وكان يمكن أن تشكل قوات كبيرة من « الحرس الوطنى » ورجال العصابات ، فتتولى الأولى الدفاع عن المدن والقرى ، وتتولى الثانية مهمة إنهاك العدو وتوزيع قواته بينما تظل قوات الجيش حرة غير مرتبطة بالأوضاع الدفاعية اطلاقا .

عاشراً : لم يكن هناك أى داع لبقاء « القوة الخفيفة » فى جبال الخليل حيث أن تلك الجهات كانت تدخل ضمن المنطقة الأردنية مما سبب كثيرا من المشاكل السياسية بيننا وبين القوات الأردنية ، ولو بقيت هذه القوات فى يد قيادة الجيش المصرى لأمكن استغلالها كقوة ضاربة « احتياطية » .



اللواء (فؤاد صادق باشا) ... قاد الجيش المصرى فى آخر مراحل القتال

١٥ — تغيير القيادة وحل الاخوان

[كان الإخوان المسلمون جنودا أبطالا أدوا واجبهم كأحسن ما يكون]

« فؤاد صادق »

استقرت القيادة العامة فى «غزة» بعد إخلاء المناطق المتقدمة الذكر، وبدأ « المواوى بك » ينظم نفسه فى الوضع الجديد، وقيل إنه قد فرغ من تنظيم خطط عسكرية جديدة، وأنه سيباشر تنفيذها بنفسه، ولقد قال لى القائمقام « على مقلد بك » أركان حرب القائد العام فى ذلك الحين أن هناك خطة توضع لاختراق الحصار المضروب حول حامية الفالوجا وإنقاذها بالقوة، وبعد أن بين لى بإنجاز تفاصيل هذه الخطة: قال لى إن الرأى متجه أن يقوم الإخوان المسلمون بأهم أجزائها، فأبديت له ترحيبى للقيام بأى عمل مهما كانت خطورته إذا كان فيه نجاة لإخواننا المحصورين. غير أن الظروف لم تسمح للمواوى بك بتنفيذ خططه، إذ تقرر سحبه إلى مصر وغادر الميدان فى ١١ نوفمبر، بعد أن سلم مهام القيادة العامة إلى اللواء أحمد فؤاد صادق بك (باشا).

جاء اللواء (فؤاد صادق) ليتسلم قيادة الحملة، وتناقل الضباط والجنود قصصاً كثيرة عن قسوة القائد الجديد وشدته، وبالغوا فى إظهاره بمظهر القائد الفظ الذى يبطش لأتفه الأسباب. وكانت مهمة القائد الجديد شاقة للغاية فحالة الجيش كانت قد وصلت إلى درجة كبيرة من السوء والفوضى، وكانت الروح المعنوية فى الجنود قد هبطت إلى الحضيض من جراء الهزائم

والانسحابات المتتالية ، تمرات الفالوجا لا تزال تعانى مرارة الحصار ، ويتناقل الجنود أنباء الضربات الجوية والأرضية ، التى تتعرض لها القوات الباسلة ، وقوات المتطوعين فى مناطق الخليل وبيت لحم تقاسى مرارة الحرمان من جراء انفصالها عن القوات الرئيسية ، والعدو يعمل جاهدا لإفنائها واستخلاص تلك المناطق الحيوية من أيديها ، أما القوات الرئيسية فى غزة فقد كانت تعانى ضعفا شديدا ، ورعبا قاتلا بسبب هذه الأنباء المثيرة وبسبب الوضع الدفاعى الشاذ الذى لزمته فى الخنادق الموحلة تحت رحمة الأمطار . تلك كانت حالة الميدان حين تغيرت القيادة وجاء (فؤادصادق) ليتسلم التركة ، فكان أول عمل قام به أن طاف مع كبار ضباطه على الجنود فى مواقعهم ، وخنادقهم ، يتحدث إليهم ويثير الروح الكامنة فى أعماق قلوبهم تلك الروح التى حطمتها أخطاء الساسة ونزلت بها إلى الحضيض . وكانت سنة حميدة استنها القائد الجديد ، فجاءت بالنتائج الطيبة وكان لها أثر كبير فى النجاح الموضعى التى أحرزته تلك القوات بعد ذلك ، وما لبثت الصورة القاتمة التى رسمها الضباط والجنود لقائدهم أن تبدلت وحلت محلها عاطفة متبادلة من المحبة والإعجاب .

ولقد زار القائد الجديد معسكرات الإخوان فى الأسبوع الأول ، وجلس إليهم وأبدى إعجابه الشديد بروحهم العالية ، وكان يقول لهم فى أول لقاء إنه قد سمع عن بطولتهم وأعمالهم وإنه يتمنى أن لو كانت روح أفراد الجيش على هذه الشاكلة ، ثم تكررت زياراته لهم فى مواقعهم ومعسكراتهم ، وكان الإخوان فى كل مرة يزدادون تعلقا بالرجل وإعجابا به ، وكان الإخوان حتى ذلك الوقت لا يزالون يحتلون المواقع المحيطة بالمستعمرات ولا تزال تقارير المخابرات الحربية ترد تباعا إلى القيادة العامة

عن مبلغ الخسائر الكبيرة التي ينزلونها بالعدو ، ولقد مر بك كيف ضج اليهود بالشكوى وهددوا باستئناف القتال إن لم يوقف الجيش هذه العصابات عن نشاطها .

وفوجئت ذات يوم بطلبي إلى رفح حيث كانت القيادة العامة قد انتقلت إليها وهناك تسلمت أمرا يقضى بسحب الإخوان من تلك المواقع وإرجاعهم للمعسكرات ، وحاولت أن أجد تعليلا لهذا الأمر المفاجىء ، فكنت أقابل بالصمت من الجميع ، وقد همس لى بعض ضباط الرئاسة أن هذه التعليمات واردة من القاهرة ، وعجبت كثيرا لصدورها خاصة فى هذه المرحلة الخطيرة من الحرب ، وبعد أن آمن الجميع بالفائدة التى يجنيها الجيش من بقاء الاخوان فى هذه المنطقة ، وكنت أعلم أن اليهود سيبادرون حتما لاحتلال هذه المواقع ليأمنوا شر العصابات وبالتالى ليضعوا خطوط الجيش المصرى تحت رحمتهم ، فضيت أشرح وجهة نظرى إلى المسئولين وأبين الأضرار التى يمكن أن تنجم عن هذا الأمر ولكن المسئولين أصروا ، وأفهمونى بلباقة أن هذه الأوامر (تعليمات عليا) ليست قابلة للنقاش والتعديل ، فمضيت أنفذ هذا الأمر على كره منى وعلى كره من الإخوان جميعا ، وسحب الاخوان جميعا من مواقعهم تنفيذا لهذه التعليمات ، وبذلك انحلت القيود التى كانت تكبل مستعمرات النقب ومضت القوافل اليهودية تجوب الصحراء بحرية من جديد ، وتحشد الجنود والمعدات فى المستعمرات القريبة استعدادا للعمليات المقبلة ، وفقد الجيش عيونه المبصرة التى طالما نبهته للخطر قبل وقوعه . ولقد صح ما توقعته وما حذرت منه فلم تمض إلا أيام قلائل حتى هاجم اليهود (تبة الشيخ نوران) واحتلوها ، وأصبح فى مقدورهم مراقبة الجيش المصرى ، وإحصاء حركاته وسكناته ، ولقد حاول الجيش استرداد هذه التبة المنيعة فهاجمها فى ٦ ديسمبر

بقوات كبيرة ولكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح رغم كثرة التضحيات والخسائر التى منى بها . وكان الفضل فى ذلك لمناعة هذه التبة وخصائصها الطبيعية ، وتحكمها فى السهول المنبسطة التى تحيط بها ، وكان هذا الموقع واحدا من المواقع التى ظل الإخوان يدافعون عنها بإصرار طوال عام كامل رغم الهجمات والمحاولات المتعددة التى قام بها العدو . أما بقية المواقع فقد احتلها اليهود بدون قتال كذلك ، فاحتلوا (تل جمة) فى ١٥ ديسمبر و (تل الفارعة) فى ١٨ ديسمبر ، وبذلك فقد الجيش المصرى منطقة تربو مساحتها على سبعمائة كيلو مترا مربعا فقدها دون قتال ، كما فقد المناطق المتقدمة قبلها دون قتال أيضا ، أما الأرض التى احتلها اليهود عقب انسحاب الإخوان منها فقد أقاموا فوقها المستعمرات المحصنة وحشدت فيها القوات اليهودية ، التى هاجمت الجيش المصرى فى ختام الحرب .

أما سحب الإخوان من مواقعهم المنيعة ، والحد من نشاطهم العسكرى فكان صدى للاجراءات التمهيدية الشاذة التى اتخذتها الحكومة السعدية قبل حل جماعة الإخوان فى مصر ، وكانت الحكومة كما أبلغت مؤخراً تخشى أن يقوم الإخوان فى فلسطين بحركات انتقامية ، وهكذا صور لهم الوهم أن هؤلاء الشباب المؤمنين سينقضون على جيشهم ، وقت أن كانوا يقذفون بأنفسهم فى لهب المعارك دفاعا عن جيش بلادهم وكرامة أمتهم .

ولقد مر بك أن اللواء (المواوى بك) طالب بإرسال عدد كبير من شباب الإخوان وإرسالهم فوراً إلى الميدان ، وسافر لهذه الغاية الأستاذ (محمد فرغلى) ، رئيس الإخوان فى فلسطين ، ولقد حدثنى الصاغ (محمود لبيب) وكيل الإخوان ، أن عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة — قد استدعاه فى ذلك التاريخ ورجاه أن يعمل على تجنيد هذا العدد لأن خطورة

لموقف العسكرى تتطلب إرسالهم على وجه السرعة ومضى الصاغ (لبيب) فاتصل بشعب الإخوان فى القطر ، وأمر كل شعبة بتجهيز فرد واحد من أعضائها وإبقائه مستعداً للسفر فى مدة معينة .

ولكن ما إن تناهى النبأ إلى مسامع النقراشى باشا حتى هاج وماج ورفض قبول الفكرة من أساسها ، ولم يستطع الإخوان تعليل ذلك الرفض حتى جاءت الحوادث القريبة بعد ذلك لتعلن الحقيقة المرة ، ذلك أن النقراشى كان مشغولا فى ذلك الحين بتنظيم خطة القضاء على جماعة الإخوان ومحوها من الوجود .

وأعود بالذاكرة قليلا إلى الوراء ، فأذكر الوقت الذى كان فيه المرشد العام عليه رحمة الله ورضوانه يعد قوة ضخمة للدفاع عن القدس ، حيث كان اليهود يشنون هجمات عنيفة على مراكز الجيش الأردنى بها ، مما خشى معه أن يستولى اليهود على المدينة المقدسة ، وأذكر أن حديثاً تليفونيا جرى بينى وبين فضيلته ، وكان يقول لى إنه يجهز قوات كثيفة ليدخل بها فلسطين ، وإنه سيعلن الجهاد الدينى والتعبئة الشعبية ، بعد أن فشلت الحكومات وجامعاتها ، وكان يسوق لى هذه الأنباء مردداً هذه العبارة

« ما فيش فايدة ، الناس دول مش عاوزين يحاربوا » وكان فضيلته يرمى من وراء ذلك إلى إثارة الشعور الدينى فى العالم الإسلامى ، ودفع الشعوب الإسلامية والحكومات الإسلامية لعمل شىء ما .

وكان هذا هو حسن البنا المجاهد الذى قال عنه العقاد عقب اعتقاله ، إنه ينحدر من سلالة يهودية وإن دعوته حركة إسرائيلية هادمة !. على أن الحركة العسكرية التى أرادها المرشد العام لم يقدر لها النجاح ، إذ وقف عناد النقراشى — الزعيم المخلص — حجر عثرة فى سبيلها استجابة لرغبات

الانجليز وتمشياً مع سياستهم التى كان يفزعهم اسم الإخوان وأنباء قتالهم الرائع فى فلسطين .

ولقد سمع ضباط الجيش وجنوده بأنباء هذه الحركات الشعبية التى أرادها المرشد العام وارتاحوا لها ، وعلقوا عليها كثيراً من الآمال الكبار وكان الجميع يعلمون أن مجيئه كفيل ببعث الروح المعنوية التى سحقتها الهزائم ، وشد أزر المحاربين الذين فقدوا الثقة فى قادتهم وزعمائهم ، ولم يكن يدور فى خاطر أحد أن هذا الوقت العصيب ، هو الوقت الذى حدده النقراشى ليركب رأسه ويرتكب فيه أبشع حماقة عرفها تاريخ مصر الحديث

ولم تلبث الأنباء أن جاءت بعد ذلك بقيام المذبحة الهائلة فسيق زعماء الإخوان إلى المنافى والمعتقلات ، وكان من بينهم الاستاذ (محمد فرغلى) الذى ذهب ليستحضر جنوداً للميدان . . ! !

حتى ذلك التاريخ لم يكن الإخوان المحاربون يعلمون شيئاً عن حقيقة ما يجرى فى مصر وعن سر هذه الإجراءات المريبة التى تتبع أزائهم فى الميدان ، ولقد أدهشهم كثيراً اصرار المسئولين العسكريين على جمعهم فى معسكر والحد من نشاطهم ، حتى كانت ليلة ٧ ديسمبر سنة ١٩٤٨ حين جاءنى اللواء (البرديني بك) وكان يشغل منصب (قائد ثان) للقوات المصرية فى فلسطين ، وقد حضر إلى المعسكر فى ساعة متأخرة من الليل يصحبه عدد كبير من ضباط أركان الحرب وجنود البوليس الحربى واقتحم حجرتى الخاصة أحد ضباط البوليس الحربى وقال لى :

إن وكيل القائد العام موجود بالمعسكر ويريد أن يراك لأمر هام ، فارتديت ملابسى على عجل وتبعته إلى الخارج . فادهشتنى السيارات العسكرية التى ملأت ساحة المعسكر ، وأخذت أسائل نفسى عن سر هذه المظاهرة دون جدوى ، وأقدمت عليهم مسلماً ومحيياً ، فانبرى

(البرديني بك) قائلا : إنه يريد التحدث معى على انفراد ، فصحبته إلى حجرة المكتب وجلسنا ومعنا بعض كبار الضباط ، وافتتح الكلام قائلا :

— طبعاً يافلان ، كلنا إخوان وكلنا مسلمون فضلا عن أننا نحارب عدواً مشتركا ولغاية واحدة ، ولا يمكن أن يضرب بعضنا وجوه بعض مهما كانت الدوافع والأسباب ، ثم أخذ يردد هذه المعانى ويصوغها فى جمل مختلفة ، وشاركه ضباطه فى تأكيدها ، وكنت فى حيرة شديدة ولا أفهم معنى لهذا الكلام ، فقلت له : ألا أرحتنى من عناء التفكير وبينت لى الموضوع دون حاجة لهذه المقدمات ، فلست أشك أننا جميعاً إخوان نحارب عدواً مشتركا ولغاية واحدة ، وإلا لما رأيتنى هنا فى هذا الميدان .

قال : اسمع يافلان ! أنت رجل عاقل وحكيم وتستطيع أن تزن الأمور بميزانها الصحيح ، ولقد أبلغنا أن قراراً سيصدر غداً بحل جمعية الإخوان المسلمين بمصر ، والقائد العام — بناء على طلب الحكومة — يريد منك أن تسلمه جميع الأسلحة ومعدات الحرب حتى تهدأ الحال وتستبين آثار هذا القرار ، خشية أن يركب بعض الاخوان رؤوسهم ويقوموا بحركات انتقامية يكون فيها أبلغ الضرر فى هذه المرحلة الخطرة التى يجتازها الجيش .

ونرجوا ألا تمانع فى تسليم الأسلحة والمعدات لأمد محدود رغم أننا نثق فى حكمة الاخوان وإيمانهم ، ونؤمن أيضاً أنهم لن يقدموا على عمل ينجم عنه الضرر مهما كانت الأسباب . !

فقلت له إن مسألة حل جمعية الإخوان مسألة نتوقعها بين يوم وآخر ، ولسنا نعجب لوقوعها مادام الانجليز وصنائعهم يحكمون هذه البلاد ، ثم أننا نؤمن أن هذه الدعوة ليست قابلة (للحل) لأنها دعوة الله ، ودورنا فيها لايتعدى الإخلاص لها والعمل لتحقيقها كل جهد استطاعته ، فإن فعلنا ذلك

فقد أدركنا بغيتنا وأدينا واجبنا ، وحل الإخوان عندنا لن يتعدى نزع اليفط وإغلاق الأبواب ، أما الدعوة فموضعها قلوب الصفوة المؤمنة وهى قلاع منيعة لا يمكن فضها إلا بتحطيمها ، ومعنى هذا أن تنصب الحكومة المشانق فى الطرقات وتراجع سجلات الإخوان المسلمين وتشنق كل صاحب إسم أدرج فيها بلا استثناء ، وحتى هذه الطريقة لن تكون مجدية لأن دعوة الإسلام ستجد حتما من يعمل لها ولو بعد أجيال كثيرة . وليست هذه أول مرة يتعرض فيها دعاة الإسلام للمحن والنوازل ، فصحائف التاريخ مفعمة بأنباء الطغاة والجبابرة ، الذين وقفوا فى وجههم وحاربوهم بكل سلاح ، وكانت النتيجة فى كل مرة أن يمحى الطغاة وتعفو آثارهم ، ثم يخرج الإسلام من محنه مرفوع الهامة ، موفور الكرامة . وهذا كل ماعندى بشأن حل جمعية الإخوان ، أما خشية الحكومة السعدية من قيام حركات انتقامية فى الميدان فتلك خشية لا موضع لها ، فإن إيمان الإخوان ووطنيتهم الصحيحة يمنعانهم من التفكير فى مثل هذه الأعمال ، وإن هؤلاء الشباب الذين باعوا أنفسهم وأهليهم وهجروا الدنيا بمن فيها ، لن يختموا جهادهم بضرب وجوه المؤمنين من إخوانهم وزملائهم . ثم إننا لو فكرنا فى الانتقام من مرتكبي هذا الجرم ومقترفيه ، لما فكرنا فى الجيش مطلقاً ، لأننا نعلم أن الجرم كله يتركز فى قلة تافهة من الحكام والكبراء ، وهم وحدهم سيتحملون التبعة أمام الله وأمام الناس وسيأتى يوم ينزلون فيه من عليائهم ليحاسبوا على كل صغيرة وكبيرة . أما دعوتنا فستظل كما هى كالطود الراسخ لاتزيدها المحن إلا قوة وصلابة ، وعلى هذا فتسليم الأسلحة والمعدات يعتبر أمراً لا لزوم له ، ومن واجب القائد العام ألا يفكر فيه إطلاقا ، وعليه أن يبلغ المسئولين رأيه الصريح ، وأن يتحمل التبعة وهو رجل شجاع جرىء لاتهمه المسئوليات والتبعات ، وأرجو أن يعلم أيضاً أن هذه

الأسلحة ليست ملكا للحكومة ولا للجيش . ولكنها ملك لأفراد هذا العسكر الذين اشتروها بمالهم الخاص ، ومنهم من باع ملابسه وحلى زوجته لشرائها ، ولن يستطيع إنسان — كائن من كان — أن يقنعه بتسليمها والوقوف بدونها .

كنت أقول هذا الكلام وقد بلغ منى الغضب منتهاه وأخذ الرجل يحاول اقناعى دون جدوى ، وأخيراً اتفقنا على كتمان هذا الأمر ، حتى أقابل القائد العام فى الصباح بمركز رئاسته فى رفح ، ومضى (البرديني بك) وصحبه وبقيت وحدى فترة من الزمن ثم غادرت المكتب ، وقد عولت على كتمان هذا الأمر حتى يمكن معالجته بحكمة ولباقة ، وهناك على باب الحجرة وجدت جمعاً كثيراً من الإخوان ينتظرنى ، وقد دهشوا لهذه المظاهرة العسكرية التى اقتحمت المعسكر بسياراتها وبوليسها ، وكان كل واحد منهم يبدى سبباً من الأسباب ، ويتكهن بالأحداث الجسام ، التى لا بد أن تكون قد وقعت أو على وشك الوقوع ، ودلفت إلى الغرفة بعد أن طمأنتهم بكلمات مختلفة ، وبينت لهم أسباباً وهمية عن معارك وشيكة الوقوع ، وأن هؤلاء الضباط قد جاءوا ليبينوا لى دور الإخوان فيها ، فانصرف الإخوان كل إلى موضعه ولم يبق إلا عدد قليل دخلوا معى إلى الحجرة ، وأذكر أننى قمت لأصلى العشاء ووجدت نفسى بلا إرادة أقرأ سورة « البروج » ! فلما وصلت إلى قول الله تعالى « وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .. الخ الآية » .. لم أتمالك نفسى فبكيت .

وكأن الإخوان المحيطين بى قد فهموا كل شىء ، فما كدت أنتهى من الصلاة حتى كانوا جميعاً يبكون ، وبادرنى أحدهم وهو الأخ «سيد عيد يوسف» بقوله : هل حلت الإخوان فى مصر ؟ قلت له نعم وطلبت منهم أن يكتموا

هذا الأمر حتى نتبين عواقبه وخرج الإخوان وبقيت وحدى فى غرفتى ولم يغمض لى جفن طوال الليلة ، وكان مفروضا أن أذهب فى الصباح الباكر لمقابلة القائد العام ، حيث نبت فى أمر الإخوان عقب هذه الحوادث. صليت الصبح ثم ركبت سيارتى من المعسكر وتوجهت إلى قرية رفح حيث القيادة العامة ، وكنت أفكر طول الطريق فى ما عسى أن يحدث ، لو أصر (فؤاد صادق) على رأيه فى تجريد الإخوان من سلاحهم وكنت أعلم سلفاً أن الإخوان لن يقبلوا تنفيذ هذا الأمر بسهولة ، ولن يلقوا أسلحتهم بهذه الصورة المزريه ، وظللت أقلب الأمر على وجوهه كلها فلم أجد إلا وسيلة واحدة تريحنا من هذا العناء ، هى أن يقتنع القائد العام بما أقوله ويدع الأمور تمضى فى مجراها الطبيعى ، حتى دخلت رفح ، وكان الضباط يقبلون على مرحبين ، وكانوا جميعاً ناقمين على هذه الأوضاع ، ولم يخف أحد منهم استنكاره لهذا الإجراء الظالم الذى استهدفت له أكبر هيئة شعبية فى مصر ، على أنهم كانوا مجمعين على أن جماعة الإخوان لم تحل ، ولكن الأحزاب الحاكمة هى التى حلت نفسها بنفسها حين أقدمت على هذه الخطوة الطائشة. ثم التقيت بكبار المسؤلين فى الرئاسة ، وقال لى القائمقام « إبراهيم بك سيف الدين » — وكان أركان حرب القائد العام وساعده الأيمن ومن خيرة الضباط الذين عرفناهم فى الميدان — قال لى : إن الباشا قد فكر كثيراً فى الأمر وتحدث مع المسؤلين فى القاهرة ، وأغلب الظن أنهم قد تركوا له معالجة الأمر بالصورة التى يراها . وبعد لحظات دعيت لمقابلة القائد العام ، فقابلنى الرجل بوجه باسم ورحب بى ، ثم عرج على حوادث القاهرة فقال إنه يرجو أن لا يتأثر الإخوان بما يجرى هناك ، وأن يركزوا جهدهم فى المهمة العظمى التى يقومون بها فى سبيل الله والوطن واستطرد يقول : — إنه قد فكر كثيراً فى الأمر فاستقر رأيه على معالجته بالحكمة

والحسنى ، وإنه سيترك للاخوان الخيرة في أمرهم ، وعليهم اختيار الأوضاع التي يرتاحون إليها فإن رأوا — كلهم أو بعضهم — مغادرة الميدان والذهاب إلى بلادهم ليشاركوا إخوانهم في محنتهم فسوف يسهل لهم أمر العودة ، وإن رأوا أن يستمروا مع زملائهم حتى تستقر الحالة العسكرية على وضع من الأوضاع فسيظلون في أماكنهم دون أدنى تغيير في أوضاعهم ونظمهم ، على أنه يرجو أن يتدبر الإخوان الأمر وأن يعلموا أن الجيش في حالة ماسة إلى جهودهم ، ولا يليق بهم التخلي عنه وهو على هذه الحالة ، ثم طلب إلى أن أجمعهم في موعد معين حتى يذهب إليهم ويتحدث معهم كعادته فوعدته خيرا ، وخرجت وقد زال من صدري هماً ثقيلاً ، واختفى من أمام ناظري شبح أزمة مخيفة كنت أحسب لها ألف حساب .

ولما عدت إلى المعسكر وجدت أنباء القرار المشئوم قد سبقتني إليه عن طريق الصحف وأجهزة الراديو ، ورأيت الإخوان يتجمعون في حلقات كثيرة ويتناقشون في أمر هذا القرار ، وقد علت وجوههم علامات الغيظ والحنق ، فطلبت منهم الانصراف إلى أعمالهم ، ثم عقدت اجتماعاً عاماً حضره قواد السرايا وضباط الفصائل ، وشرحت لهم ما دار بيني وبين قيادة الجيش ، وطلبت منهم بحث الموقف واتخاذ قرارات بشأنه . فتداولوا الرأي بينهم ثم قرروا مفاتحة الإخوان في الأمر وعقد اجتماع عام حتى يمكن معرفة رأيهم جميعاً ، واتخاذ قرار موحد على أساس من الرغبة والاختيار .

جمعنا الإخوان في مسجد المعسكر ، وتحدثت إليهم طويلا في هذا القرار الأحمق ، وبينت لهم حقيقة ما دار بشأن تسليم الأسلحة والمعدات وما تم التفاهم عليه ، ثم خيرتهم بين الاستمرار في القتال أو الانسحاب إلى مصر ،

وطلبت منهم الإدلاء بآرائهم الصريحة دون ضغط أو إكراه ، ثم أعقبني الأخ المجاهد « حسن دوح » من قواد المعسكر فحدثهم عن المحن كمرحلة ضرورية في الدعوات وأنهى كلمته بمطالبتهم باتخاذ قرار موحد نلتزمه جميعاً ونتعاون على تنفيذه .

واستأذن أخ آخر في الكلام وقال إن عنده وصفاً لهذه المحنة من كلام المرشد العام نفسه ! وأخذ يقرأ كلمات من رسالة كتبها الامام الكريم قبل ذلك التاريخ بسنوات وتنبأ فيها بمحن قاسية تعترض الإخوان ، يعتقلون وينقلون ويشردون ، وتصادر حريتهم وأرزاقهم ، وتلصق بهم التهم الباطلة ظلماً وعدواناً ، ويتعاون عليهم أعداء الإسلام من مستعمرين وحزبيين ، ولكن الله وعدهم بعد ذلك كله مثوبة العاملين ونصرة المجاهدين . وذكر الأخ المتكلم أن الأستاذ الإمام كان يتعجل المحنة ويتعجب من تأخرها ، ويعتبر وقوعها علامة النصر وبداية الطريق إلى الفوز المبين .

وبعد أن انتهى المتكلمون طلبت إلى الإخوان الأدلاء بآرائهم فوجدت إجماعاً تاماً على ضرورة البقاء ، ومواصلة القتال حتى ينتهي الجيش من مهمته وتعود فلسطين كما كانت دائما أرض عربية مسلمة . وفي اليوم التالي حضر اللواء (فؤاد صادق باشا) يرافقه جمع كبير من ضباطه وأبدى رغبته في الجلوس إلى الإخوان والتحدث إليهم بنفسه ، فلم يمض إلا دقائق حتى كانوا جميعاً في مسجد المعسكر ، ولما دخل عليهم حيوه بهتافات الاخوان المعروفة ، ثم قام الأخ (حسن دوح) فتحدث نيابة عن الإخوان وبين للقائد إجماع الإخوان على البقاء ومواصلة الجهاد حتى تنتهي الحرب دون أن يتعرض الجيش مطلقاً لنظم قيادتهم وتشكيلاتهم ، وتحدث (فؤاد صادق باشا) إلى الإخوان وشكرهم على هذه الروح المتسامحة الطيبة وأبدى استعداده

لإجابة مطالبهم كلها . وهكذا انحصر تفكير الإخوان فى الجهاد عن فلسطين ووضع مصلحة الجيش والأمة فوق كل اعتبار . فهل كان هذا الموقف يتنافى مع رأى قيادة الإخوان فى مصر ؟ المفروض أن قيادة الإرهاب العليا لن تحارب فى فلسطين ومصر معاً وتوزع قواتها بين جهتين ! والوضع الطبيعى أن تبادر القيادة العليا المذكورة فتسحب قواتها من فلسطين لتواجه بهم هجمات البوليس المصرى ، وتنفذ مؤامراتها الكبرى لقلب نظام الحكم فى الدولة ، وتحقيق المسرحية المثيرة التى ألفها (عمار) وأخرجها (النقراشى) وخليفته ، كان هذا هو المفروض فى مثل هذا الموقف ، ولكن يظهر أن قيادة الإرهاب لم تكن لها حكمة (عمار) ولا ذكاء (إبراهيم عبد الهادى) فكان أن أرسل المرشد العام خطاباً مع أحد الإخوان يقول فيه . (إنه لا شأن للمتطوعين بالحوادث التى تجرى فى مصر ، وما دام فى فلسطين يهودى واحد يقاتل فإن مهمتهم لم تنته .) ثم يختم الرسالة بوصية طويلة للاخوان بالتزام الهدوء وحفظ العلاقات الطيبة مع إخوانهم وزملائهم من ضباط الجيش وجنوده .

والواقع أن خطة المرشد العام كانت تقضى بعدم المقاومة حتى لا يستفيد الإنجليز من الفتنة ، إذ كان يدرك أن خيوط هذه المؤامرات كانت فى يدهم ، فهم الذين احتضنوا الصهيونية منذ كانت فكرة وحلما ، حتى أصبحت دولة وجيشا . ورأى الإنجليز أن مصر كلها تقف صفا واحداً لمواجهة الخطر اليهودى ، وأن هيئاتها المختلفة لم تتفق . على أمر بقدر ما اتفقت على محاربة اليهود ومكافحة شرهم ، رأى الإنجليز ذلك ، ورأوا أن هيئة الإخوان هى التى تتزعم الحرب ضد اليهود فى البلدان العربية وفى فلسطين وخشوا أن يتناول الإخوان لواء الجهاد ، وبذلك تتحول الحرب إلى معركة شعبية

لا سيطرة فيها لقرارات الأمم المتحدة ، ولا لمجلس أمنها المنكود . والإنجليز يريدون أن تستمر هذه الحرب حكومية رسمية حتى يأمروها فتقف ، أو يدعوها فتسير ، ولقد قوى من خوفهم ما أذاعه المرشد العام عن عزمه على إعلان التعبئة الشعبية والجهاد الدينى وهو ما ذكرته فى موضع سابق ، كل هذه الأسباب وغيرها جعلت بريطانيا وزميلتها الإستعماريتين فرنسا وأمريكا ، تضغط على النقراشى وتأمره بحل الإخوان المسلمين والتضييق عليهم ، فإن قاوم الإخوان وتحولت الفتنة إلى حرب أهلية فهى الفرصة الذهبية لبريطانيا ، وإن سكت الإخوان واحتسبوا فقد نجحت فى تحطيم الوحدة الشعبية وتوجيه قوى الأمة والحكومة وجهة مضادة .

ولقد حدثنى أحد الإخوان العائدين إلى الميدان أن نفراً من شباب الدعوة توجهوا للامام الشهيد عند طغيان موجة الاعتقالات وسألوه عن رأيه فى هذه الحركة ، واستأذنوه فى المقاومة حسب الطاقة ، ولكن الرجل المؤمن حذرهم من هذا ، وبين لهم أن الإنجليز هم السبب ، وأنهم هم الذين أوحوا إلى النقراشى بحل الإخوان ، والتضييق عليهم على أمل أن يقاوموا ، فيغتنم الإنجليز الفرصة للتدخل المباشر فى شئون البلاد ، ثم وضح لهم الدور فى القصة المشهورة التى تروى عن سليمان الحكيم عليه السلام ، حين اختصمت إليه امرأتان على طفل وليد ، وادعت كل واحدة منهما بنوته ، فحكم بشطره نصفين بينهما ، فوافقت المرأة التى لم تلد الطفل على قسمته ، بينما عز ذلك على الأم الحقيقية ، وآلمها قتل فلذة كبدها فتنازلت عن نصيبها فيه ، نظير أن يظل متمتعاً بحياته ، وقال لهم الإمام الشهيد : — « إننا نمثل نفس الدور مع هؤلاء الحكام ، ونحن أحرص منهم على مستقبل هذا الوطن وحرمته ، فتحملوا المحنة ومصائبها ، واسلموا أكتافكم للسعديين

ليقتلوا ويشردوا كيف شاءوا ، حرصاً على مستقبل وطنكم وإبقاءً على وحدته واستقلاله » .

وصدع الإخوان بالأمر ، وتحملوا مصائب المحنة بصبر وجلد ، ومضى السعديون فى خطتهم الطائشة يقتلون ويشردون ، ولا ينام زعيمهم مطمئنا إلا إذا ارتاحت نفسه لعدد المشردين والمعذبين ، وكلما زاد العدد كلما كان ذلك أدعى لراحته وسعادته ، حتى كفنت مصر كلها فى سحابة كثيفة داكنة من الظلم والظلمات ، وبات أى فرد فى مصر تحت رحمة البوليس السياسى إن شاء عذب وإن شاء غفر ، وشهد الناس ألواناً جديدة من الطغيان ، لم يعرفوها قبل هذا العهد الأسود ، فمساجد الله تهاجم وتراقب ، ويوضع روادها فى قائمة المشبوهين ، وكتب الله والسنن تعتبر نشرات ممنوعة لايجوز تداولها ، ومبادىء الإسلام الكريمة تضم إلى غيرها من المبادىء الهدامة التى يحاربها القانون . . . . . قانون الدولة التى يزعمون أن دينها الرسمى هو الإسلام ! ! !

وكان طبيعياً أن تبرر الحكومة موقفها وتخلق سبباً أو أسباباً لهذه المذبحة المريعة ، فأخذت أبواقها تشيع فى الجمهور أنباء مختلقة عن مؤامرات تدبر فى الخفاء لقلب نظام الحكم ، وطفحت الصحف الحكومية المغرضة ، بتفاصيل هذه المؤامرات الوهمية ، وتعدتها إلى الكلام عن الجمهورية الإسلامية ، ودستور القرآن الذى يريد الإخوان تطبيقه ، وصور الخيال أركان النظام الجديد ، حتى ذكرت إحداها أسماء بعض وزراء الحكومة الاسلامية الجديدة ! ! . . .

ولم يكن الإخوان يستطيعون الدفاع عن أنفسهم فى ذلك الجو الخانق الأغبر ، فالحكومة تقبض بيد من حديد على وسائل الإذاعة والنشر ،

وتملى عليها ما تكتبه وما تذيعه ، وخزائن الدولة مفتحة الأبواب ، أمام أصحاب الأقلام المأجورة والذمم الخربة ، ليغترفوا منها ويدبجوا المقالات ، ويكتبون ما يمليه عليهم الهوى والغرض ، ويساهمون مساهمة فعالة فى تضليل الشعب واستعداء الحكومة ، التى لم تكن فى حاجة إلى استعداء ، وهى تعلم جيداً معالم الطريق الوعر الذى اختطه لها أسيادها المستعمرون واندفعت فيه دون روية أو تفكير .

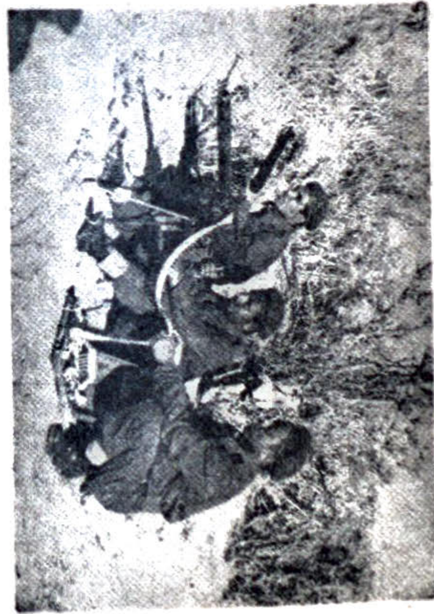
والشعب المسكين يقف مذهولا من هذه الحركات ، ولا يكاد يفقه معناها فهو يستقى معلوماته من الصحف المغرضة ، والأقلام المأجورة ، ويطالع كل يوم أنباء العثور على أسلحة ومفرقعات ، هى فى الواقع من مخلفات الكميات الهائلة التى بعث بها الإخوان إلى فلسطين ، ولكن أبت الروح الحزبية الخبيثة إلا أن تجعل منها أسلحة لجيش سرى خطر . !

فى هذا الجو المسموم كانت تعيش مصر ، وتلك كانت حالتها الداخلية عقب هذا القرار الأحمق ، فأى توافق عجيب بين هذه الحركات الداخلية ، وبين توتر الحركة العسكرية فى الميدان ؟ !

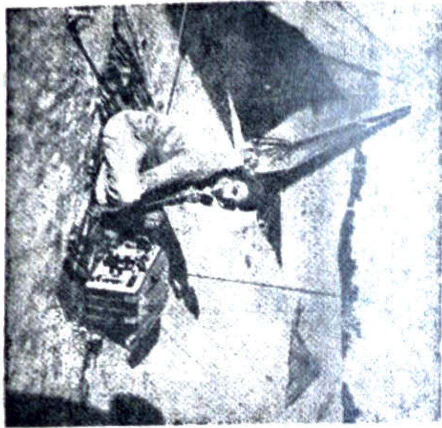
كان الإخوان يهتمون بالتدريب وها هم يتدربون على أنواع مختلفة من الأسلحة



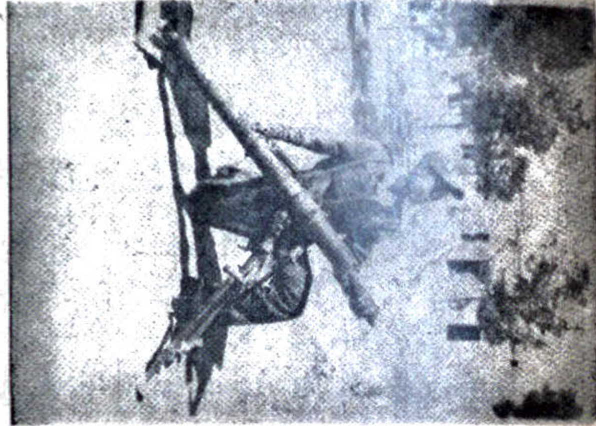
في التدريب على مدفع مضاد للدبابات



على الرشاشات الثقيلة من طراز (برونج)



على الأجهزة اللاسلكية



على مدافع الهاون عيار ٣ بوصة



على البنادق الرشاشة طراز « ستن جن »

١٦ - الإخوان بعد قرار الحل

(معركة التبة ٨٦)

« أيها الإخوان ، لايهمكم ما يجرى فى مصر ، فإن مهمتكم هى مقاتلة اليهود ، وما دام فى فلسطين يهودى واحدفإن مهمتكم لم تنته » . « حسن البنا »

لم يؤثر قرار الحل فى سياسة الإخوان فى فلسطين ، وظلوا يؤدون واجبهم المقدس فى مجاهدة أعداء الله والإسلام ، رغم ماكانت تصلهم من أنباء مثيرة عن الإرهاب الحكومى فى أرض الوطن . وما كاد شهر ديسمبر ينتصف ، وتصل الحالة الداخلية فى مصر إلى أسوأ مراحلها ، حتى استغل اليهود الفرصة ، وقاموا بأعنف هجمات شهدتها حرب فلسطين ، وكان الإخوان فى ذلك الحين يعاد تدريبهم فى المعسكر ، بعد أن قضوا أكثر من عام فى معارك متواصلة ، ومما يجدر الإشارة إليه ، أن اللواء (فؤاد صادق) كان قد افتتح بعض المدارس العسكرية فى رفح للتدريب على الأسلحة الصغيرة وفنون القتال ، وطلب انتساب نفر من الإخوان إليها ليعاد تدريبهم فبعثنا عدد كبيراً من الإخوان ووزعناهم على الفرق المختلفة ، ولقد كان إقبالهم على الدرس والتدريب ، ورغبتهم الشديدة فى تعلم أساليب الحرب الحديثة مثار اعجاب الضباط الذين زاملوهم فى الدرس أو اتصلوا بهم ، ولما انتهت فترة التدريب اقترح القائد العام أن يظل الإخوان فى معسكراتهم ليكونوا (قوة ضاربة) تكون مستعدة دائما للدخول فى أية معركة .

ولم يطل الانتظار طويلا ! إذ نقض اليهود الهدنة فى ٢٣ ديسمبر

وهاجموا مرتفعا حاكما جنوبى دير البلح يعرف باسم التبة ٨٦ . وكان نجاحهم فى إحتلال هذا الموقع يعنى عزل (حامية) غزة وتمثيـل مأساة الفالوجا مرة أخرى .

ولقد رأينا كيف اضطر الجيش إلى إخلاء مناطق برمتها عند ما احتل اليهود موقعاً مشابها عند (بيت حانون) ، وكان هذا ما يرمى إليه اليهود من معارك (الطرق) ، التى اتسمت بها حربهم فى فلسطين ، من قطع مواصلات الجيش وإرغامه على التقهقر ، ثم طلب الهدنة لتمكنهم من المحافظة على ماوقع فى أيديهم ، وكان هذا ما أرادوه من احتلال مرتفع (دير البلح) الذى نتحدث عنه .

ولقد تحدث إلى الأميرالاى (محمود بك رأفت) قائد قطاع (دير البلح) بالتليفون فى ساعة متأخرة من ليلة ٢٣ ديسمبر ، وأخبرنى أن العدو قد نجح فى اختراق خطوطنا الأمامية فى دير البلح وانتزع المرتفع من أيدى جنودنا الذين أذهلتهم (المفاجأة) . وقواته تتجمع الآن وتحاول الوصول إلى طريق المواصلات الرئيسى ، ولـكن قوات الجيش تحاول حصره فوق المرتفع حتى الصباح ، حيث يمكننا أن نقوم بهجمات مضادة لاسترداده وتطهيره ، ثم صارحنى بأن الموقف جد خطير ، وإن هذه المعركة سوف يكون لها أثر بالغ فى النتيجة العامة للحرب ، وختم حديثه طالبا أن يستعد الإخوان ليكونوا آخر (ورقة) نقذف بها فى وجه اليهود . فألقيت سماعة التليفون وخرجت من المكتب وكانت أصوات الانفجارات العنيفة تسمع عن بعد فى جبهة القتال ، وطلقات الرصاص المضىء تمزق حجب الليل المظلم وترسم على صفحة السماء خطوطا حمراء متشابكة ، فأمرت بصفارة الإنذار فأطلقت ولم تمر دقائق على إطلاقها حتى كان حراس المعسكر قد

أخذوا مواضعهم الدفاعية ، وتجمعت القوات الاحتياطية فى أرض التدريب وكل فصيلة أمامها قائدها ومعها أسلحتها ومعداتها ، وتحركت مصفحات المعسكر وسياراته المدرعة وانتظمت فى تشكيلات الاستعداد ، وأخذ قوادها يمدونها بحاجتها من البترول والماء ، ثم دعوت الإخوان المسؤلين وشرحت لهم الموقف فى إيجاز وطلبت تجهيز سرية للاشتراك فى هذه المعركة ، وكانت المشكلة أمامى وأمام الإخوان المسؤولين إقناع بعض الأفراد بالبقاء ، فكل فصيلة تريد أن يكون لها شرف العمل دون غيرها ، فلما وقع الاختيار على الفصائل الثلاث هلل أفرادها وكبروا وأخذوا يهتفون من أعماق قلوبهم : « هبى ريح الجنة هبى ! » ومضوا يعدون أسلحتهم ، ويستعدون لمنازلة العدو ، وبعد ساعة تحركت السيارات بمن فيها لترابط قريبا من أرض المعركة .

كانت نسمات الفجر تحمل إلى أنوف المحاربين رائحة البارود المحترق مختلطة بأنفاس الشهداء الأبرار ، وكانت أشعة الفجر الأولى تتسلل إلى الميدان فتكشف معالمه شيئاً فشيئا ، والغيوم تتكاثف وتلقى حمولتها من الماء فوق رؤوس المحاربين ، وكان اليهود حتى ذلك الحين لا يزالون فوق المرتفع الذى احتلوه ، ولا تزال مدافعهم تسيطر على مساحات شاسعة من الأرض المنبسطة حوله .

ولم تـكد الشمس ترسل أول أشعتها ، حتى صدرت الأوامر لجنود الجيش بالتقدم ، فانسابوا فى أفواج متلاحقة ، تريد أن تصل إلى القمة ، وتطرد العدو الرابض فيها ، ولـكن ارتفاع الموقع ، وسيطرة أسلحة اليهود على الأرض المحيطة به ، كانا يمنعان الجنود من الاقتراب ، وظلت الحـالة هكذا موجات أثر موجات وجرحى كثيرون ، وشهداء يسقطون دون

الهدف، وكيف يمكن للحوم آدمية أن تقاوم القنابل والرصاص . والعدو الماكر يربض خلف خنادقه التى أعدها بعناية ويصوب نيرانه منها على لحوم بشرية متراصة ، وبدا جلياً للعيان أن لا أمل مطلقاً فى كسب المعركة ، إلا فى حضور عدد من الدبابات فأرسلوا فى طلبها على عجل ، وجاءت الدبابات ، ودفعت إلى المعركة واحدة تلو الأخرى ، فتعطلت منها اثنتان على سفحل التل ولم يستطع أحد الاقتراب من مواقع الأعداء .

كانت الساعة قد تجاوزت الثانية بعد الظهر ، والريح لا تزال تقوى بشدة ، وتسوق أمامها قطعاناً من السحب الكثيفة ، وعواصف المطر الباردة ، ووقف الضباط يتطلعون إلى السماء يلتمسون العون من الله العلى الكبير ، بعد أن جربت كل الأسلحة . ووضح جلياً أن هذه المعركة قد (ماعت) ، وضعف الأمل فى حسمها قبل الليل .

وكان لا بد من إلقاء الورقة الأخيرة ، فطلب الأميرالاى (محمود بك رأفت) إحضار الإخوان على عجل ، وما إن سمع الجنود والضباط اسم الإخوان حتى سرت فى نفوسهم روح جديدة من الأمل والثقة . وطلبت من القائمقام (على مقلد) قائد الفرسان ، أن يوفر دباباته ليدفع بها أمام جنود الإخوان ، وبعد لحظات وصلت جنودنا إلى ميدان المعركة ، وترجلوا عند مكان أمين لتنظيمهم وإعدادهم وكانت الخطة تقضى بتقسيم الإخوان إلى ثلاث مجموعات، تهاجم اثنتان منها الموقع من الأمام ومن جهة الشمال ، بينما تدور القوة الثالثة حول المرتفع وتهاجم مؤخرته ، وتمنع تدفق الإمدادات عليه ، وتجذب اهتمام المدافعين إليها وتشغلهم عن القوتين الأخريين ، وكان المفروض أن تتقدم الدبابات متجمعة أمام قوة الإخوان تحت ستار من نيران المدفعية والأسلحة الرشاشة ، وتحت غلالة من قنابل

الدخان التى كانت تطلقها مدافع الهاون التابعة للاخوان المسلمين ، وبدأت المعركة على هذا الأساس ، وانطلق الإخوان إلى أهدافهم وقد علت وجوههم إشراقة الإيمان القوى وكانوا ينشدون بحماس نشيدهم المعروف :

هو الحق يحشد أجناده ويعتد للموقف الفاصل
فصفوا الكتائب آساده ودكوا به دولة الباطل

وأمسك الضباط والجنود أنفاسهم ، وهم ينظرون إلى هذا الشباب المؤمن يتواثب فى ثبات وقوة ، ولا يثنيه الرصاص والقنابل عن التقدم علاقات أعدائه . لقد آمن الضباط والجنود أن هناك نتيجتين لا ثالث لهما: إما ينتصر هؤلاء الشباب أو يموتوا جميعاً ، لأن الإنسحاب والتراجع لا يدخل فى برنامجهم إطلاقاً ، وخاصة فى مثل هذا الموقف الحرج الخطير ، وظلت مدافع الإخوان تقذف الموقع بقنابل الدخان فترة طويلة ، حتى أحالت القمة إلى سحابة قاتمة ، لا ترى خلالها غير ألسنة من اللهب الناتج عن انفجارات القنابل، وسكتت المدافع ، وانساب المجاهدون إلى أهدافهم ، وبدأت معركة الخنادق ، وروع اليهود حين رأوا الإخوان يلقون بأنفسهم فوقهم فى الخنادق ، والدشم ، ويعاركونهم بالقنابل والحراب والأيدى ، ورغم كثرة الضحايا من الإخوان ، فإن القوة قد تمكنت من إحتلال أطراف خنادق العدو ، وأخذت تطهرها جزءاً جزءاً ، ولم يجد اليهود بدا من إخلاء الموقع ، فصمتت مدفعيتهم وأسلحتهم ، وشوهدت مصفحاتهم تتحرك للخلف ، حاملة الجرحى والهلكى ، وكان هذا المنظر حافزاً للجنود الآخرين ملهباً لحماسهم ، فأخذوا يتكاثرون على الموقع ويتمون تطهيره ، حتى جاءت أخيراً الحمالات (قاذفات اللهب) تطارد فلول العدو المنهزمة ، وانتهت المعركة بنصر حاسم وكانت إحدى المعارك الكبرى التى تكبد فيها

العدو خسائر فادحة دون أن يحصل على نتيجة تذكر. ووجد ضمن القتلى عدد من كبار الضباط الإسرائيليين وبينهم قائد المعركة وهو « كولونيل » روسى يحتل مركزاً هاماً فى الجيش الإسرائيلى ، ووجدت فى جيبه تفاصيل الخطة التى اتبعت فى دير البلح ، والخطط المقبلة التى كان يراد منها إلقاء الجيش المصرى فى أعماق البحر .

كانت الشمس قد مالت للمغيب حين انتهت المعركة ، وأخذ الجنود يحتلون الموقع بعد فرار اليهود منه ، أما جنود الإخوان فقد انسحبوا فى سكون وهدوء ، بعد أن أخذوا معهم كميات وفيرة من الأسلحة الألمانية والروسية ، وأكداساً من القنابل والذخائر. وكان كبار الضباط يعانقونهم عند خروجهم ، ويهنئونهم بهذا النصر الحاسم ويشيدون بجهودهم وفضلهم.

ولقد سقط من الإخوان فى هذه المعركة وحدها عدد كبير من الجرحى والشهداء ، وكان أول الشهداء قائد الفصيلة المرحوم (السيد محمد منصور) من إخوان الشرقية . ومما يروى عن هـذا الشهيد المبرور أنه حين أصيب بالضربة القاتلة ، التف حوله نفر من إخوانه وشغلوا به عن الهجوم ، فنهرهم بشدة ، وحينما حملوه إلى الخطوط الخلفية ، أفاق من غيبوبته وسألهم عن سير المعركة فأجابوه بما طمأن نفسه ، فابتسم وتمتم ، الحمد لله . . . . ولم يقف لسانه عن الدعاء لحظة : اللهم انصر دعوتنا ، وحقق غايتنا ، حتى لفظ آخر أنفاسه الطاهرة ، ومضى إلى جنة ربه الواسعة ، ليحمل البشرى سكانها ، إن شجرة الإسلام الخالدة قد بدأت تورق من جديد) .

أما الشهيد (حسن العزازى) من إخوان العريش ، فقد أصيب بجرح فى كتفه وكان فى وسعه أن يعود ولكنه ظل يكافح بصعوبة ، حتى احتمى بنتوء بارز فى مواجهة العدو وأخذ يلهب خنادقه برصاص مدفعه الرشاش



الشهيد « حسن العزازى » من شهداء دير البلح

حتى أسقط منهم عدداً كبيراً مما اضطرهم إلى تركيز نيرانهم عليه ، فأصابته عدة طلقات فى مواضع مختلفة من جسمه ، فسكت مدفعه وصعدت روحه الطاهرة بعد أن ثأر لنفسه ومتع نظره برؤية الدم الصهيونى المراق . .

وقد كان عدد الجرحى كبيراً ، ومنهم من مات متأثراً بجراحه بعد وصوله للمستشفى ، ومنهم من عاد فى « إرساليات » مرضية إلى مصر ، ثم كمل علاجه فى معتقلات الطور وهاكستب ! ! ولا تظنني أمزح أيها القارىء الكريم ، فإننى لا أسجل إلا الحق والصدق ، فإن اثنين من جرحى هذه المعركة ، وهما الإخوان المجاهدان « عويس عبد الوهاب »

و « سيد عيد يوسف » قد نقلا بعد المعركة إلى مستشفيات مصر لمعالجة جراحهما الخطيرة ، ولكن البوليس السياسى أشار بنقلهما إلى الطور ، — ولعله خشى انضمامهما إلى الجيش الإرهابى السرى — فنزعا من المستشفيات وجراحهم لا تزال تنزف دماً ، وألقيا فى أحد العنابر الرطبة دون غذاء أو علاج . ولا يزال أحدهما يعانى ألماً مراً من رصاصة مستقرة فى بدنه ..!!

انتهت معركة « دير البلح » على الصورة التى ذكرنا ، وكان دور الإخوان فيها مفخرة كبرى من مفاخر هذه الدعوة ، وأثرها فى تكوين المحارب الناجح . وبجانب الكسب الأدبى فقد غنم الإخوان أعداداً كبيرة من الأسلحة الرشاشة التى كانوا فى أمس الحاجة إليها . ولقد كلفهم هذا الانتصار غاليا فسقط منهم فى المعركة عدد كبير من الجرحى والشهداء وكان يزيد فى عظم الخسارة استحالة تعويضهم من مصر ، وقت أن كانت المذبحة قائمة على قدم وساق . غير أن هذه الخسارة وما لابسها من ظروف ومحن لم تزعزع من إيمان الإخوان وثباتهم .

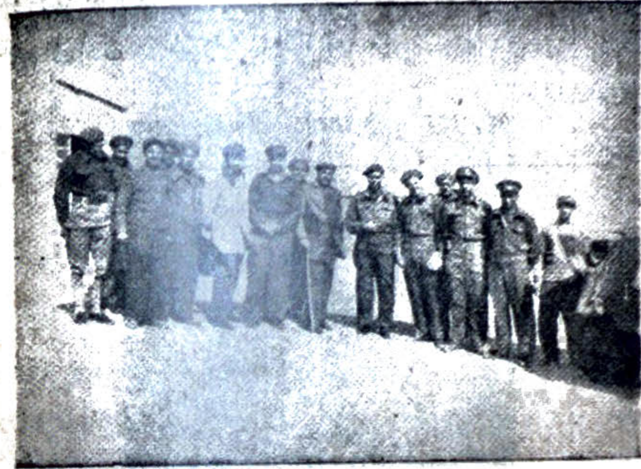
ولقد خشيت أن تكون كثرة الخسائر قد نالت من روحهم القوية ، فقمت فى الصباح الباكر بجولة بين حجراتهم فما وجدت للحزن أثراً ، وما وجدت إلا استبشارا وغبطة للنتيجة التى أرادها الله ، وكانوا يتناقلون فيما بينهم قصص البطولة التى سجلها شهداؤهم على أرض المعركة ، ويمنى كل واحد منهم نفسه بنتيجة مماثلة ، ويرجو أن يكون حظه من جهاده طلقة تودى به إلى رحاب الجنة ، فالشهادة فى نظرهم ليست موتا ونهاية ، ولكنها بداية لحياة هنيئة طيبة فى جوار الله . فلم لا يتعجلونها وقد رأوا أماراتها بأعينهم فى ابتسامات الشهداء ، وسمعوا بشرياتها بآذانهم فى آخر كلمات نطق بها

المحظوظون السعداء ، وهم يستروحون أولى نسمات الجنة ، ويضعون أقدامهم على أولى درجات الحياة الباقية .



الشهيد (عبد الحميد بسيونى خطاب) من شهداء دير البلح

ولقد زارنى فى ذلك الصباح مندوب من قبل القائد العام ، وأخبرنى أن اللواء (فؤاد صادق) ، يرغب فى مطالبة الحكومة بالإنعام بأوسمة عسكرية رفيعة على الإخوان ، إشادة بفضلهم واعترافا بجهادهم فى هذه المعركة وغيرها ، وهو يريد منى كتابة كشف بأسماء « الإخوان » الذين اشتركوا فى معركة الأمس ، فمانعت أولا فى تقديم كشف لهذا السبب ، وقلت إن الإخوان لا يعملون بغية أوسمة وشارات ، ولكنهم طلاب ثواب ومغفرة ، وليس لهم مطمع من جهادهم ، غير الاحتفاظ بكرامة أمتهم وجيشهم والإبقاء على عروبة فلسطين كجزء من وطنهم الإسلامى الكبير ، فإن حققوا ذلك فقد وصلوا إلى أقصى ما يريدون من نتائج . ولكنه ألح إلحاحا شديدا وحاول إقناعى بأن الإنعام على الإخوان لا يعد انتقاصاً لبلائهم



بعد معركة التبة ٨٦ زار الأميرالاى محمود بك رأفت معسكرات الإخوان لتحيتهم وهاهو يقف بين مجموعة من جنودهم

وثوابهم ، بل هو اعتراف من الدولة بشجاعتهم وصدق جهادهم ، ثم هو فوق ذلك اعتراف بفضل الدعوة التى صنعتهم .

وأمام هذا الإلحاح لم أجد بدا من إجابة مطلبه ، فأعطيته الكشف المطلوب . ولقد أخبرنى بعض ضباط الرئاسة ، أن اللواء « فؤاد صادق » تقدم للحكومة السعدية طالباً منح نياشين رفيعة للاخوان ، غير أن الحكومة اعتبرت تنفيذ هذا المطلب اعترافا منها بجهاد الإخوان ، وحسن بلائهم ، فكيف توفق بين ذلك الإعتراف ، وبين خطتها فى القضاء على جماعة الإخوان ، وتشويه كل مظهر من مظاهر نشاطها ؟ وكيف توفق بين هذا المسلك ، وبين ماتكتبه صحفها (للعقاد) وغيره من الكتاب المرتزقة من مقالات وبحوث ، يدللون فيها على خيانة هذه الجماعة وتآمرها مع اليهود ؟! فماطلت الحكومة السعدية زمنا طويلا ، وحاولت إقناع « فؤاد

صادق » بالعدول عن مطلبه ، غير أن الرجل الشجاع أصر على ذلك واعتبر هذه المماطلة امتهانا لكرامته وإحراجاً لمركزه ، مما اضطر الحكومة إلى إجابة مطلبه ، فاختارت حلا وسطا . وصدرت النشرة العسكرية فى مايو سنة ١٩٤٨ ، تحمل أسماء خمسة عشر جنديا من الإخوان المسلمين المصريين والفلسطينيين ، ورأت الحكومة أن تدارى موقفها المخجل فسمتهم فى نشرتها « جماعة المتطوعين المصريين » ! ثم تتابعت النشرات العسكرية تحمل الإنعام على أبطال الإخوان المسلمين فى « بيت لحم » و « صور باهر » وغيرهما من المناطق . ومن المضحك أن تصدر النشرات العسكرية وفيها اعتراف رسمى ببطولة جنود الإخوان ، وقت أن كان الأبطال المنعم عليهم لا يزالون يقاسون مرارة الاعتقال ، ويعيشون كالمجرمين الخطرين خلف الأسلاك الشائكة بين معسكرات « رفح » و « الطور » و « هاكستب » !! وهكذا أباحت العقلية المنكوسة لنفسها معاملة طائفة من الناس على أنهم أبطال مغاوير ، ومجرمون خطرون فى آن واحد .

١٧ — المعارك الأخيرة فى (النقب)

إذا لقيت عدوك فاثبت له حتى يتقهقر ، فإذا تقهقر فاتبعه حتى يقع ، فإذا وقع فاضرب عنقه .

« عمرو بن العاص »

ظل الإخوان فى معسكراتهم يمارسون التدريب ويستعدون للمعارك المقبلة ، وتطلبهم قيادة الجيش بين حين وآخر ، ليقوموا بأعمال الداوريات على طول الجبهة ، وليتسقطوا أنباء العدو ويرصدوا تجمعاته وتحركاته ، ويقوموا بوضع « الكمائن » فى الوديان والجبال للايقاع بدباباته ومركباته . وكثيراً ما كانت تخرج مجموعات منهم لتتعاون مع كتائب الجيش ، كما وقعت اشتباكات محلية فى قطاعات الميدان المختلفة ، ولم تدم هذه الحالة (المريحة) طويلا ! إذ قام اليهود بحركة التفاف واسعة ، قصدوا منها — كما جاء فى المنشورات التى ألقتها قيادة القوات الاسرائيلية قبيل هذا الهجوم — إلقاء الجيش المصرى خلف الحدود ، فقاموا بهجومهم الكبير والأخير فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٩٤٨ ، ونجحوا فعلا فى انتزاع منطقة كبيرة من الجيش ، غير أنهم فشلوا فى تحقيق هدفهم المنشود من استخلاص بقية أجزاء فلسطين ، ولقد قدر للاخوان أن يساهموا فى هذه المعارك الكبرى مساهمة فعالة ، ولا يزال الضباط والجنود يتغنون بها حتى الآن ويعتبرونها المثل الأعلى للجندية المؤمنة :

وقبل أن أخوض فى تفاصيل هـذه الهجمات ، التى أسرعت بنهاية الحرب وعجلت بخاتمتها المفجعة ، أود أن أبين الحالة التى كانت عليها القوات المتحاربة قبيل ذلك التاريخ ، ليكون القارىء على بينة من حقيقة الموقف .

وضح فى الصفحات السابقة كيف اضطر الجيش المصرى أمام هجمات العدو المفاجئة خلال شهر أكتوبر ، إلى إخلاء المناطق الواسعة فى « أسدود » و « المجدل » وما ترتب على ذلك من (إغفال) مجموعة لواء كاملة فى قرية الفالوجا ، مما نتج عنه ضياع مدينة (بئر السبع) وسقوط الجزء الشمالى من « النقب » فى يد اليهود ، وظل اليهود فى (بئر السبع) وما حولها بينما ظلت القوات المصرية ، تحتل بعض المواقع على الطريق الذى يربط بئر السبع بقرية العوجا ، على حدود مصر الشرقية ، وبذلك أصبحت قوات الجيش المصرى موزعة على النحو التالى :

١ — القوات الرئيسية المتجمعة فى منطقة غزة — رفح ، وفيها القيادة العامة .

٢ — قوات مختلطة تقدر فى مجموعها بلواء تحتل بعض المواقع على طريق (بئر السبع) — (العوجا) ، وآخر مراكزها (عسلوج) ، على مسيرة عشرين ميلا من (بئر السبع) .

٣ — قوات المتطوعين المصريين والإخوان المسلمين وهى القوات التى عزلت بعد كارثة (الفالوجا) ، وظلت تدافع عن (الخليل) و (بيت لحم) (وصور باهر) وتقوم بتموين قوات (الفالوجا) المحصورة .

ولقد رأينا كيف نجح اليهود فى اختراق خطوط الجيش المصرى أمام دير البلح ، وكيف انتهت تلك المحاولة بهزيمتهم المنكرة ، وخسارتهم الفادحة ، غير أنهم لم يستكينوا عقب هـذا الدرس المر ، فتحسسوا نقاط الضعف فى القوات المصرية ، وقاموا بمحاولة أخرى على نطاق واسع واكتسحوا فى طريقهم القوات نمرة (٢) ، التى ترابط على طريق (العوجا — بئر السبع) ، ولم تستطع القوات المذكورة الصمود أمامهم ، أو حتى

مجرد تعطيلهم ، ذلك أنها لم تكن موضوعة — كما يبدو — للمقاومة فلم يراع فى توزيعها ، أى ضمان لسلامتها ، بل إن القيادة نفسها لم تكن تعرف الهدف من بقائها ولا الغرض الذى تكلف بحمايته ، فوق أن عددها المحدود ، لم يكن يكفى للسيطرة على هذا الفضاء الفسيح الذى ألقيت فيه ، ولم يكن هناك أدنى اتصال بين هذه المواقع المبعثرة فى الصحراء ، فبين كل موقع وآخر عشرات الأميال ، وكل موقع مسؤول عن حماية نفسه وأخيراً ليست هناك قوات مستعدة ، لنجدتها فى لحظات المعركة الأولى . !

وإن القلم ليرتجف ويأبى أن يطاوع فى تسجيل المهازل والأخطاء ، التى ارتكبها المسؤولون — وما أكثرها — فى تلك الفترة بالذات ، ولست أدرى حتى متى تظل هذه المآسى مختفية عن الرأى العام ومتى يفتح عينيه ليرى هـــذه الحقائق المخزية ، ويعلم أنه كان مخدوعاً حين آمن بالبطولات الزائفة ، وأنه كان مخدوعاً حين أخفوا عنه الهزيمة المنكرة ، وراء مظاهر النصر المصطنع ، وأرغموه على ابتلاع العلقم المر ، بعد غمسه فى الشهد والعسل !

لم تستطع هذه القوات — وتلك حالتها — أن تصمد فلم تلبث هذه المواقع أن انهارت ، وأخذ العدو يدور حول كل موقع ، ويمنع اتصاله بالمواقع الأخرى ، ثم يعمل النيران فى قواته المحصورة ، وانطلق الطابور المدرع فى هجوم خاطف إلى « العوجا » ، آخر موقع للجيش فى صحراء النقب فقاومت حاميتها بعض الشىء ، وانتظرت النجدات طويلا دون طائل حتى استسلمت ، وتسلل أفرادها لواذاً إلى الحدود المصرية ، بعد تدمير أسلحتهم ومعداتهم .

فى مساء ٢٦ ديسمبر بالذات استدعتنى القيادة العامة فى رفح ، حيث

بين لى كل من القائمقام « سيف الدين بك » والقائمقام « الرحمانى بك » — من أركان حرب القائد العام — خطورة الحالة ، ثم طلبوا منى إشراك « الإخوان » فى المعارك التى تدور فى منطقة « العسلوج » . وأذكر أن القائمقام « سيف الدين بك » أخبرنى أن القائد العام يرى بقاء قوة من الإخوان لترابط فى « العسلوج » ، وتكون مهمتها إرباك العدو فى منطقة « بئر السبع » بحركات عصابية كتلك التى كانوا يقومون بها فى مناطق « الشلالة » و « تل جمة » ولا يستطيع غيرهم القيام بها ، فقلت له إننى لا أمانع مطلقاً فى استخدام الإخوان واستغلال نشاطهم على أوسع نطاق ، غير أننى أرى أن عددهم المحدود لا يمكن أن يقوم بكل هذه الأعباء الكبار ، وأن الحكومة لو خففت الضغط قليلا لأمكن إحضار عدد آخر من مصر . وكنت أعلم أننى أطلب مستحيلا ، فإن تسليم فلسطين ومصر أيضاً لليهود ، كان أهون على السعديين والإنجليز من إعطاء شىء من الحرية للاخوان المسلمين ! ثم شكوت من قلة الذخائر التى لدينا ، فأصدر القائد العام أمره بصرف أى كميات نطلبها من الذخائر أو الأسلحة ، لتخرج هـــذه القوة مكتملة العدة .

ولم نضيع الوقت فمضيت إلى المعسكر وهناك استقر الرأى على إعداد « سرية » لتخرج من ليلتها بقيادة الأخ المجاهد « حسن دوح » ويشترك معه من ضباط المعسكر الأخوان المجاهدان « عبد الهادى ناصف » و « فوزى فارس » . وكان ضباط الرئاسة يتصلون بى بين لحظة وأخرى يستعجلون خروج هـــذه القوة ، ويبينون شدة الحاجة إليها ، لخطورة الموقف وارتباك الحالة . وعندغروب الشمس تحركت السيارات والمصفحات بمن فيها ، وكان موقفاً رائعاً لا أنساه إذ أخذ المتخلفون فى المعسكر يودعون إخوانهم بالنشيد الثائر ، والهتافات المدوية .

ولقد علمت من بعض ضباط الرئاسة أن (اللواء فؤاد صادق) أرسل إشارة لرئاسة أركان الحرب يخبرها أن الموقف في العسلوج جد خطير، ولكنه أرسل الإخوان المسلمين إلى هناك وهو يستبشر بذهابهم خيراً.

وحين حاذينا مقر القيادة العامة في « رفح » ، وجدت أحد ضباط الرئاسة ينتظرنا على الطريق العام ، ومعه سيارتان كبيرتان محملتان بصناديق الذخيرة والقنابل ، وسيارة ثالثة تحمل خزانا ضخماً للماء ، ثم أخبرني أن القائد العام ينتظرني في مكتبه ويريد أن يتحدث إلي قبل سفر القوة. فتركت الإخوان على الطريق العام وذهبت إليه بمفردي ، فوجدت لديه جمعاً كبيراً من الضباط من ذوي الأشرطة الحمراء ، وكانوا قادمين من مصر — على ما يبدو — لمعاينة الحالة ومعاونة القائد العام في مهمته ، واستأذنت ودخلت ، فلما حييت أخذ القائد العام يبين الحالة بالتفصيل وفهمت أن هناك تطورات خطيرة قد جدت على الموقف . كانت «العسلوج» قد انتهت . وكانت مواقع « جبل الشريف » قد سقطت هي وغيرها من المواقع . وفهمت أن العدو يدير معاركه في مناطق أخرى من « النقب » وأن طلائع قواته المصفحة قد اشتبكت فعلا مع حامية « العوجة » . !!

وكانت أنباء شديدة الوقع على نفسي ، ومعنى كل ذلك إبادة تلك القوات الكبيرة واقتحام حدود سيناء الشرقية ، وتذكرت حينها قول القائمقام « سيف الدين بك » منذ ساعات ومطلبه الخاص بإرباك العدو في « بئر السبع » تمهيداً لمهاجمتها واحتلالها ، فآمنت أن القطار قد فات ، وأن العدو لو نجح في احتلال « العوجة » فسيدير معاركه الهجومية في قلب الأراضي المصرية . وعلمت مهمتي على وجه التحديد ، وكانت تقضي بأن أرافق قوة الاخوان حتى تستقر في تلك المنطقة . وأخبرني كبار ضباط

الرئاسة أن الأوامر قد صدرت لقيادة تلك الجبهة بإعطاء الاخوان حرية العمل ومنحهم أي تسهيلات يطلبونها .

بعد حديثي مع القائد العام حييت الجميع وعدت إلى الاخوان ثم بدأنا السير وكانت وجهتنا مدينة «العريش» ، ورغم أن هناك طريقا قصيراً يصل « رفح » مباشرة « بالعوجة » ، إلا أن المسئولين من الإخوان رأوا أن التقدم عليه محفوف بالمخاطر ، ولم يستبعدوا وجود « كمائن » للعدو أو ألغام تمنع تقدم أي نجدات تحاول أن تصل للقوات المنكوبة ، فآثرنا أن نسلك الطريق الذي يمر بالعريش. وصلنا « العريش » وتجوزناها إلى« أبو عجيلة » ، فوصلناها في منتصف الليل وسمعنا دوي الانفجارات العنيفة ، ورأينا أضواء القنابل المتفجرة تنعكس على صفحة الأفق فعلمنا أن المعركة لا تزال دائرة الرحى في « العوجة » ، وعلمت من موظفي النقطة ومن رجال البوليس أن حاميات « عسلوج » و « جبل الشريف » و « كوبرى الإخوان » وغيرها من المواقع قد أبيدت بين أسر وقتل ، ومن نجا فقد اضطر للفرار والهيام على وجهه في صحراء« النقب » الواسعة .

ورأى الاخوان المسئولون أن التقدم للمعركة في هذا الوقت ليس من الصواب في شيء ، فالإخوان لم يناموا طول الليل وإدخالهم في المعركة على هذه الصورة لن يأتي بأي نفع بل قد يضر أبلغ الضرر ، واتفق المسئولون على الانتظار في« أبو عجيلة » حتى الفجر وحتى ينال الإخوان شيئاً من الغذاء والراحة وتستبين تطورات الموقف ، وترجل الإخوان من سياراتهم وتناولوا شيئاً من طعام خفيف ثم استلقوا على الأرض الصخرية الرطبة ، حتى لمعت أشعة الفجر الأولى فأذن مؤذنهم للصلاة وقمنا نتوضأ على عجل ، ثم صلينا الفجر جماعة ، وقرأ الإمام صدراً من سورة « الأنفال » ، ورأينا أنفسنا نسبح في جو روحاني جميل خلال آياتها البينات ، ونستشعر المعاني العميقة

التى استشعرها المجاهدون الأول ممن نزلت فى حقهم هذه الآيات ، خاصة ونحن فى موقف يشبه موقفهم إلى حد بعيد .

ولما انتهت الصلاة تسابق الاخوان إلى أسلحتهم يعدونها ويختبرونها ثم امتطوا السيارات ، وأذكر أن الشهيد الكريم « على الفيومى » — وسيأتى ذكر استشهاده بعد حين — كان يطوف على إخوانه فى ابتهاج واضح مذكراً إياهم بقول الرسول صلوات الله عليه وسلامه لمقاتلى (بدر) : « والله لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » . وتحركت السيارات فى طريقها إلى الميدان . وكنت أرى خلال تقدمنا أن الطريق كانت غاصة بسيارات الجيش المحملة بالجنود والذخائر ، وكانت كلها واقفة لا تتحرك ، فسألت الجنود عن الخبر فقيل لى إن العدو يضرب بمدفعيته نقطة على الطريق ليمنع اتصال النجدات بالقوات المحصورة فى (العوجة) ، فلم نجد بداً من التقدم ، وكان الجنود المصريون يوسعون الطريق لسيارات الإخوان التى انطلقت غير عابئة بصيحات التحذير .

وعند أرض مرتفعة تعترض الطريق الرئيسى ، رأينا قنابل العدو تتساقط فوقها ، ولم يكن فى وسعنا أن نتقدم قبل أن نقضى على هذه العقبة ، فقررنا الاشتباك معها ، ولاحظنا أن موقع العدو مستتر بعناية خلف أحد التلال المواجهة ، فترجل الإخوان فى إحدى المنحنيات وأقاموا مدافعهم وأخذوا يضربون موقع العدو بشدة حتى سكتت مقاومته وانفتح الطريق وانسابت جموع السيارات المتخلفة إلى أهدافها . وركب الاخوان السيارات وواصلوا السير حتى وصلوا إلى مرتفع شاهق يشرف على ميدان المعركة ، وهناك التقيت بنفر من ضباط الجيش فسألتهم عن قيادة المعركة وأين أستطيع أن ألتقى بقائد المنطقة العام لأتلقى تعلماته وإرشاداته ، فأخبرونى أنهم منذ الليل يحاولون العثور على أحد القادة المحليين دون جدوى ، وأنهم قد جاءوا من

(رفح) و (العريش) و (غزة) كنجدة سريعة لحامية (العوجة) ! ! فعجبت كثيراً لهذه الظاهرة ، وطلبت للأخ (حسن دوح) تنظيم قوته فى وضع دفاعى ففعل ، واختفت سياراتنا خلف أحد التلال ، وظللنا ننتظر فترة طويلة عسى أن يأتى أحد قادة المنطقة ليحرك هذه القوات الكبيرة ، وطال انتظارنا دون جدوى .

وكان الموقف يدعو للأسف والسخرية : معركة محتدمة فى قلب « العوجة » ، وجنودنا فيها يقاومون مقاومة الأبطال ، وقد بحت أصواتهم فى طلب النجدة ، والنجدة على مقربة منهم لا تستطيع الوصول إليهم ، وليس هنا أحد ينظم المعركة ويديرها ، هذه هى الفوضى بعينها ... وكأن العدو قد فهم ما نحن فيه من ارتباك ، فأرسل « فصيلة » من قواته تسللت عبر الوديان والجبال المحيطة بنا ، ثم ظهرت فجأة على مقربة منا وأخذت تمطر المنطقة بوابل من النيران ، وأحدثت « المفاجأة » مفعولها ، أما سيارات الجيش الكثيرة فقد كان طبيعياً أن تتحرك راجعة للخلف لتنجو بنفسها وبما فيها من أسلحة وذخائر ، وأما الجنود فقد ارتبكت جموعهم ، ومما زاد فى ارتباكهم عدم وجود قيادة يرتبطون بها ويتلقون تعلماتها وأوامرها ، فتعلقوا فى ذيول السيارات المتحركة ، ولم تلبث الطائرات اليهودية المطاردة أن ظهرت فى الجو وأخذت تنقض على هذه الجموع المختلة وتكتسحها بالنيران الحامية .

وكان من الأخطاء الواضحة فى هذه المرحلة — وما أكثر أخطائها — نقص الحماية الجوية لهذه القوات ، مما جعلها عرضة لخطر الطائرات وأعطى لليهود فرصة السيطرة على الجو سيطرة كاملة ليس فيها منازع ، وشعرنا نحن المحاربون بخطره ، حين كانت طائراته تظهر لتفرغ حمولتها من النيران فوق رءوسنا ، ثم تعود أدراجها لتشحن جوفها بحمل جديد

من المطارات القريبة وأراضى الهبوط الواقعة فى منطقة « بئر السبع » .

بقى الإخوان وحدهم فوق مرتفع « العوجة » وخشيت أن تكون هناك قوات أخرى للعدو فى طريقها إلينا لتفاجئنا من جديد ، فتداولنا الرأى وكان علينا أن نقرر إما أن ننسحب خلف القوات المنسحبة ، أو نصمد فوق هذا المرتفع حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا ، وكان الموقف بالغ الخطورة فبقاء الإخوان فوق هذا المرتفع يعرضهم للابادة التامة أمام عدو يفوقهم كثيراً فى عدده وعدته ، وانسحابهم أيضاً سوف يغرى العدو بملاحقتهم فيندفع وراء القوات المرتبكة ويقلب انسحابها إلى هزيمة منكرة ، وليس أخطر من مهاجمتها الآن وهى على ماهى عليه من تفكك وارتباك ، وأخيراً قر رأينا على اختيار أهون الضررين . يجب أن نصمد ونقاوم فإما أن تتراجع قوات العدو ونحتفظ بهذا الموقع ليكون نقطة ارتكاز لو فكرنا فى استرداد العوجة ، وإما أن ننجح فى إشغال العدو وتعطيله بعض الوقت حتى تستطيع قوات الجيش الوصول إلى نقطة أمينة ، وتصبح قادرة على الدفاع عن نفسها .

واستمرت المعركة بين الإخوان والعدو فترة طويلة يئس بعدها العدو وانسحب راجعاً جنوبى « العوجـة » وبقينا وحدنا حتى وقت الزوال وكانت المعركة فى قلب « العوجة » قد أشرفت على نهايتها ولم نعد نسمع فيها إلا طلقات متفرقة ، وكان أفراد حاميتها لايزالون ينسحبون منها بعد أن يئسوا من وصول النجدات ... ! !

وبدأنا نفكر فى موقفنا بشىء من القلق ، فإن بقاءنا فوق هذا المرتفع على مقربة من العدو يعتبر مغامرة خطرة — خاصة إذا أقبل الليل — وبيننا وبين قوات الجيش عشرات الأميال ولا استبعد أن تتسلل قوات من العدو

لتهاجمنا من الخلف أو تقطع علينا خط الرجعة ، فرأيت أن أذهب بمفردى إلى قوات الجيش ، وأحاول اقناع الضباط بالعودة لاحتلال هذا المرتفع ، فليس هناك معنى للتخلى عن مسافة شاسعة من الأرض المصرية دون سبب ، واخلاؤها على هذه الصورة المزرية سوف يغرى العدو بمواصلة التقدم . ركبت إحدى السيارات الخفيفة ورجعت مسافة عشرين ميلا إلى الوراء فوجدت قوات الجيش موزعة خلف التلال فى انتظار تعليمات جديدة من القيادة العامة .

كانت الخطة السليمة أن يبادر الجيش فيهاجم العدو فى قلب «العوجة» ورغمه على الانسحاب منها ، قبـل أن تستقر أقدامه فيها ، ولكن أين القيادة التى تنظم الخطة وتوجه هذه القوات الكبيرة وجهة صحيحة ، ولقد بلغ من تلهفى على إتمام هذا الإجراء أن اتصلت بضباط هذه القوة وأخذت أشرح لهم وجهة نظرى وأطلب إليهم اختيار أحدهم قائداً علينا جميعاً حتى يمكننا وضع خطة موحدة نتحمل مسئوليتها ونقوم بتنفيذها ، ولكنى لاحظت أن حضرات الضباط اللذين حادثتهم — على الرغم من إيمانهم الشديد وتحرقهم للقيـــام بعمل جدى — كانوا يشفقون على أنفسهم من تحمل المسئولية لو فشلت المحاولة ، وتلك ظاهرة خطيرة لمستها فى الجيش فى كثير من المواقف التى تعاونت معهم فيها ، فقد لاحظت أن المسئوليات الكبيرة تـكاد تكون مركزة فى أيدى أفراد قلائل من ذوى الرتب العالية ، أما الضباط من صغار الرتب فمهمتهم تنفيذ تعليمات هؤلاء دون أن يكون لهم حق التصرف حتى فى أتفه المسائل ، ولو حدث وتصرف أحدهم حسبما يرى كان نصيبه التأنيب إن أصاب ، والعقاب الشديد إن أخطأ ! .

هذه الأسباب وغيرها تجعل الضباط من صـغار الرتب يحجمون عن تحمل المسئولية حين يجب التفكير والتصرف السريع ، ولست أجد وسيلة

لعلاج هذه الحالة سوى تعويد الضباط الصغار على حمل المسئوليات الكبار وقد يخطىء الضابط مرة وأخرى ، والواجب يقضى بالتغاضى عن أخطائه وتشجيعه — ما توفرت حسن النية فى هذا الخطأ — وبذلك تتكون شخصيته ويصبح قادراً على التصرف راغباً فى تحمل المسئوليات والتبعات .

وظللنا نتناقش وقتاً طويلا ، وبينما نحن على تلك الحالة إذ أقبلت سيارة « جيب » وترجل منها الأميرالاى « فؤاد ثابت » قائد القطاع والمسئول عن هذه المعركة ، والرجل الذى ظللنا ننتظره ليؤدى واجبه وقتاً طويلا . وبوصوله وصلت إشارة من القيادة العامة تحتم القيام فوراً بهجوم مضاد لاسترداد (العوجة) وطرد العدو منها بأى ثمن ، وكان هذا ما يجب عمله منذ الصباح الباكر لو كان كل إنسان يؤدى واجبه ويرضى ضميره .

وأخذ القائد المسئول يرسم خطوطا بعصاه على الأرض ويبين موقع (العوجة) على الخريطة ! ثم سجل « أمر عمليات » وناول كل واحد منا نسخة منه تبين دور كل وحدة فى المعركة المقبلة ، وأخذت نسختى ومضيت على عجل إلى الإخوان لاعدهم للمعركة ، وتبعتنى قوات الجيش ومدفعيته يتقدمها القائد وضباط أركان حربه ، وعدد من الضباط العظام .

وكانت (العوجة) تبدو صامتة هادئة ، عدا بعض سيارات مصفحة تتحرك حولها ، ولم تلبث مدفعية الجيش المصرى أن أطلقت نيرانها على قوات العدو المتجمعة فى القرية وعلى مصفحاته المستترة خلف سفوح التلال ، ثم بدأ الزحف وانطلق الإخوان إلى أهدافهم . . . وفى اللحظة الأخيرة صدرت الأوامر بمنع التقدم والتراجع إلى المرتفع . . . . وهكذا فشلت العملية ، وسقطت (العوجة) نهائيا ، وبسقوطها وضع اليهود أيديهم على صحراء (النقب) كلها ، وأعطوا حرية التنقل بين أرجائه الواسعة فى

مساحة يحدها البحر الأبيض شمالا والبحر الأحمر جنوبا ، كما فتحت أبواب سيناء على مصاريعها للغزاة ، يدخلون من أيها يشاؤون . .

أما لماذا فشلت هذه المعركة ورؤى عدم التقدم فيها ، فكان مرده إلى الروح المعنوية التى كانت قد وصلت إلى أقصى مراحل الانهيار والضعف ، وإلى القيادة المحلية التى كانت تنفذ أوامر الهجوم على الرغم منها ، دون أن تكون راغبة فى القتال ، لذلك لم يلبث الجنود أن تراجعوا إلى المرتفعات الخلفية ، ولم يتوقف تراجعهم إلا عند مرتفعات « الطاره » ، على حدود مصر الشرقية .

وبهذه المعركة انتهت الحرب الفلسطينية من الوجهة العملية ، وتغيرت الآن وانقلبت الأهداف ، فبعد أن كان الهدف هو تحرير فلسطين ، والقضاء على العصابات الصهيونية ، وانقاذ أهلها من الفناء والتشرد ، أصبح الهدف الجديد هو الصمود أمام الحدود المصرية ، ومنع تدفق العدو خلالها ، واقتطاع شبه جزيرة سيناء . . . فإلى أى مدى نجحنا فى المحافظة على هذا الهدف الجديد ؟ !

١٨ – المعارك فى شبه جزيرة سيناء

[إن صحراء كهذه هى بلا شك أعظم الموانع التى تحمى حدود الإمبراطوريات] « نابليون »

انسحبت القوات المصرية من صحراء النقب بعد سقوط « العوجة » وتركزت فوق مرتفعات « الطارة » فى داخل الحدود المصرية . ولم يكن يدور فى أذهان المسئولين العسكريين أن العدو سيحاول احتلال سيناء بعد فراغه من فلسطين ، ومضت الليلة الأولى بسلام مما زاد فى التأكيد أن العدو قد قنع مؤقتاً بما وقع فى يده ، وأنه سيخلد بعد ذلك للسكون والراحة أو التفرغ للمنطقة الساحلية ، حيث لا تزال ترابط بها القوات الرئيسية والقيادة العامة . ولكن حوادث الليلة التالية جاءت لتخلف هذا الظن ، فشوهدت فى عصر اليوم التالى جموع من السيارات تتدفق وراء المرتفعات المقابلة ، مما أوحى إلى القيادة المسئولة تنظيم خطة سريعة للدفاع ، والإرسال فى طلب مزيد من القوات والمعدات ، وكنا نشعر نحن المحاربون بما نحن فيه من ضعف وإنهاك بعد المعارك العنيفة الماضية ، وكانت القوات المدافعة هى بنفسها القوات التى انسحبت من (العسلوج) و (العوجة) ، وكانت معنوياتها قد وصلت إلى درجة من الضعف لاتسمح لها بمواصلة القتال .

وبينما نحن فى تلك الحالة من القلق والتربص إذ حملت إلينا أجهزة الاذاعة نبأ اغتيال النقراشى باشا رئيس مجلس الوزراء فى مبنى وزارة الداخلية ، ولا أتجاوز الحقيقة إذا قلت إن هذا الحادث لم يكن مفاجئاً لأفراد الجيش المحارب ، فكلنا كان يعلم أن سياسة الضغط والإرهاب التى اختطها

النقراشى باشا للقضاء على طائفة كبيرة من أبناء الأمة ، سوف يؤدى حتماً إلى انفجارات مروعة لايعلم إلا الله مدى ما تجلبه على البلاد من أضرار .

وقع الحادث فى مصر وسمعناه فى حينه فى خط النار ، ورأيت صورة واضحة لمدى مايكنه المواطنون من حقد للطغيان ممثلا فى شخص هذا الرجل ، ولست أتعرض فى كلامى لنفس حادثة الاغتيال ودوافعها وملابساتها ، ولكنى أصف شعور أبناء الوطن حين بلغهم مصرع طاغية من طغاة الحكم المستبدين .

كانت شمس ذلك اليوم على وشك الغروب . . حينما أطلت مصفحتان معاديتان ، واقتربتا فى جرأة من مواقع الجنود ، ثم أخذتا تطلقان النار من مدافعهما الرشاشة ، واشتبكت معهما مدفعية الجيش وأسلحته المختلفة ، وأخذ الإخوان يرقبون هذا المنظر فى دهشة وقلق ويفكرون بسرعة فى هذه الحركة العجيبة . هل بلغ اليهود من الجرأة والاستهتار إلى الحد الذى يحاولون معه مهاجمة قوات كبيرة بمصفحتين صغيرتين ؟. إنهم ليسوا بلهاء إلى هذا الحد ، ولابد أن هناك خدعة من وراء هذه الحركة !

وكانت الخدعة واضحة لا تحتاج إلى كثير من التكهنات والتفكير ، ذلك أن اليهود كثيراً ما كانوا يعمدون إلى مثلها قبيل كل هجوم . إنهم يريدون من المصفحتين إشغال المصريين وجذب نيرانهم لمعرفة أوكار المدافع ومواقع الجنود ، وإنهاء ذخيرتهم فى الهواء وتحطيم أعصاب جنودهم طوال الليل ، حتى إذا اطمأنوا لهذه النتيجة فاجأوهم بهجوم خاطف وأرغموهم على التقهقر للوراء .

فطن الإخوان للحيلة وفهموا الغرض من وراء هذه الحركة ، فلطالما استعملها اليهود إزاءهم خلال معارك النقب الشمالية ، فوفروا ذخيرتهم وظلوا

صامتين ساكنين وكأن الأمر لايعنيهم فى شىء ، ثم اتصلوا بالمسئولين فى وحدات الجيش وبينوا لهم خطورة النتيجة إن استمر الجنود فى تفريغ الذخيرة بلا مبرر ، واقتنع الضباط بالنظرية ، ومضوا يصدرون الأوامر تباعاً بوقف إطلاق النار ، ولكن أين تذهب الأوامر والتعليمات فى أعصاب منهارة هدها السهر وحطمها الانهاك ؟.

وهكذا ظلت المدفعية والأسلحة تزأرطول الليل ، والعدو الماكر يغرى بالاستمرار فى هذا الخطأ بإطلاق دفعات من النيران متفرقة من هنا وهناك ، حتى كانت الساعة الثانية صباحاً ، وكنا نسمع صياح الجنود : (مفيش ذخيرة يا افندم) . وآخر يقول : (دانات المدافع خلصت ياسعادة البيه) ، (عاوزين قنابل لمدافع الهاون ياحضرة الضابط) وفى هذه الحالة فقط بدأ الهجوم الفعلى من جانب اليهود . . وكانت خطة بارعة لإنهاء الذخيرة وتحطيم الأعصاب .

فهم الإخوان الحيلة ولم تصدر طلقة واحدة من جانبهم ، واكتفوا بتوزيع حراس قلائل ليرقبوا الحالة من بعيد ، بينما استسلم الباقون للراحة استعداداً للمعركة المقبلة ، وكنت شخصياً أنام فى إحدى السيارات خلف تل قريب لميدان المعركة ، حين جاءنى أحد الاخوان ليوقظنى قائلالى إن اليهود قد بدأوا يزحفون ، فنظرت فى الساعة فإذا عقاربها تشير إلى أن الوقت قد تجاوز الثانية بقليل . وكانت الحالة توحى بهجوم كبير فقد كان اليهود يعمدون فى أغلب المعارك إلى التمهيد لهجومهم بسيول من النيران ، وكانت مدافعهم الثقيلة تصب كتلا ملتهبة فوق رؤوس المحاربين الذين لم يكن لهم أدنى (ساتر) يحميهم من شظاياها المتطايرة . وكما كان يحدث دائماً فى كثير من المعارك حين تنتهى الذخيرة ويطلبها المحاربون فلا يجدونها فماذا تكون النتيجة إلا التقهقر فى ذعر وارتباك ؟ !

بدأ العدو يزحف بجموع كثيفة ، واتجه نحو القطاع الذى يرابط فيه الإخوان وكانت مفاجأة قاسية لجنوده أن انهمرت عليهم النيران من مسافات قريبة ومن جنود بالغوا فى إخفاء أنفسهم فى حنايات الوديان وخلف أشجار الصحراء ، فارتاعت جموعه وسقط منهم عدد كبير وأخذوا يتراجعون فى ذعر لتنظيم أنفسهم من جديد ، وسكتت مدافع الإخوان الرشاشة فى انتظار هجوم آخر . وذهبت إلى الأميرالاى (فؤاد ثابت بك) ورجوته أن يحضر سرية من الجيش لتحتل مواقع الإخوان الدفاعية حيث نتمكن من القيام بهجوم مضاد ، ولكنه اعتذر بعدم وجود قوات احتياطية فى يده ، وتلك كانت إحدى الأخطاء الرئيسية التى برزت بوضوح فى هذه المعركة ، فرجعت إلى الإخوان وقد أيقنت أن الموقف بالغ الخطورة وأن هذا الدفاع الواهى لن يصمد طويلاً أمام الهجمات المنظمة التى يشنها العدو ، فبعثت أحد الاخوان ليرقب الحالة فى القطاع الشمالى حيث ترابط قوات الجيش ومكث قليلا من الوقت ثم عادليقول إن جنود الجيش يتسللون راجعين إلى (أبو عجيله) ، وإن العدو قد نجح فى احتلال المرتفعات الشماليةوهو ينحدر الآن من فوقها وأغلب الظن أنه يحاول الالتفاف حول مواقعنا ، ونظرت إلى الشمال فرأيت أنوار السيارات المصرية تتحرك إلى الخلف ولم نعد نسمع فى الجبهة إلا طلقات متفرقة ، ولم يكن الانسحاب للأسف الشديد انسحاباً منظماً ذا خطط موضوعة . ولكنه كان (فراراً) بكل ما فى الكلمة من من معنى ، ولم أشهد طول الحرب الفلسطينية معركة فقدت فيها سيطرة القيادة كهذه المعركة ، وزادت الحالة ارتباكا فوق ارتباك حين جاءت الأنباء تعلن أن قائد المنطقة الأميرالاى فؤاد ثابت قد أخذ بهذا الهجوم فسقط مغشياً عليه من جراء صدمة عصبية ، وساءت حالته مما اضطر أركان حربه إلى نقله بعيداً عن ميدان المعركة . وكان اليهود يستمعون لتصايح الجنود وهم يتعلقون

بذيول السيارات فأخذوا يسخرون منهم فى استهتار واضح ، وسمعت بأذنى صوت الجنود اليهود وهم يهتفون بالعبرية (كاديما — كايرو) ... كاديما كايرو أى تقدم إلى القاهرة ...... تقدم إلى القاهرة ... ، وهتافات أخرى ذات طابع بذىء أمسك القلم عن ذكرها تاركا المهمة لذكاء القارىء . سحب جنود الجيش إلى (أبو عجيلة) وبقينا وحدنا نقاوم ، وعمد العدو إلى الالتفاف حول مواقعنا بعد ما يئس تماماً من اختراق الخط الأمامى .

وكان واضحا أن الموقف خطير للغاية وأن هذه القوة لن تأت بنتيجة وهى بمثابة جزيرة صغيرة وسط محيط واسع ، فاتصلت بالاخوان المسئولين سريعا وباحثتهم فى الموقف فقرروا إرسال السيارات الكبيرة بما فيها من مدافع وأدوات ثقيلة لتلحق بالجيش ، على أن يبقى الاخوان بأسلحتهم الخفيفة ويستمروا فى المقاومة جهد الطاقة . فإن اضطروا الى الانسحاب انسحبوا سيراً على الأقدام عبر المسالك الجبلية ، ومضت السيارات بحمولتها وبقى الاخوان بأسلحتهم الخفيفة .

تجددت الاشتباكات والهجمات ، وصمت أحد المدافع الرشاشة وجاء من يقول إن المجاهد (على الفيومى) قد جرح بعد مقاومة رائعة ، إذ استطاع فدائى يهودى أن يتسلل من الخلف ويطلق عليه النار ، وطفت أمواج اليهود على جثة البطل فلم يستطع الإخوان استخلاصها من أيديهم وحاول هو تخليص نفسه من قبضتهم غير أن قواه كانت قد انهارت ، ثم أجهزوا عليه إذ كان اليهود يقتلون الجرحى فى المعارك حتى لا يتعبوا أنفسهم فى معالجتهم وإيوائهم . كنا نأمل من وراء هذه المقاومة الانتحارية أحد نتيجتين : (الأولى) أن ييأس العدو من إبادة هذه القوة فينقلب راجعا إلى قواعده (الثانية) أن ينشغل بنا فلا يلحق بالقوات المنسحبة ويستغل



المجاهد الشهيد (على الفيومى)
استشهد فى معركة (الحدود)

فرصة ارتباكها ويوقع بها مذبحة مريعة ، وكنا نأمل فى كلتى النتيجتين أن نكبده الخسائر الباهظة وأن نجعل انتصاره غاليا فادح الثمن .

لاحظنا أن العدو أخذ يشغل المواقع الأمامية بينما أخذت قواته تدور يمينا وشمالاً حول القوة العنيدة ، وهنا اتضح لى أن المقاومة لن تكون بعد ذلك إلا ضرباً من الجنون ، وأخذنا نقلب الموقف بسرعة فقررنا الانسحاب إلى تل خلفى على أن يتم ذلك فى خفة وحذر ، وأطلقت طلقات نارية حمراء من جانب معين كنا قد اتفقنا عليها كإشارة للانسحاب ، وبدأ الاخوان ينسحبون بخفة مع المقاومة ، حتى إذا اكتمل عددهم ونقلوا جرحاهم معهم بدأ الانسحاب سيراً على الأقدام ، وحين ابتعدنا عن المنطقة كان العدو لا يزال يصب سيولا من نيرانه على التل الذى كانت تصدر منه المقاومة .

وحين ابتعدنا عن منطقة الخطر وأصبحنا فى مأمن من مصفحات العدو التى أخـذت تجوب المنطقة لتمسك بالأسرى وتجمع الأسلحة ، انحرفنا إلى الطريق الرئيسى وكم كان أسفنا بالغاً حده حين رأينا فى طريقنا عـدداً كبيراً من سيارات الجيش ملق على جانبى الطريق ، وكانت السيارات كلها مشحونة بأنواع الأسلحة والمعدات والبترول ، وكانت كلها صالحة للسير إلا أن الطريق كان مغلقا من إصطدام بعض السيارات ، وكان ممكنا أن يفتح الطريق لولا أن حالة الارتباك كانت مستولية على العقول والأعصاب ، وكان كل واحد يريد أن ينجو بنفسه قبل أن يقع فى يد العدو . وعز على الاخوان أن يتركوا هذا العدد الهائل يضيع ، ولم يكن فى وسعهم أن يأخذوا هذه السيارات معهم فاختاروا أهون الضررين ومضوا يدمرون أجهزة السيارات بالقنابل ويشعلون النار فى خزانات البترول حتى يفوتوا على العدو فرصة استعمالها والافادة منها .

اجتاز اليهود حدود مصر الشرقية ودخلوا سيناء ... الأرض التى تاه أجدادهم فيها أربعين سنة والتى لا يزالون يحنون إلى اقتطاعها وضمها إلى دولتهم ، وكان لقاء حاراً وصفه لى أحد أعراب قبيلة (التياها) البدوية وكان مختبئا وراء أحد الجبال فقال إنهم ترجلوا من السيارات فوق إحدى مرتفعات (التيه) وأخذوا يقبلون الأرض ويبكون ، ثم قاموا يتعانقون فى ابتهاج واضح.

ولم يضيعوا الفرصة فأخذت لجانهم العسكرية تجوس مناطق سيناء وتدرس منافذها وطرق الاقتراب إليها . أما نحن فقد واصلنا السير الى (أبو عجيلة) فوجدناها خالية من الجيش ولم يكن فيها الا سيارات الاخوان التى بعثناها لتنتظر بعيداً عن ميدان المعركة ، ولقد حاولنا اقامة خط دفاعى عن (أبو عجيلة) وقوى هذا العزم عندى حين جاءت سيارة جيب تحمل

أحد الضباط برتبة البكباشى وكان يشرف على العمليات فى هذه المنطقة فقال لى (نفذ ما تراه وسأبعث اليك بقوات كبيرة لتعاونك فى الدفاع عن (أبو عجيلة) فأخذنا نحتل بعض المواقع الملاصقة للطريق وانتظرنا حوالى ساعة وأخيراً جاء ...... لورى محمل بأقفاص (البقصماط) ...!! وأعقبه آخر وثالث ولم يكن فيهم جميعا ما يعين على الدفاع ، ولم يكن اليهود ليضيعوا الفرصة أمام هذا العبث فلم تلبث مصفحاتهم أن ظهرت على مقربة منا ووجدنا أن خير وسيلة هى الذهاب للعريش .

وركبنا السيارات ولم نكد نبتعد قليلا حتى سمعنا انفجاراً هائلا ورأينا خيطاً طويلا من الدخان يصل عنان السماء فعلمنا أن العدو قد دمر (جسر أبو عجيلة) ليأمن عدم وصول النجدات عن طريق الاسماعيلية ، وحين أدركنا مشارف العريش وجدنا قوات كبيرة من الجيش تعمل على تحصين نفسها فوق مرتفعات (الحفن) ، والمهندسون يعملون بهمة فى إقامة الموانع السلكية وبث حقول الألغام أمام خطوط الدفاع ، وكان طبيعياً أن نشترك فى الدفاع عن المنطقة ، وأن يسقط فوق كواهلنا أهم أجزاء هذا الدفاع مرة أخرى .

كان لا بد لى من مغادرة العريش إلى غزة بعد أن بلغتنا أنباء هجمات كبيرة يقوم بها العدو هناك وتشترك فيها قوات الإخوان الرئيسية ، وركبت السيارة وانطلقت بها إلى رفح وهناك عرجت على القيادة العامة فوجدتها مرتبكة لما بلغها عن أنباء الحالة ، وكان الضباط يسألوننى وكنت أجيبهم بما أعرف ، وسمع القائد العام بمجيئى فطلبنى إلى مكتبه وأخذ يسألنى عن الموقف ، فأخبرته عما حدث ولم أكتمه رأيى الخاص فى قيادة تلك المنطقة وما كانت عليه من عجز وقصور ، وفى انهيار الروح المعنوية فى الأفراد

انهياراً يستحيل معه العمل بهم فى أى معركة ، ولم أكن مبالغاً فيما قلت فإن المنظر الذى مر بك ذكره فى معركة الحدود كان لا يزال منطبعا فى ذاكرتى وكنت متأثراً بالنتائج أبلغ التأثر ، والواقع أن جنودنا فى آخر مراحل الحرب كانوا ينظرون للجندى اليهودى نظرة خاطئة حين اعتبروه محاربا ممتازاً لا يمكن الوقوف أمامه .

وواصلت سيرى إلى المعسكرات وهناك وجدت إخواننا موزعين على طول الجبهة بين (غزة) و(دير البلح) و (وخانيونس) وكنت قد وصلت وأنا أشعر بالإنهاك الشديد فحاولت أن أنال قسطاً من الراحة ، وما كدت استقر فى أرض المعسكر حتى كانت رئاسة القوات تطلبنى فى التليفون ، وكان المتحدث ضابطاً من ضباط الرئاسة طلبنى ليبلغنى أن العدو يهاجم «العريش» وأن طلائع قواته قد اشتبكت مع مواقعنا الأمامية عند مرتفعات (الحفن) ، وأن على أن أتوجه فوراً لألحق بقوة الإخوان المرابطة هناك ، وقمت لأركب من جديد وأتوجه للعريش حتى وصلتها فى صبيحة اليوم الثانى وكانت المعركة قد انتهت منذ الليل ، أما القصة كما سمعتها من الأخ (حسن دوح) ورفاقه فكانت تتلخص فى أن قوة من اليهود حاولت اقتحام خط الدفاع ، قبيل الغروب ، وكان يصحبها عدد من السيارات الخفيفة ودبابة واحدة من طراز (شيرمان)

وكان الإخوان يحتلون الأجزاء الأمامية من خط الدفاع فاشتبكوا بشدة مع قواته ورغم سيول النيران التى هطلت على مواقعهم إلا أنهم ثبتوا فيها ولم يفكروا فى التراجع للوراء ، وشاء حسن الحظ أن تصيب إحدى طلقات المدافع المضادة الدبابة فتعطلها عن المضى ويحاول اليهود إصلاحها ، لكنهم يفشلون فى ذلك ، فلا يملكون إلا التراجع من حيث أتوا .

كان واضحاً أن العدو لا يريد احتلال العريش ولكنه يرمى إلى (تثبيت) القوات التى بها ، ولفت نظر القيادة المصرية إليها حتى يهاجم الغرض الأصلى الذى يهدف إليه وهو معسكرات رفح حيث القاعدة التموينية الرئيسية للجيش ، وحيث القيادة العامة للقوات ، وكان يريد أيضاً القضاء التام على الروح المعنوية فى الشعب والجيش ، وكسب دعايات ضخمة لجيش إسرائيل حين يسمع الناس أنه يهاجم القوات المصرية فى عقر دارها ، ولقد قوى عندى هذا الشك حين أردت الرجوع إلى رفح بعد يومين من هذه الحوادث فوجدت أن العدو قد سبقنى فى احتلال نقطة على الطريق الرئيسى حتى يعزل القوات ، وفى نفس هذا اليوم كانت رفح تستهدف لأكبر هجوم خلال تلك الفترة إذ احتل العدو « تبة الأسرى » ، واخترق الأسلاك المحيطة بمعسكر « رفح » نفسه ولكن القوات المصرية استطاعت أن تحصره فى بعض المواقع وأن تنزل به هزيمة منكرة تضطره إلى الانسحاب تاركا خلفه مئات من القتلى وأكداسا من الأسلحة والعتاد .

وإحقاقا للحق لا يسعنى إلا أن أشيد بالجهود التى بذلها (اللواء فؤاد صادق) فى صد هذا الهجوم ولقد حدثنى الأخ المجاهد (محمد على سليم) — وكان يشترك بمجموعة من الاخوان فى هذه المعركة — إن القائد العام كان يتنقل بنفسه بين مواقع الجنود يستحثهم على الثبات ، ويذكرهم بعظم التبعة التى ألقيت عليهم ، تبعة المحافظة على أرض مصر وكرامة جيشها ، ولقد أبدى الضباط من مختلف الرتب فى هذه المعركة كثيراً من الشجاعة والجرأة وكان لموقفهم هذا أبعد الأثر فى ثبات الجنود . ونجاح المعركة .

ظل الإخوان موزعين على أهم مراكز الجيش ، يشاركون فى الدفاع عن المناطق التى يحتلها ، ويقومون بأعمال الداوريات على طول الجبهة ، وانتشرت قواتهم فى الجنوب بين (غزة) و (دير البلح) و(خانيونس)

و (العريش) أما فى (غزة) فقد احتلت قوة كبيرة منهم بقيادة الأخوين المجاهدين (عباس فرج) و (السيد الشراقى) جزءاً هاماً من خط الدفاع عن المدينة وضواحيها وكان اللواء (محمود فهمى نعمة الله بك) قائد المنطقة يعتمد عليهم اعتماداً خاصاً فى الدفاع عن أخطر المناطق والقيام بالداوريات المقاتلة على طول القطاع .

ورغم اشتداد وطأة الصقيع وهبوب العواصف الثلجية على الجبهة دون اعطائهم كفايتهم من الوقاية والغطاء ، ورغم الأنباء المثيرة التى كانت تتسلل إلى الميدان عن الجرائم الوحشية التى يرتكبها الرئيس السعدى الجديد (ابراهيم عبد الهادى) ضد اخوانهم وأهليهم فى أرض الوطن ، رغم كل هـذه العوامل ظلوا يقومون بما يوكل اليهم من خطير الأعباء دون أن يشغلهم مايسمعون من أنباء وما يحسون به من برد وانهاك عن الوقوف بجانب الجيش ، حتى أعلنت الهدنة وتوقف القتال فى جميع الجبهات .

انتهت معركة « العريش » على الصورة التى ذكرنا وتراجع اليهود إلى « أبو عجيلة » وأخذوا يعيثون فى شبه جزيرة سيناء فسادا فنسفوا جسر « أبو عجيلة » الضخم كما سبق لى أن ذكرت ودمروا كثيرا من القرى المصرية واستولوا على كل مافيها ، واحتلوا المطارات السرية بعد أن وضعوا أيديهم على مافيها من أجزاء وقنابل .

وإذا ذكرت المطارات السرية بالذات لا يسعنى إلا أن أسجل خطأين كبيرين أحدهما على وزارة الحربية والقيادات العليا فى الجيش ، وثانيهما على المسئولين المحليين الذين أنيط بهم واجب الدفاع عن هذه المطارات فى تلك الفترة ، أما الخطأ الأول الذى نحمله لوزارة الحربية وللقيادة العليا للجيش فهو سماحها باستعمال هذه المطارات رغم أنها تكاد تكون ملاصقة للخطوط الأمامية ، والمعروف عسكريا فيما يعلم الخبراء أن المطارات تكون

دائما فى المناطق الخلفية البعيده ، حتى لا تكون معرضة لغارات العدو الجوية ، ولاحتمال سقوطها إن نجح هذا العدو فى إحدى هجماته واخترق خطوطنا الأمامية كما حدث فى معركة «سيناء» ، ثم إن معركه « الحدود » استغرقت فى الواقع حوالى أربعة أيام منذ سقوط « العوجة » وكانت هذه مهلة كافيه لتفريغ هذه المطارات وإخلائها .

أما الخطأ الثانى الذى نسجله على المسئولين المحليين الذين أنيط بهم واجب حماية هذه المطارات هو أنه كان فى مقدورهم تفريغها حين قرروا الانسحاب منها أو على الأقل تدمير ما فيها من قنابل وإحراق كميات البترول الهائلة وذلك أضعف الإيمان ، لأن النتيجة كانت استيلاء العدو على البترول واستعماله فى الحرب ، واستيلائه أيضا على نوع ضخم فريد من قنابل الطائرات وهو النوع الذى استعمله بعد أيام قلائل فى ضرب مراكز الجيش فى محطات « غزة » والعريش وبقية أنحاء الجبهة . !

أما القرى المصرية التى دمرت « كالقصيمة » و «الحسنة» و «الكنتلا» قد استولى اليهود على كل ما فيها ومضوا يأسرون مايلقونه من الجنود الذين افترقوا عن وحداتهم حتى وصل الرقم إلى بضع مئات .

ولقد حدثنى بعض إخواننا من ضباط الجيش وجنوده ممن قدر لهم أن يعيشوا فترة من أعمارهم داخل معسكرات الأسرى فى (إسرائيل) إن ضباط المخابرات اليهودية كانوا يسألون الأسير دائما إن كان ممن ينتسبون لهيئة الإخوان المسلمين ، وكان هؤلاء الجنود يعجبون أن يصل اهتمام اليهود بالاخوان وجنودهم إلى هذا الحد ، ذلك أن اليهود كانوا يقتلون الأسرى من الاخوان ، ولقد مر بك كيف أن الشهيد (على الفيومى) جرح فى معركة (الحدود) وكان يمكن معالجته لولا أنهم

أجهزوا عليه ، وكانت لحيته الخفيفة هى الدليل الكافى على أنه من جنود هذه الجماعة (الخطرة) الملعونة فى نظرهم .

بقيت قوة من الاخوان مع الجيش فى منطقة (العريش) بقيادة الأخ المجاهد (حسن دوح) وكان القائمقام (سيف الدين بك) قائد المنطقة فى ذلك الحين يعهد إليهم بأعمال الداوريات فى جميع أرجاء الجزيرة وقد جرح عدد كبير منهم خاصة حين وكل إليهم تطهير حقول الألغام التى بثها اليهود فى كثير من المناطق وعلى الطريق الذى يصل العريش (بأبو عجيلة) .

وكان أبرز ما قام به الإخوان من أعمال خلال تلك الفترة قيامهم بداورية قتال أخذت تجوب أنحاء الجزيرة لتؤمن البلاد وتوهم العدو أن القوات المصرية قد عادت لاحتلال هذه المنطقة من جديد ، فقاموا بهذا العمل الخطير خير قيام ، ووصلت داورياتهم إلى (القصيمة) و (الحسنة) وحدود فلسطين من جهة النقب الجنوبى .

وقد أصيب أيضا فى هذه الدواريات كثير من الإخوان واستشهد الأخ الكريم (مكاوى محمد مصطفى) من إخوان العريش حين تعرضت لسياراتهم طائرة يهودية مطاردة واكتسحتها بالنيران وأطلق الاخوان عليها نيران مدافعهم الرشاشة ، غير أن طلقة طائشة أصابت المجاهد (مكاوى) نقل بعدها إلى إحدى المستشفيات حيث أسلم الروح شهيدا فى ٧ من يناير سنة ١٩٤٨ . .

وأخيرا جلت القوات الاسرائيلية عن (سيناء) ، وأود أن أقرر انصافا للواقع — أن جلاءها لم يكن نتيجة ضغط عسكرى من جانبنا وانما كان نتيجة محتمة لضغط انجليزى أمريكى ، ذلك أن الحكومة البريطانية وجهت إنذارا شديدا لحكومة اسرائيل وهددتها بالاشتراك فى المعركة



المجاهد الشهيد (مكاوى محمد مصطفى)
استشهد فى معارك العريش الدفاعين

الدائرة فى سيناء عملا بمعاهدة سنة ١٩٣٦ التى تحتم عليها ذلك ، وفعلا اشتركت الطائرات الانجليزية فى ضرب (أبو عجيلة) وسقطت منها خمس طائرات على مقربة من الأراضى اليهوديه ، وأحدث سقوطها دويا سياسيا عظيما فى مختلف الأوساط الدولية ، وكذلك تحركت الفرقة البريطانية 16 th / 5 th Lancers التى ترابط فى منطقة (فايد) من قواعدها ، وأخيرا جلت القوات الاسرائيلية عن الجزيرة ، وكانت خطة سياسية بارعة من الانجليز حين أثبتوا عمليا لمصر أنها فى حاجة لمعونتهم العسكرية دائما ، وكان هذا هو كل ما يريده المستعمرون من صنع العصا السحرية (دولة اسرائيل) فى قلب العالم العربى . !

١٩ — إلى المعتقلات !!

[أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب] . « قرآن كريم »

تجمع الإخوان فى معسكراتهم بعد نهاية الحرب وإعلان الهدنة ، وكانت نفوسهم ممتلئة بالغيظ والحقد على هذه الحكومات المتداعية التى أضاعت فلسطين بسياستها وعرضت كرامة الأمة والجيش للذلة والمهانة ، ومما كان يزيد فى غيظهم وألمهم أن تقوم هذه الحكومات — خاصة فى مصر — فتستر ضعفها وهزيمتها وتستأسد على الأبرياء العزل من رعاياها المخلصين ، وتصب على رءوسهم أنواعا من التنكيل ، لم يعرفها التاريخ الإنسانى منذ فارق عصور الهمجية الأولى .

وكان واضحاً أن الحرب الفلسطينية قد انتهت وتحولت إلى مفاوضات ومساومات وبدأت تأخذ طريقها إلى الحلقة المفرغة التى تدور فيها الحكومات العربية زمناً طويلا ، وشعر الإخوان أن بقاءهم فى الميدان أصبح أمراً لا قيمة له ولا نفع من ورائه .

ولقد مر بك كيف كانوا ينفرون من الهدنات المحدودة الأجل ، فكيف تقبل نفوسهم هدنة لا أجل لها إلا أن يصل الطرفان إلى تسوية سلمية عن طريق المحادثات والمفاوضات ، ولقد كان من رأى الإخوان وقد فشلت الحرب النظامية أن تستمر « حرب العصابات » الشعبية بينما تعلن الحكومات العربية تنصلها من هذه العصابات ، وكانت فكرة الإخوان

تلخص فى إرباك إسرائيل بحركات شعبية تجعلها فى قلق دائم ، وتجعل جيشها الوليد فى حالة حرب طويلة المدى مما يؤثر فى سير اعداده وتدريبه ، بينما تظل جيوشنا النظامية عاكفة على ما هى فيه من اعداد وتدريب ، ولقد حملت هذا الرأى بنفسى وحاولت أن أكسب له أنصاراً من كبار الضباط غير أن الحوادث التى جاءت بعد ذلك لم يكن فيها ما يشجع على المضى فى الفكرة حتى تخرج إلى حيز التنفيذ .

وبينما نحن على تلك الحالة إذ حملت إلينا الأنباء نبأ اغتيال الأستاذ المرشد أمام « جمعية الشبان المسلمين » ، وكان نبأً شديد الوقع على نفوس الاخوان ورجال الجيش ، أما الاخوان فقد كانوا يبكون فى ثورة وألم ، وفيهم من أذهله المصاب فأفقده الحركة ولزم الفراش ، ومن هزته الصدمة فوقع على الأرض مغمىً عليه .

هذا ما كان من أمر الاخوان أما رجال الجيش فلقد زارنا خفية عدد كبير منهم من مختلف الرتب ، وكانت تبدو على وجوههم علامات التأثر البالغ والحزن العميق ، وتحول المعسكر إلى مأتم باكٍ حين ضمنا المسجد عقب صلاة الظهر ، وقت أتحدث فى الاخوان ولم يكن فى ذهنى غير مقالة أبى بكر فى مثل هذا الموقف (من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت) « إنك ميت وإنهم ميتون » وأخذت أردد هذه العبارات دون أن أقول شيئا غيرها .

ولم نكن نشعر بقلق على مستقبل الدعوة بل كنا نؤمن أن « حسن البنا » إن كان قد نجح فى دفع الاسلام خطوة فى حياته ، فإن مقتله على هذه الصورة الوحشية سوف يدفع الاسلام خطوات بعد مماته .

ولقد سمعت كثيراً من ضباط الجيش يرددون إشاعات كثيرة عن سر

هذا الاغتيال الدنىء ، وكانوا كلهم يجمعون ويؤكدون أن الحادث جاء نتيجة لتدبير طويل اشتركت فيه السلطات الرسمية بدون استثناء إما بطريق التنفيذ الفعلى ، أو بطريق الايحاء والتوجيه . . . ! !

ولقد بلغ من تأثر الضباط وغضبهم أن حتم على فريق منهم فى إقامة حفل تأبين فى المعسكر أدعو إليه جميع الضباط ليستطيعوا التعبير عن شعورهم إزاء هذا الجرم البربرى القذر ، وفعلا أجبت رغبتهم وحاولت إقامة هذا الحفل غير أن اللواء « فؤاد صادق باشا » استدعانى يومها إلى مكتبه وطلب منى أن أصرف النظر عن هذه الفكرة مخافة أن تؤثر على موقفه ويؤولها المسئولون فى مصر تأويلا سيئاً !

أمام كل هذه العوامل الطارئة والحوادث الجديدة أبدى الاخوان رغبتهم فى مغادرة الميدان والرجوع إلى بلدانهم لمباشرة مصالحهم بعد ما انتهت الحرب واتضح ألا أمل فى مواصلتها ، ولقد حملت رغبتهم إلى اللواء « فؤاد صادق باشا » الذى حاول اقناعهم بالبقاء مخوفا إياهم من الاعتقالات والاضطهاد فى مصر ولكنهم رأوا ألا سبيل للبقاء ما دامت مهمتهم قد انتهت ، وكنا نستبعد الاعتقال ولا نتصور أن يصل الاجرام بالسعديين وحلفائهم إلى هذا الحد ، حد اعتقال المجاهدين الأبطال الذين أعجب بهم الخصوم والحلفاء على السواء .

وفاتنا أن الحكومة التى تبيح لنفسها اعتقال النساء والشيوخ والأطفال وتسليط جنودها البرابرة لتفقأ العيون وتهتك الأعراض ، هذه الحكومة لن تستنكف ارتكاب أى جريمة بعد ذلك . ولقد حاول اللواء « فؤاد صادق باشا » إقناع الإخوان بضرورة البقاء وأرسل بعض الضباط من أركان حربه لإقناعهم ولكنهم أبوا وأصروا على ضرورة العودة إلى أهليهم

ومصالحهم . وفى يوم ١٤ فبراير حضر من الضباط من يخبرنا أنه قد تقرر نقلنا إلى مصر حيث نسرح فيها كل واحد إلى بلده ، ثم وجه إلى الكلام قائلا إن على أن أعد المعسكر لتسليمه إلى مندوبى الجيش قبل هذا المساء .

ولم يكد يفرغ من حديثه حتى حضر للمعسكر كثير من ضباط الجيش من مختلف الأسلحة ليباشروا عملية التسليم وأخذوا يحصرون أسلحة الإخوان الخاصة وسياراتهم التى أحضروها معهم أو التى غنموها من العدو خلال فترة الحرب ، وحين انتهت عملية التسليم جاءت السيارات لنقل الأفراد إلى « رفح » ، ولقد قيل لنا إننا سنبيت فيها هذه الليلة لنركب القطار فى الصباح . نزلنا رفح فوجدنا جمعا من الضباط ينتظرنا وقد أعدوا لنا « عنبرا » كبيرا لنبيت فيه جميعا . . . وفى الصباح قمنا لنصلى الصبح فوجدنا « العنبر » محاطا بالأسلاك الشائكة وقوات كبيرة من الجيش تحيط به من كل جانب وقد صوبت الأسلحة الرشاشة ومدافع « الفيكرز » إلى داخل العنبر ، وجاء بعض كبار الضباط ليقولوا لنا إنه قد تقرر اعتقالنا فى هذا « العنبر » حتى تصدر تعليمات أخرى من القاهرة .

فوجئنا بهذا القرار الذى لم يكن أحدنا يتوقعه ، ولكننا تحملنا الصدمة بصبر وجلد ولقد أسفت كثيرا حينما لاحظت أن الجنود الحراس يجهدون أنفسهم بدوام المراقبة الدقيقة ، وكان يبدو عليهم التحفز والحذر الشديد ، فاقتربت من أحدهم أسأله : انت خايف كده ليه يا بنى ؟ قال : « يافندم إحنا مانعرفش إيه الحكاية ، هم خوفونا وقالوا خدوا بالكو منهم قوى لحسن دول كانوا بيخشوا مستعمرات اليهود زى الشياطين » فبعثت فى طلب قائد الحراسة وقلت له : أرجو أن تريح أعصاب هؤلاء الجنود المساكين ، وأرجو أن تثق أننا نستطيع أن نخرج لو أردنا الخروج ،

ولكن ثق أننا لن نحاول هذا إطلاقا ، ونحن نقدر موقفكم ولا ننوى إحراجكم أبداً ، وأخذ الرجل يعتذر ويوضح موقفه المحرج ولم أكن فى حاجة لتوضيح موقفه فقد كنت أعلم أن أبغض الأمور إلى نفوس ضباط الجيش هى أن يرونا فى هذا الموقف المؤلم . !

وجاء اللواء « فؤاد صادق باشا » ليزور الاخوان بعد يومين وكان يحاول إخفاء عواطفه المهتاجة وراء ستار من الصرامة غير أن عيناه كانتا تدمعان حين أخذ يجيل بصره فى وجوه أبطال الأمس و « مساجين » اليوم ، وحاول أن يبرر موقفه فقال إن الحكومة السعدية طالبته مراراً باعتقالنا وكان يراوغ فى ذلك وإنه الآن مضطر للاحتفاظ بنا فى هذا المعسكر حتى لا نكون عرضة للتشريد إلى أقصى المعتقلات لو نزلنا إلى مصر . ! !

وقال إن فى نيته أن يبذل أقصى ما فى وسعه من جهد لتخفيف شدة الاعتقال ، وكان يأمر ضباطه أمامنا بتلبية مطالب الاخوان واعتبار ذلك موافقة منه على كل ما يطلبون ، ثم قال فى ختام حديثه إن الجيش لن يستطيع أن يفى الاخوان حقهم من الاكرام والتمجيد ، وليس فى وسعه إلا أن يواسيهم فى محنتهم كما وقفوا معه واستبسلوا فى معاونته فى محنته .

ظللنا فى المعتقل قرابة شهرين انضم خلالها لنا بعض إخواننا من مجاهدى « صور باهر » بقيادة « اليوزباشى محمود عبده » ، وافتتح الجيش (معتقلا) آخر لاستقبال قوة كبيرة من جنود الاخوان فى (بيت لحم) و (الخليل) .

ومضت حياة المعتقل رتيبة هادئة قطعها الاخوان فى العبادة والدراسة وجعلوا من المعتقل مدرسة يتعلمون فيها ما خفى عنهم من شئون الدين



الفريق (محمد حيدر باشا) بين (صادق باشا) و (المهدى باشا) وذلك احدى زياراته للميدان

والدنيا ، ويعقدون فيه مناظرات يتعرضون فيها لمشكلات العالم الاسلامى ، ومحاضرات يوضحون فيها الدروس العسكرية المستفادة من اخطاء حملة فلسطين ، وافتتحوا قسما لمكافحة الأمية ونجحوا فى تعليم الاخوان الأميين من بينهم .

وكان المعتقل فرصة طيبة لتعارفهم وزيادة الروابط فيما بينهم ، وهكذا شأن المؤمن يحيل المحنة إلى منحة ، والعذاب الى سعادة ولذة ، والمعتقلات إلى مدارس وجنات (والمؤمن بخير على كل حال وإن روحه لتنزع من بين جنبيه وهو يحمد الله عز وجل).

ولقد حدث خلال فترة الاعتقال أن زار الميدان الفريق « محمد حيدر باشا » وزير الحربية والبحرية حينذاك وتفقد الجبهة وزار « التبة ٨٦ » التى جرت عليها إحدى المعارك الكبرى الأخيرة ، ومثل أمامه « بيان عملى »



مجموعة من المجاهدين خلف الأسلاك الشائكة
في معسكرات الاعتقال في رفح

للمعركة اشتركت فيه أسلحة مختلفة من الجيش ، والطريف أن أفراداً من الكتيبة السعودية اشتركت أمامه في « التمثيل » ولعلها كانت تمثل دور الاخوان المسلمين في المعركة ، وصافح « حيدر باشا » أفراد هذه القوة وقال لهم مامعناه إنه سمع ببطولاتهم في هذه المعركة ولم يستغرب ماسمع من أمر هذه البطولة ، وهم سلالة الأربعين رجلا الذين رافقوا ابن السعود حين استرد ملك آبائه وأجداده ، وحملت الصحف هذا التمجيد والاطراء الذي كان فوق مافيه من « جليطة » ونبش لجراح عربية قديمة — مجانباً للحقيقة والواقع ذلك أن واحداً من أفراد الجيش السعودي لم يشترك في هذه المعركة ، أما الأبطال الحقيقيون فقد نسي حيدر باشا أن يزورهم ، ونسي أن يعمل لدى رئيسه السعدي للافراج عنهم مكافأة لهم على أعمالهم وبطولتهم ..!!

وحدث بعد مدة أن زار الفريق « عثمان المهدي باشا » رئيس



مجموعة من المجاهدين خلف الأسلاك الشائكة في معسكرات الاعتقال في العريش

أركان حرب الجيش الميدان وأبدى رغبته في لقاء قائد « المعتقلين » فبعث اللواء « توفيق مجاهد بك » — الذي تولى قيادة القوات عقب نزول اللواء فؤاد صادق باشا إلى مصر — في طلبي ، وذهبت إليه في رئاسة القوات فلما دخلت عليه وحييت ، أخذ يطري على الاخوان ويبرر موقف الجيش فيما حدث لهم .

ومما قاله المهدي باشا في هذا المجال (إن مصر كلها لن تنسى لهم هذا الموقف النبيل الذي وقفوه مع جيش البلاد في محنته ، وإن الحقيقة سوف تتضح يوماً ما ليعلم الرأي العام حقيقة موقفهم في فلسطين) ، ثم رجاني أن أحمل أزكى تحياته للاخوان وأن أبلغهم على لسانه أنه يعد بسرعة الإفراج عنهم ، ويعد أيضاً بتوفير أعمال لكل من يرغب منهم في العمل بمجرد الإفراج عنهم ، وحييته وانصرفت راجعاً إلى « المعتقل » .

غير أنى من حسن الحظ لم أبلغهم هذه الوعود [illegible] ذهبت كما ذهبت وعود كثيرة قبلها، وامتد الاعتقال عاماً آخر وحين خرج عن «المعتقلين» وكانت غالبيتهم العظمى قد فقدت أعمالها الحكومية والحرة ، حاولت الاتصال بعثمان المهدى باشا لأذكره بوعوده غير أن بعض كبار الضباط أفهمونى أن الرجل محرج وأن ليس فى استطاعته أن يفعل شيئاً .

وفى أوائل مايو من عام ١٩٤٩ وكنا لا نزال فى معتقل « رفح » العسكرى تجمعت قوات يهودية حول « غزة » وتوقعت قيادة الجيش أن يشن اليهود هجوماً مفاجئاً عليها ، واختلف المسئولون فى تحديد وضع « الاخوان » المعتقلين لو نشبت المعارك فعلا ، ورأوا أن يستطلعوا رأى الاخوان أنفسهم فيما لو طلب إليهم الإشتراك فى الأعمال الدفاعية ، وتحدث معى كل من البكباشى « عبد الجواد طباله » قائد القوة الخفيفة ، والصاغ « جمال الدين خليفة » وكان يقود قوة الحراسة على المعتقل ، وقالوا لى إن القيادة تريد أن تعرف رأى الاخوان لو قام اليهود بأعمال عدوانية وهل فى نيتكم التعاون معنا فى صد هذا الهجوم إن وقع ؟ قلت لهم : قولوا للقائد العام إن الاخوان المسلمين يسعدهم دائما أن يقفوا فى صف الجيش فى محنه ، ذلك لأننا نؤمن أن هذا الجيش ملك الأمة وفلذة كبدها ، ونحن أحرص الناس على كرامة هذه الأمة وسمعتها ؛ ولو لم تكن لدينا أسلحة للعمل بها فإن أخشاب هذا المعتقل تكفى لتسليحنا ، فسروا كثيراً بما سمعوا ومضى الصاغ (خليفة) يكتب تقريره للمسئولين ، غير أن التجمعات اليهودية لم تلبث أن تلاشت وعادت الحالة إلى ما كانت عليه . ولم تلبث حالة التوتر أن عادت ثانية حين ضرب اليهود « خزاعة » بمدفعيتهم فرأى الجيش إخلاء « رفح » من المعتقلين ونقلهم إلى مدينة العريش بعيداً عن الخطوط الأمامية .

وتم النقل فعلا فى يوم ١٨ يونيه . وفى العريش نظم الاخوان أنفسهم على أساس إقامة طويلة المدى وعادوا إلى تنظيم دروسهم ومحاضراتهم حتى كان يوم عيد الفطر حين دوت فى الأرجاء رنة الفرح بزوال حكم الإرهاب . وقيام وزارة مؤتلفة جعلت مهمتها تصفية المعتقلات .

ولكن هذه الوزارة لم ترفع الظلم بالسرعة التى ترقبها الناس . بل أخذت تماطل وتراوغ وتفرج عن المعتقلين آحاداً متفرقة — رغم الظلم الواضح الذى وقع عليهم دون وجه حق — مما جعل الناس يعتقدون أنها لم تقم إلا لتأدية دور معين فى مؤامرة القضاء على فكرة الاخوان . وأنها لم تكن فى الواقع إلا صمام الأمان الذى استعمل فى وقت بلغ فيه الكبت إلى أقصى مراحله ولم يبق إلا أن يقع الانفجار فيحطم ويدمر .

أفرج عن المعتقلين وسافر المجاهدون إلى أوطانهم آحاداً متفرقة ولم تنس الحكومة القائمة أن تستقبلهم اسوأ استقبال فتلق بهم ليالى فى سجون الأقسام قبل أن تبعث بهم إلى أوطانهم تحت الحراسة الشديدة كما تفعل بالمجرمين وقطاع الطرق ، وكان هذا هو الجزاء الذى أعدته الحكومة المصرية لاستقبال أول مجاهدين عرفتهم مصر فى هذا الجيل . وواضح أن الحكومة لم تخرج فى كل هذا عن الخطة التى وضعها المستعمر وربائبه لقتل روح التضحية فى الشعب ، وصرفه عن ميدان الكفاح الجدى إلى السير فى مواكب الزعامات الخاوية . هذا جزاء الحكومة الذى أعدته للمجاهدين . أما الجزاء الذى أعده الله لهم فهو مسطور عنده (وعد الله لا يخلف الله وعده) . (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين . . .)

خاتمة

« وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا
مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا
وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا » (قرآن كريم)

إلى الكفاح من جديد

هذه هى خلاصة مذكرات كتبتها أثناء تنقلى فى فلسطين ومزاملتى لأغلب الوحدات التى حاربت فيها ، ولقد انتهت الجولة الأولى من حرب فلسطين . فهل انتهت الحرب الفلسطينية ؟

وهل أشرفت الشعوب العربية والاسلامية على سلم دائم طويل ؟

وهل يمكن أن نكتب خاتمة الكتاب ونحن مطمئنين أننا نسجل الحوادث من بدايتها لمنتهاها ؟

الواقع إن كل الدلائل تشير إلى أن الحرب لم تنته ، وكل ما حدث فى الماضى وما يقع اليوم يمهد لمواصلتها ويدفع بنا قدما للسير فى طريقها ، وأن كل ما حدث فى الفترة الماضية وما أجملنا وقائعه فى هذا الكتاب لا يعدو أن يكون تمهيداً لحرب طويلة المدى مجهولة النتائج .

الحرب الفلسطينية لم تنته ، بل هى بعبارة أدق لم تبدأ وإن كان دور التمهيد لها قد كمل ، وبدأنا نسير على الرغم منا إلى ساحة المعركة الحاسمة ، فأى أوضاع خلقتها الحركة الماضية ؟ وأين نحن الآن بعد أن توقفت العمليات الحربية إلى هدنة مسلحة ؟

دعونا نجوس خلال الأرض المقدسة ونتحسس طريقنا وسط الخرائب والأنقاض لنرى الأوضاع الجديدة التى خلفتها الجولة الماضية إننا سنجد أنفسنا أمام حقائق ثلاث لاعهد لنا بها من قبل ولا مفر من مواجهتها بعزم وصراحة .

أما هذه الحقائق الثلاث فهى :

١ — قيام دولة إسرائيل .

٢ — تشريد الشعب العربى الفلسطينى .

٣ — تصدع الوحدة العربية .

١ — اسرائيل :

وصلت السياسة الإنجليزية لأبعد غاياتها ، فقامت دولة « إسرائيل » ، وتكون « الخراج » الخطر فى أدق أجزاء الوطن العربى بعد أن هيأت بريطانيا له وسائل التكوين ، وتركته ينمو ويتوسع ويمتلأ بإفرازات السم والدمار ، وبات واضحا أن الأمم العربية الإسلامية إن لم تسارع بفضه والقضاء عليه فإن الجسم كله سيتسمم ويذبل ويسرع نحو خاتمته الرهيبة .

وإسرائيل الحاضرة فى نظر اليهود لا تزيد عن كونها نقطة ارتكاز تحشد فيها قواتهم وأموالهم ومواهبهم ، حتى إذا اكتمل لهم مايريدون من قوة تدافقت أمواجهم فى زحف رهيب لتغمر الأرض الموعودة . حيث إمبراطورية إسرائيل التى تمتد من الفرات الى النيل . . والافقيم هذا الاعداد الهائل الذى تموج به أرض اسرائيل ؟ وفيم هذا الجهاز العسكرى الجبار الذى يستهلك وحده ثلث ميزانية الدولة ، وكأن الحرب فى نظرهم قد أصبحت على الأبواب ؟ قد يقول قائل إن إسرائيل مضطرة لاعداد نفسها وهى تشعر أنها تقع فى محيط يبغضها ، ويتحين الفرص للانقضاض عليها

ولكن ينسى هؤلاء أن اسرائيل مطمئنة لسلامتها فى حدودها الراهنة مطمئنة وهى ترى ما عليه هذه الدويلات العربية من ضعف وانحلال ،

ومطمئنة وهى تشعر أن بريطانيا وأمريكا تقفان فى صفها وتؤيدانها بكل ما تملك ، حتى سمعنا وزيراً أمريكياً مسئولا يقول منذ أيام (يجب أن تعلم الدول العربية أن إسرائيل خلقت لتعيش) ، ولقد بلغ من اطمئنانها لهذه السلامة أنها تفرض آرائها على الدول العربية . وتوجه لها اللطمات القاسية واحدة تلو الأخرى دون أن تجرؤ احداها على مجابهة العدوان أو على الأقل التظاهر بنيتها فى مجابهة العدوان .

واذن فما الذى يدفع اسرائيل لتوجيه همها لشئون الجيش والدفاع ؟ ليس من شك أن ذلك الإعداد يقوم لمواصلة العمل من جديد واقتناص الفرص المناسبة لمغالبة العرب على بعض ما فى أيديهم . واسرائيل تخشى أن تتغلب حركات الاصلاح فى الدول العربية فتفيق من غشيتها وتحطم طواغيت الحكم التى تقف فى طريقها وتمنعها عن مواصلة التقدم ، فلا تستطيع أن تنال منها كسباً جديداً .

والاستعمار البريطانى حين احتضن الفكرة الصهيونية وهيأ لها الوسائل والأسباب لتنجح وتنتصر ، كان يسلم بمطالبها كلها ويؤمن بالبرنامج الذى تسعى لتحقيقه ، وإن كان قد نجح فى انتزاع جزء من فلسطين فما لا شك فيه أنه يواصل السعى من جديد ليسلم بقية البضاعة ويصل بالفكرة إلى آخر مراحلها المبتغاة .

اسرائيل اليوم تموج بجيش صهيونى كبير ، والإعداد فيها قائم على قدم وساق . وهذا الجيش ليس فى الواقع إلا وحدة من جيشها الكبير الذى يتغلغل فى الدول العربية ويسيطر على كثير من منابع الثروة فيها ، ويرصد حركاتها وسكناتها وفيه مجندون ومتطوعون من باشاوات العرب

وكبارهم ممن يتعاملون مع اليهود ويعملون فى شركاتهم ومؤسساتهم ويساهمون فى المعركة المحتدمة بجهد مقصود وغير مقصود .

ولقد حدثنى أحد ضباط المخابرات أخيراً إن الحكومة الاسرائيلية قد افتتحت مدرسة فى إحدى المستعمرات الواقعة حول تل أبيب ، لتدريب الشباب اليهودى الذى يعيش فى الدول العربية على أعمال الجاسوسية والتدمير وأن كثيراً من اليهود المصريين والسوريين ، يزحون إلى هذه المدرسة بطرق مختلفة ، حيث يتلقون دروسهم فى الجاسوسية وأعمال التخريب ثم يعودون إلى « أوطانهم » مصر أو سوريا وينتظمون فى الجيش اليهودى السرى حتى تحين الفرص المنشودة لتطبيق ماتعلموه . هذا الجيش الداخلى يزيد فى خطورته عن قوات إسرائيل العسكرية ، لأنه موجود فينا ويتزى بزينا ويتحدث بلغتنا ، وينتظر الوقت المعلوم ليؤدى فيه دوره المرسوم . وحتى الدول العربية التى كتب الله لها السلامة وطهر أرضها من هذا الرجس الوبيل ، تحاول اليهودية الدولية أن تدخل إليها بعض أفراد هذا الجيش الخطير ولقد حدثنى زعيم عربى كبير له مكانته وإلمامه إن اليهود لا يزالون يلحون على حكومة أمريكا ويوسطونها لدى ابن السعود ليسمح لعدد من المهاجرين المشردين بدخول أرض الجزيرة العربية وليعودوا إلى القرى التى طردها منهم نبى الاسلام منذ أربعة عشر قرن من الزمان ، وقد كانت هذه المساومة العجيبة على رأس الأمور التى أثارها الرئيس الأمريكى الراحل (روزفلت) مع الملك ابن السعود حين اجتمع به على أرض مصر فى نهاية الحرب العالمية الأخيرة .

هل فهمتم يا شباب الاسلام ؟

وهل أدركتم حقيقة هذا الخطر الوبيل ؟

وإذا كان ابن السعود قد رفض هـذا العرض ومانع فى إدخالهم كمهاجرين لأرض الحجاز ، فلاريب أن عدداً كبيراً منهم قد دخل من زمن كجنديين وفنيين مع القوات الأمريكية فى الظهران ، والشركات الأمريكية فى مناطق مختلفة من أرض الاسلام المباركة .

وإذن فإسرائيل قائمة فعلا ولن يقلل من هـذه الحقيقة أن تضيف صحفنا إليها لقب « المزعومة » كلما تحدثت عنها ، واسرائيل تستعد وتهىء نفسها لعدوان جديد ، ولن يقلل من هـذا الخطر أو يهون من شأنه ما يردده دعاة التردد والهزيمة عن الضائقة الاقتصادية فيها ، وعن رغبتها الأكيدة فى السلام .

وإذا كانت هذه هى اسرائيل وتلك هى حقيقة الخطر الذى يتحفز أمامنا فماذا أعددنا لمجابهته ووقفه عند حده ؟ سؤال تجيب عنه الأحداث والأيام .

٢ — اللاجئون العرب :

نحن أمام شعب محطم مكدود ، أكلته الحرب وقذفت به أمواجها العاتية زبداً رابيا على شواطئها السحيقة ، شعب ساهم العالم المتحضر كله فى تحطيمه وتشييع جنازته ، وساهمت الجامعة العربيه وحكوماتها بالنصيب الأوفر .

والحق إنى أحس بنقمة شديدة على هذه الجامعة العربية — ولست أشك أن القارىء يحس بما أحسه — كلما ذكرت محنة فلسطين وحالة شعبها البائس . ولا أمر على معسكرات اللاجئين وتصافح عينى صور البؤس والفاقة التى ارتسمت على وجوه سكانها، حتى أصب اللعنات على أولئك الذين

ساهموا فى تنفيذ هذه المؤامرة الدامية . ولا أنسى إذا لعنت اليهود مرة أن ألعن الإنجليز مرتين ثم ألعن الجامعة وحكوماتها ألف مرة ، ذلك لأن اليهود كانوا يعملون لمصلحتهم وينفذون فكرة آمنوا بها وسعوا إلى تحقيقها ، والانجليز حينما أقاموا « اسرائيل » لم يقيموها حباً فى اليهود وسواد عيونهم ، ولـكن حباً فى امبراطوريتهم وتمشيا مع مصالحها التى تفرض ايجاد « توازن » فى الشرق العربى يضمن لبريطانيا البقاء فى ربوعه .

ولكن أى عذر نلتمسه لزعماء العرب ورؤساء حكوماتهم وقد وقفوا من القضية موقفا متداعيا حتى كبر الخطر واستحال التغلب عليه ، وأى عذر لهم اليوم بعد أن وقعت الهزيمة وبدأ العدو يتحفز لوثبة أخرى ، وهم لايزالون يجتمعون ويقررون ولا هم لهم إلا القضاء على شعوبهم وكبت كل حركة قوية تظهر فيها ، وكأنهم قد رضوا بالأمر الواقع ولم يبق إلا أن يتبادلوا التمثيل السياسى مع اسرائيل . . . ! !

هـذا الشعب فقد أرضه ووطنه ، وفقد معهما كرامته ومعنويته ، ولا تزال الأوضـاع الحاضرة تعمل عملها لتقتل فى نفسه كل دافع يدفعه لمواصلة الـكفاح ، وأصبح هدفه كله أن يحصل على لقمة الخبز اليسيرة ، وحتى هذه اللقمة التافهة التى تلقى إليه فى المعسكرات يتناولها من يد أعداء أمته وكأن العرب والمسلمين قد طواهم الموت وغيبتهم ظلمات القبور .

كنت أسمع من كثير من اللاجئين تساؤلا لا أستطيع أن أجيب عليه (أين العرب وأين المسلمون ؟ أهذه هى حقوق الجيرة والقرابة والدين أن نترك هكذا نموت جوعا ولا نجد العون الا من أمريكا وهيئة الأمم ؟) إنى أعلم أن حكوماتنا (الرشيدة) تساهم فى إغاثة اللاجئين عن طريق هيئة الأمم ، وذلك هو الغباء المطلق فالوضع الصحيح أن تساهم معنا

الحكومات الأجنبية فى إغاثة اللاجئين ، وتقدم لنا ما تستطيع المساهمة به ونقوم نحن بتوزيعه على أبنائنا وأخوتنا ، أما أن تنعكس الآية فنساهم نحن بالنصيب الأكبر ونغيث اخواننا عن طريق هيئة الأمم ، ويقوم بتوزيع المواد على اللاجئين منـدوبون من جميع الدول والأجناس إلا الدول الاسلامية والجنس العربى فهو مالا نفهمه ولا نستسيغه .

فى معسكرات اللاجئين اليوم قوة معطلة ، مئات الألوف من الشباب يتسكعون على المقاهى والطرقات وينتظرون اليوم الذى ينطلقون فيه لتطهير أرضهم ، ولا ينقصهم إلا قيادة مخلصة تسوى صفوفهم وتسلك بهم طريق الكفاح الشاق .

ولكن السياسة المجرمة التى لعبت دورها فى الوصول بهم الى هذه الحالة ، لاتزال تلاحقهم ولاتزال مخالبها المخضبة تلتف حول أعناقهم وتعوقهم عن الحركة والتفكير ، والأغلال التى استدارت حول أرجلهم منذ كان فى فلسطين استعمار لا تزال هى الأغلال التى تكبلهم عن العمل وتقعدهم عن الكفاح . وكيف لا يكونون كذلك وزمام أمرهم فى يد الحكومات العربية ، والحكومات العربية بدورها لا تملك لنفسها ضرا ولا نفعا ، ولا تستطيع أن تفعل شيئا الا اذا أمر به أسيادها المستعمرون ، فوق أن لها من المشاكل الداخلية — التى خلقها الاستعمار — ما يشغلها عن التفكير فى فلسطين ووضع الوسائل العملية لاستردادها .

ألست ترى أن المحادثات والمفاوضات تدور اليوم حول مشكلة اللاجئين وطريقة اغاثتهم وتهيئة سكن مستقر لهم ، أما قضية فلسطين نفسها وقضية الوطن المباح والكرامة المهدرة ، والاسلام الذبيح تحت أقدام اليهود ، فهذه كلها أهداف وآمال تدور فى عقول الخياليين الواهمين من

أمثالنا ، ممن يبتعدون عن الأمر الواقع ولا يفكرون بالعقول التى أرادنا المستعمر أن نفكر بها . وحتى قضية اللاجئين التافهة — على ما فيها من وضوح لا تحتمل معه كل هذا الشد والجذب — تحاول بريطانيا وأمريكا أن تحلاها معا على حساب العرب أنفسهم دون أن تتحمل اسرائيل شيئا فى حلها ، فتارة يقترحون نقلهم إلى (سيناء) وتارة يقترحون نقلهم إلى (برقه) ، والزعماء العرب يصوغون مقالات المديح فى ساسة أمريكا وبريطانيا الذين يشغلون أنفسهم بهذه القضية الإنسانية . . ! أما إرجاع اللاجئين إلى وطنهم الأصلى حيث ولد آباؤهم وأجدادهم وحيث لاتزال دورهم وأمتعتهم فى انتظارهم فهو مالا يسمح به الانجليز والأمريكان وهو مالا يدور إطلاقا فى عقول الزعماء الأمجاد .

إن بريطانيا وأمريكا تريدان أن تحلا مشكلة اللاجئين ، لارحمة باللاجئين أنفسهم ، ولا إشفاقا على وجه الانسانية الصبوح أن تشوهه هذه المآسى ، ولكن إشفاقا على إسرائيل نفسها ، لأن بقاء اللاجئين على وضعهم الحالى يشعر إسرائيل أن القضية لم تنته ، ويجعلها فى قلق دائم لا تستطيع معه أن تباشر الإعداد والإنشاء فى جو هادىء مستقر ، واذن فلابد من (التصفية) على أن تكون تصفية يتحملها العرب أنفسهم ولا تتنازل (إسرائيل) فيها عن شبر من الأرض التى اغتصبتها ، ولا تنفق مليما واحداً من المال الذى تجمعه لتنفذ به برامجها الواسعة ، ولا يمكنها أن تنفق منه على هذه التفاهات الصغيرة . . . ! !

تلك هى السياسة الصحيحة التى ترسمها أمريكا وبريطانيا لحل مشكلة اللاجئين ومن هنا تقترح إسكانهم فى « برقة » وإسكانهم فى « الأردن » وإسكانهم فى « سيناء » .

إن حل مشكلة اللاجئين فى أيدينا ، ولن تحل قضيتهم إلا بالرجوع لأوطانهم وخروج اليهود منها ، ولن يعودوا إليها بالحادثات والمفاوضات ولن يترك اليهود أرضاً غنموها بالسلاح إلا تحت ضغط القوة المسلحة . هذا هو الطريق فاسلكوه ولا تضيعوا الوقت (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ولا تغرروا بالجماهير البائسة فالقضية لا تحتمل كل هذه السياسة ، وهى إما حرب سريع أو سلام سريع .

٣ — الوحدة العربية

ظلت الجامعة العربية أملا باسماً يراود أحلام العرب منذ قيام الحرب العالمية الأولى ، وتعددت محاولاتهم لتحقيق هذا الأمل وإقامة تكتل عربى يستطيعون به مواجهة التطورات العالمية . ولكن هذه المحاولات ذهبت عبثاً وتحطمت الآمال على صخور السياسة البريطانية أكثر من مرة ورأينا كيف « مرمطت » بريطانيا دعاة الوحدة العربية من الهاشميين وأغرت فرنسا بطرد « فيصل » أكبر عمدها من سوريا ، ونجحت فى إثارة المشكلة المزمنة بين الهاشميين والسعوديين .

ثم حدثت المعجزة فجأة وقامت الجامعة العربية واختفت الخلافات فى أركان مظلمة من قلوب المتخاصمين . ذلك أن الانجليز لا يواجهون الحركات الشعبية مواجهة واضحة ، ولكنهم يسايرونها لأمد محدود . ويحولون دفتها لتسير فى ركابهم وتخدم جانباً من مصالحهم ، ومن هنا رأينا معارضتهم تخف ثم يحتضنون فكرة الجامعة ويعملون لقيامها . . ! وكانت إشارة التنفيذ وكلمة السر ما أعلنه مستر (أنطونى إيدن) وزير الخارجية البريطانية لدى مروره بالعواصم العربية خلال الحرب الأخيرة والذى أكد فيه أن بريطانيا تنظر بعين العطف لأى تكتل بين الشعوب العربية يكون من شأنه إسعاد هذه الشعوب . . !

وهكذا قامت الجامعة العربية حين كان الإنجليز فى حاجة لقيامها . وحين كانوا يريدون حشد الشعوب فى ساحتهم للدفاع عن مصالح الإمبراطورية البغى ، والانجليز دائماً — وهذا هو موضع العبرة — كالمهندس النابه الذى يعرف مواطن الضعف فى البناء الذى يقيمه ليستغله فى هدمه حين يرى مصلحته فى هدمه . ولقد مر وقت على الجامعة العربية ظنت فيه أنها قد أصبحت كتلة قوية وأنها تستطيع أن تباشر حقوقها بنفسها .

ولكن المهندس النابه لم يكن ليسمح لها بالامتداد لأبعد من المدى المرسوم ، فأخذ يفكر ويقدر ويتحين الفرص لهدمها حتى حانت اللحظة المناسبة ، وفرغ من (طبخ) مسألة فلسطين ثم زج بها فى حرب كان يعلم نتيجتها سلفا ، وأدارت الجامعة العربية دفتها بصورة خاطئة وتسببت سياستها عن كثير من المآسى المروعة حتى انتهت الحرب إلى نتيجتها المفجعة ، وبنهايتها انقطع آخر خيط من خيوط الأمل التى كانت تربط الشعوب العربية بالجامعة العربية .

ولا أعتقد أن أحداً يستطيع أن يغالط فى هذه الحقيقة وهى أن الجامعة العربية بصورتها الراهنة قد أصبحت غير ذات موضوع ، ولا يمكنها مجابهة الأخطار الجسيمة التى تهدد البلاد العربية ، فالخلافات القديمة بين الدول الأعضاء قد أخذت تطل من جديد وتحيل الاجتماعات الخطيرة إلى ندوات للعتاب والتلاوم ، وليست التهدئة والمصالحات المتعددة إلا عمليات (تخدير) أو تأخير لوقوع التصفية النهائية ، ولا يؤثر فى هذه الحقيقة تلك الصور الضاحكة التى تنشر للزعماء الأجلاء عند كل اجتماع ، ولا هذه الحفلات الفخمة التى تقام بمناسبة وبلا مناسبة . حتى يمكن أن يقال : إن مظاهر الوحدة العربية ليست الآن إلا فى شخص عزام باشا — مد الله

فى أجله — وإلا فى ذلك المبنى الفخم الذى يقوم فى أحد أحياء القاهرة الفخمة وترتفع عليه فى المناسبات سبع قطع مختلفة من قماش ملون ترمز إلى أنه لا يزال هناك شىء فى الوجود اسمه سبع دول عربية !!.

هل أسرفت فى اتهام الجامعة العربية ؟ وهل تجاوزت حدود التشاؤم وأنا أحاول أن أصورها على صورتها الصحيحة ؟ . لندع الوقائع تجيب على هذا السؤال . . كنت أقلب مذكراتى وأنا أكتب هذه الصفحات فوقع نظرى على محاورة دارت بينى وبين قائد سعودى كبير فى أحد أيام شهر يولية من عام ١٩٤٨ وكان جو الحرب الفلسطينية حينها ملبد بالغيوم السوداء ، وكنت أسأل هذا الضابط عن السر فى عدم إدخال قوات سعودية كبيرة للميدان والاكتفاء بعدد ضئيل من المتطوعين النجديين بينما القوات النظامية السعودية لا تزال مرابطة فى أرض الحجاز . فقال لى الضابط السعودى إن حكومته مضطرة لنقل القوات وتموينها عن طريق البحر الأحمر وميناء السويس ، وليس فى وسعها أن تندمج عملياً فى الحرب لصعوبة النقل البحرى ولبعد الميدان عن القواعد التموينية الرئيسية لهذه القوات ، فقلت له إننى أعلم أن هذا الطريق يعتبر شاقاً وغير عملى ، ولكن كان الأسهل أن تقيموا مستودعات للتموين على الحدود الفاصلة بينكم وبين شرق الأردن وتعبرون الأراضى الأردنية الى فلسطين كما فعل الجيش العراقى مثلا وكلها مواصلات برية ولن تكلفكم كثيراً لاستخدامها .

وكم كان مؤلماً لنفسى أن أستمع لهذا الضابط السعودى يقول فى صراحة إن حكومته كانت ترتاب فى نوايا شرق الأردن وتخشى أن تنصب الحكومة الأردنية « فخاً » لجيشها لتقضى عليه ، وبذلك يسهل على الملك الهاشمى استرداد ملك آبائه وأجداده فى الحجاز !. هذه هى خلاصة المحاورة التى دارت بينى وبين قائد كبير فى الجيش السعودى نقلتها كما سجلتها فى حينها .

ولعلها تعطى فكرة عن النجاح الباهر الذى أحرزته الجامعة العربية فى تصفية المشاكل الموروثه وإحلال الثقة والصفاء محل القطيعة والجفاء !

وهل نسى الناس بعد ما وصل اليه هذا الخلاف حين بدأ التنازع على مناطق النفوذ حتى كاد يتحول هذا النزاع الى عراك مسلح .

ولقد حدث أن أخطأ الجيش السورى فى اقتحام بعض المواقع الحصينة فى خط ايدن فى الشمال ووقعت فيه مذبحة كبرى أضاعت كثيراً من قواته فقال الضباط السوريون إن هذه الخطة من تصميم الملك عبد الله وانه يقصد منها افناء الجيش السورى والتخلص منه لابتلاع سوريا وضمها الى حلمه القديم (سوريا الكبرى) .

بل إن محطات إذاعة عربية كانت لا تخفى شماتتها فى الهزائم التى تمنى بها قوات وجيوش غير قواتها وجيوشها ، ولم يلبث هذا النزاع أن اتخذ صورته الواضحة المكشوفة حين تشكلت حكومة (عموم فلسطين) وما أعقبها من هزات وزلازل كان أولها انعقاد (مؤتمر أريحا) والمناداة بالملك عبد الله ملكا على الجزء الشرقى من فلسطين ، وتلك التهم الخطيرة التى حملتها موجات الإذاعة ورددتها محطات (القاهرة وبغداد والرياض وعمان ودمشق) عن الخيانات التى وقعت فى فلسطين وكيف أن الجيش (الفلانى) أخلى مدينة كذا بدون قتال ، وكيف أن الجيش (العلانى) انسحب من قطاع كذا دون قتال واشتدت الحالة بينهم حتى كادت تنذر بالخطر ولم يبق إلا أن تتدخل (إسرائيل) لإصلاح ذات البين بين الجيران الأعزاء . !

وبعد فهل يفهم من هذا الكلام أننى أحارب فكرة الجامعة وأدعو إلى فضها ؟ . لا وألف مرة لا ، ولكننى أردت أن أوضح فى غير مواربة أو رياء أن جامعة تقوم على هذه الأسس الواهية ، وترتكز على هذا

الرصيد الزاخر من العداوات والخلافات ، لا يمكن أن يصمد طويلا أمام ضغط الحوادث .

إن الشعوب تريد من زعماء الجامعة أن يسلكوا إحدى وسيلتين دون تلكؤ أو ابطاء ، إما أن تصفى الخلافات نهائياً وتقوم وحدة صحيحة على أساس متين من الود والثقة ، وإما أن تصفى الجامعة نفسها وتريح أعصاب الجمهور من متابعة هذه المهزلة المثيرة ، وتعكف كل دولة عربية على تقوية نفسها والتفرغ لشئونها على أساس مصالحها . . .

الواقع أنى أعلم — سلفا — أن المطلب الأول لن يتحقق مطلقاً مادامت هناك أوضاع معينة فى الحكومات العربية ، فهل أكون متشائماً اذا قلت ان الجامعة مضطرة لسلوك السبيل الآخر ، طال الزمن أم قصر ، وأن إبر « التخدير » والتأخير لن ترجع للمريض صحته بقدر ما تضاعف له علته وتقرب منه خاتمته ؟ !

أرجو أن أكون مخطئاً فى التقدير ..!

* * *

هذه هى الحقائق الثلاث التى نجدها أمامنا كلما فكرنا فى الأوضاع الراهنة المحيطة بفلسطين .

إسرائيل قائمةفعلاً ونية العدوان عندها متوفرة لأبعد الحدود .

وقضية اللاجئين المشردين تزداد تعقيداً ، وليس هناك ما يشعر بقرب انتهائها وحلها حلاً شريفاً مرضياً .

والوحدة العربية خرجت من الجولة الماضية مثخنة بالجراح وهى اليوم أشد ماتكون انهياراً وإعياء .

والزعماء الأمجاد لايهمهم التفكير فى هذه الأخطار الجسيمة بقدر مايهمهم التفكير فى نبش ثارات قديمة ، وخلق مشكلات جديدة ، والاستعمار البغيض راض كل الرضاء عن هذه الخلافات ، فهو يحرك القديم ويبعث الجديد ، وكلما صفيت مشكلة خلق مكانها عشرات المشكلات ، وهيهات أن نتخلص من هذه الأوضاع كلها إلا إذا واجهنا المشكلات بصراحة وقوة وقامت الشعوب بقوة لتزيح العقبات وتبنى وحدتها على أساس سليم .

إن أول مايجب أن نفكر فيه معشر العرب — وخاصة هنا فى مصر — هو بناء قواتنا العسكرية وخلق الجيوش القوية التى تستطيع أن تواجه هذا الخطر ، ولا يبدو فى الأفق حتى الآن ما يبشر بالسير الجدى نحو تحقيق هذا الهدف .

يجب أن نستورد الأسلحة من أى مكان نستطيع ، ويجب أن نبذل كل جهد لإقامة المصانع الحربية فى بلادنا لأن (الشحاذة) والصدقات وشراء الفتات والفضلات ، ليست من وسائل أعداد الجيوش المحترمة ، وما كارثة فلسطين الأخيرة منا ببعيد .

لنبدأ فى بناء قواتنا العسكرية على أسس سليمة ولنستعن بكل وسيلة ممكنة وغير ممكنة للوصول إلى هذه الغاية ، وليست الأسلحة والمصانع وحدها هى التى تنقصنا بل إن الأسلحة والمصانع تكون هينة ميسوره يوم يتوفر المال ويوجد الحكام الأقوياء المخلصون .

لكن هناك أموراً أخرى تنقصنا ، وتحتاج منا إلى جهود جبارة لإيجادها .

لابد أولا من خلق أمة قوية صحيحة ،تتهيأ فيها الحياة الحرة الكريمة

لكل فرد من أفرادها ، ولابد من ايجاد العقيدة القوية السليمة التى تجمع أفراد هذه الأمة حولها وتدفعهم للعمل والجهاد دفاعا عنها ، ولابد من محاربة مظاهر الخنوثة والترف التى نشبت فى مجتمعاتنا وأصبحت تهددنا بالانهيار العاجل السريع .

أصلحوا الأمة أولا :

هذا الجيش ليس جزءا منفصلا عن الأمة ، ولكنه صورتها المصغرة وثمرتها الناضجة ، ولا يمكن أن تبنى أمة جيشا قبل أن تبنى الأمة نفسها على أساس سليم ، كما لا يمكن أن توجد الثمرة قبل أن تزرع البذرة وتنبت الشجرة ، والأمة المتعلمة القوية الصحيحة يكون جيشها قويا متعلما صحيح البدن والعقل ، كما وإن الأمة الضعيفة الجاهلة الذليلة يكون جيشها ضعيفا جاهلا ذليلا ولو كان لكل جندى دبابة وطائرة . هل يمكن بناء جيش على جنود غالبيتهم العظمى من العوام الفقراء الذين لم يستطيعوا دفع البدل العسكرى التافه ؟

ولقد سمعت كثيرا من هؤلاء الجنود يتساءلون فى المرحلة الأخيرة من الحرب لماذا يحاربون اليهود فى فلسطين ؟ بل إن هذا الجندى لو ترك على سجيته لما شعر برغبة فى القتال حتى عن حدود مصر نفسها ، ومن أين تأتى الرغبة وهو يؤمن أن حدود وطنه لا تتجاوز حدود قريته التى عاش ودرج فيها ! ! .

وكان الجنود — ولا يزالون — يشعرون بالعذاب الذى يعانيه أهلوهم تحت نير النظم الاجتماعية الفاسدة ، ولقد نجح الاستعمار فى حرمان مصر من الجيش القوى العزيز ، حينما سمم التربة التى تنبت أفراد الجيش ولوث

المنبع الذى يستمد منه الجيش رجاله ، فقضى على الفلاح المصرى وحكم عليه أن يعيش فى مستوى أقل من مستوى السوائم العجماء. فطهروا منابع الجيش الأصيلة ، قبل أن تتعبوا أنفسكم فى إنشاء الفرق المدرعة والألوية الجوية ، وأصلحوا الأساس أولا قبل أن تبنوا طابقا ثانيا وثالثاً فوق البناء المتداعى ، أو تضيعوا الجهود عبثا فى طلاء الجدران وتركيب الزجاج على النوافذ .!!

أصلحوا الجيش كما تشاءون ولكن اذكروا دائماً أن الجيش القوى ثمرة طبيعية لأمة قوية ، وأن العلم الحديث لم يصل بعد إلى إنتاج ثمرة من غير شجرة ، فبادروا أولا بإصلاح هذه النظم الظالمة وهبوا للفلاح المسكين حياة حرة كريمة قبل أن تطالبوه بالدفاع عن حرية أمته وكرامتها ، وأصلحوا التربة التى تنبت لكم الجنود قبل أن تطالبوها بالثمار فتعطيكم ثماراً فاسداً عفناً ليس فيه غناء ولا يرجى من ورائه عزة وانتصاراً .

أعيدوا للجيش ثقته بنفسه :

من الأمور التى تهتم بها الدول غرس معانى الثقة فى نفوس أفراد الجيش ، والمحافظة عليها خاصة بعد الهزائم التى يمنون بها ، وليس من شك أن جيشنا هذا قد فقد الثقة فى نفسه ، وفقدها فى قادته ، وفقدها فى زعماء حكومته ، فقدها فى نفسه يوم رسمت له سياسة خاطئة انتهت به إلى هزيمة لا ذنب له فيها ، وخرج أفراد الجيش وليس فى حلوقهم إلا غصة الهزيمة كلما ذكروا حرب فلسطين ، وليس فى قلوبهم إلا رعب قاتل كلما ذكروا معارك اليهود .

وفقد الجيش ثقته فى قادته يوم ساقوه إلى المجازر نتيجة خطط مرتجلة وتركوه عرضة للهزائم والحصار ، وكم من مرة كانت ترسل الأوامر المتناقضة

والتعليمات التى يهدم بعضها بعضا ، وبحار الجنود [illegible] يستعدون وأيهم يتركون ويظلون فى حيرتهم حتى يلاقوا حتفهم الذى يوعدون . كم من مرة حدث هذا وما هو أكثر منه حتى امتلأ الجنود [illegible] قادتهم ، ولم تعد تسمع من الجنود تلك القصص المشرفة التى يتحدث [illegible] الجنود عن قادتهم فى أعقاب الحروب . ولكنك تستمع دائماً إلى روايات مضحكة مبكية ، وقد لا تكون القصص صحيحة ، وأغلب الظن أنها ليست صحيحة ، ولكنها عين السخط التى تزن الأمور بميزانها الخاص . .

وعين الرضا عن كل عيب كليلة
كما أن عين السخط تبدى المساويا

وزاد الطين بلة ماسمعه الجنود عن الأسلحة الفاسدة وعن الدور القذر الذى لعبته رتب كبيرة وشخصيات عظيمة .

وفقد الجيش ثقته فى زعماء حكومته يوم أسلموا أعنتهم للمستعمر الغاصب يحركهم كيف يشاء وينفذ بأيديهم وعقولهم خططه المرسومة ، قبلوا الهدنات المتلاحقة وأضاعوا بتصرفهم ثمار النصر ، وكلما أحرزت العسكرية نصراً ودفعت فيه ثمناً باهظاً ، خسرته السياسة الهزيلة على موائد المستعمر بثمن بخس .

وسمع الجيش كيف خضع النقراشى وخليفته لسياسة الانجليز وقام يحارب أخلص فئة من أبناء هذا الوطن ويلقى بها فى البحر ، سمع الجيش بهذا وقارن بين ما يفعله الإخوان فى فلسطين ، وما يلقونه من حكومتهم فى مصر ، فعلم أن البلد الذى يدافع عنه ليس ملكا له ولكنه ملك للمستعمر وصنائعه . ! !

تلك هى النتيجة التى خرج بها الجيش من حرب فلسطين . فقد الثقة

فى نفسه ، وفقد الثقة فى قيادته ، وفقد الثقة فى حكومته ، فهل يستطيع جيش ضم هذه العيوب كلها أن يقف ليحارب عدواً يفوقه فى العدة ويكاد يكون خالياً من كل هذه العيوب ؟ .

أعيدو للجيش ثقته بنفسه ودعوه يؤمن أن الهزيمة التى وقعت لم تكن من صنع يده وليس له ذنب فيها ، وأن الجيش قد أدى واجبه فى هذه الحرب كاملا غير منقوص ، على قدر ما تسمح به موارده وعدته . ودعوه يعرف الكثير عن خصمه ومواطن الضعف فيه ، وأن الصورة التى تكونت فى ذهنه عن المقاتل اليهودى ليست صحيحة إطلاقا فاليهودى لا يزال كما كان دائماً مقاتلا فاشلا جبانا لا يتمتع بصفة واحدة من صفات المقاتل الممتاز . وتلك ناحية من الأهمية بمكان ولقد كنا نقرأ خلال الحرب العالمية الأخيرة مقالات يكتبها كبار المارشالات الإنجليز عن الجندى النازى أو الفاشستى أو اليابانى فيصفونه ويحللون شخصيته ويوضحون نقاط الضعف فى نفسه ويعطون لجنودهم صورة واضحة منه مستمدة من المعارك التى خاضها ، وأعتقد أن من واجب إدارة الجيش أن تبادر بطبع رسائل مصورة فى هذا المعنى بأقلام بعض الضباط من شهدوا الجولة الماضية ، حتى تمحى هذه الصورة الخاطئة التى أخذها جنودنا عن العدو كمقاتل ممتاز ومضوا يتداولونها فيما بينهم ، بل وينقلونها إلى غيرهم من لم يشهدوا هذه الحرب .

وأعيدوا للجيش ثقته فى قواده ودعوه يؤمن أنه إن كان أفراد قلائل قد سرقوا فإن أفراداً كثيرين لم يسرقوا ، وإن النزاهة ومعانى الشرف إن كانت قد ضاعت من النفوس المريضة أمام بريق المال ، فإن النزاهة ومعانى الشرف لا تزال بخير فى نفوس الغالبية المؤمنة . وإنه إن كان بعض القادة قد أخطأوا فى إدارة المعارك فإن كثيرين لم يخطئوا ، وإن الجيش

لا تزال فيه كفايات ممتازة لا تقل عن نظائرها فى جيوش العالم الحديثة .

وأعيدوا للجيش ثقته فى زعماء حكومته فحاكموا « مجرمى حرب » فلسطين من السياسيين ، وحاكموا مجرمى العهد الماضى على ما ارتكبوه من آثام فى حق أبناء الوطن ، وبادروا برفع المظالم عمن ظلم ، حتى يؤمن الجيش والشعب أنه إن كان نفر من زعمائه يقع تحت تأثير الإنجليز ، ويسير فى الطريق التى يرسمونها . فإن نفراً آخر لايقع تحت تأثير الإنجليز ، ويملك أن يسير فى طريق غير التى يرسمونها .

دعوه يؤمن — ولو خطأ — أن عنده زعماء يتمردون على الإنجليز ويرفضون تدخلهم فى شئون البلاد ، ودعوه يؤمن أن حرية الرأى والعقيدة مكفولة فى مصر ، وأن علينا جميعاً أن نقف صفاً واحداً أمام أى عدو يحاول أن يدوس أرضنا ، ليحرمنا أول ما يحرمنا من حرية الرأى وحرية العقيدة .

افسحوا الطريق لمبادىء الاسلام :

لم تتفق النظم العسكرية على أمر من الأمور بقدر ما اتفقت على أهمية الروح المعنوية وأثرها فى كسب الحروب ، حتى إنها لتضعها فى المقام الأول قبل التسلح والتدريب ، فهذا القرآن الكريم يقول فى إحدى منشوراته العسكرية (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين . . . . الخ .) ويصوغ جبار الحرب الحديثة نابليون . هذا المعنى فى قوله عن نسبة القوى المعنوية إلى القوى المادية ويجعلها كنسبة ٣ : ١ .

ولأهميـــة الروح المعنوية يضع قواد الأمم والجيوش أساليب خاصة فى المحافظة عليها وتقويتها حتى فى ساعات الهزائم ، فبعضهم يؤجج

حماس الجنود فى الحرب عن طريق الثأر والانتقام كما فعل النازيون ، وبعضهم عن طريق تحبيب الغزو والاستعمار والتلويح بالضائقات الاقتصادية لو انكمشت الدولة فى رقعتها المحدودة كما فعل الفاشست واليابانيون ، وبعضهم عن طريق المبادىء والدعوات التى يلقنونها للجنود ويوهمونهم أنهم حملة رسالة من رسالات الخير ، وحماة عقيدة من عقائد الإصلاح كما يفعل الشيوعيون وهكذا تختلف الوسائل وتلتقى عند غاية واحدة ، هى تحبيب الحرب للجندى وامداده بالذخيرة المعنوية التى يقاتل فى سبيلها ويستهين بالموت دفاعا عنها .

وعدونا الذى نحاربه اليوم يعتنق عقيدة من أخطر العقائد وهى سيطرة جنس على أجناس ، فهم يوهمون شبابهم أنهم « شعب الله المختار » وأن الله قد سخر لهم هذا العالم واجتباهم دون سائر الشعوب لحكمه والسيطرة عليه . ويؤججون فى صدورهم معانى التضحية والاستماتة حين يذكرونهم بالمذابح الوحشية التى وقعت عليهم فى عهود الطغيان ، وأن الله تعالى قد أراد لهم الراحة من هذا العناء حين وهبهم أرض « إسرائيل » .

هذه خلاصة العقائد التى يغرسها الصهيونيون فى شبابهم ويربونهم عليها قبل أن يدفعوهم للميدان دفاعا عنها . فأى مبدأ كنا نقاتل فى سبيله وأى عقيدة يمكن أن نلتف حولها فنجد فيها هذا الذخر المعنوى الهائل ؟ لقد ثبت أن « دعاوى العروبة » وروابط الجنس واللغة والحدود المشتركة كلها فاشلة فى إقناع الجندى بالحرب والجهاد من أجلها . وإذن فلابد من مبدأ قوى يشتمل على هذه المعانى كلها ويزيد عليها ، ولن تجد ذلك بصورته الكاملة الواضحة إلا فى « الإسلام » ومبادئه .

لو آمن الضابط والجندى بالإسلام إيمانا صحيحا ، واختلط هذا الإيمان بعقله ودمه وأعصابه ، فى تلك الحالة فقط يمكن أن يقاتل وإن زاد عنه العدو فى عدد أو عدة ، لو آمن بالإسلام لعلم أن الدفاع عن فلسطين

وغيرها فرض يحتمه الإسلام (وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون) ولو آمن بالإسلام لأيقن أن محاربته للعدو سواء كانت دفاعا عن أرض ،أو تأمينا لمصلحة، أو طلبا لحرية، هي جهاد في سبيل الله تستحق النصر عليه في الدنيا والمثوبة الكريمة في الآخرة. ويجد الإسلام ينحو منحى عجيبا في تركيز هذا المعنى (الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت) فإن كانت الهزيمة فهو قوة هائلة تقف في جانب المهزوم وتدفعه لمواصلة الكفاح (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس . .) وإن كان النصر فهو صمام يمنع المنتصر من العدوان (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر)

ولم يقف الإسلام عند حدود المعنويات ولكنه يتجاوزها إلى الماديات أيضا ، فيضع الأسس الصالحة لبناء عسكرية مثالية قوية فيهتم بالطاعة والنظام ويجعلهما أساسا للعسكرية الصالحة (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله وأولى الأمر منكم) (إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص) ولا يغفل الاعداد والتدريب كمرحلة ضرورية لتكوين الجيوش القوية ، ويشير بوضوح إلى أن الإعداد هو ضمان النجاح وأن الجيوش غير المعدة لا تستطيع أن تؤدى واجبها (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة) ومن آثار النبي صلى الله عليه وسلم في التدريب أن الرماية نعمة من نعم الله فمن نسيها فقد كفر بأنعم الله تعالى ! إلى غير ذلك من عجائب الآيات والنصوص التي تقيم معالم عسكرية مؤمنة قوية لا ظلم فيها ولاعدوان معها .

وقد يتبادر إلى الذهن أنى أقصد من وراء كل هذا إكثار عدد الأئمة

والوعاظ الرسميين في كتائب الجيش ، فتلك طريقة ثبت فشلها بشهادة الوعاظ أنفسهم ، فالواعظ من هؤلاء لا يجرؤ على مخاطبة أقل الرتب إلا باحتراس وحذر ولا يستطيع أن يقومه على أمر الله وهو آمن على وظيفته ومرتبه ! ، لكنني أعنى تحوير نظم الجيش كلها بحيث تتلاءم مع تعاليم الإسلام من فرض الصلاة إلى فرض التدريب وإقامة المصانع ، ولتقوية الناحية الروحية في أفراد الجيش لا بأس من انتخاب عدد من شباب الأزهر النابهين وتدريبهم في الكليات العسكرية وإلحاقهم في الجيش كما هو حادث بالنسبة للمهندسين والأطباء والحقوقيين الذين يلتحقون بالجيش ، وتكون مهمة هؤلاء الضباط الاندماج في الكتائب ضباطا عاديين يمتازون بثقافة إسلامية تؤهلهم للوعظ والإرشاد وتوضع في أيديهم بعض السلطات التي تكفل لهم أداء واجبهم بنجاح .

وإذا كان من طباعنا معشر المصريين ، أن لا نؤمن بفكرة إلى إذا سبقتنا لها عقول أوروبية ، فنحن نؤكد أن هذه الوسيلة قد اتبعت في الجيوش الأوروبية الحديثة ، وفي الجيش البريطاني بوجه خاص ، فقد جندت أخيراً جماعات خاصة ، مهمتها غرس فضائل الدين في نفوس أفراد الجيش ، كوسيلة لتقوية المعنويات في الجنود ، فإذا كان الغربيون قد اتجهوا هذا الاتجاه فنحن أولى بإقامة جيشنا على أساس إسلامى متين ، خاصة وأن الإسلام لا يتعرض للمعنويات فحسب ، بل يتجاوزها إلى وضع الأسس العملية لقيام عسكرية مثالية فاضلة .

ومن الوسائل الناجحة أيضا أن يدرس التاريخ العسكرى الإسلامى في كلياتنا الحربية ، وأن تسمى فرق الجيش وألويته بأسماء مشاهير القادة الإسلاميين وأسماء المعارك المشهورة التي أحرز فيها المسلمون انتصارات كبيرة

« كاليرموك » « والقادسية » وغيرها ، ولسنا نبتدع هذا النظام من عند أنفسنا، ولكنه نظام معترف به حق فى أحدث جيوش العالم ولا تزال فرق من الجيش الإنجليزى تحمل أسماء قواد ومعارك كبيرة من تاريخ بريطانيا العسكرى ، واليهود يطلقون على كتائب جيشهم الوليد أسماء بعض الشخصيات الكبرى فى تاريخهم وبناة دولتهم . وجيشنا بهذا الوضع يعتبر مبتوت الصلة بتاريخه المجيد وماضيه المشرق ولا يجد الضباط مثلا عليا يفخرون بها غير أمجاد الخصوم ومفاخر قوادهم .

وكتابنا العسكريون — على كثرتهم — يأنفون من الكتابة فى التاريخ الإسلامى مخافة أن يتهموا « بالرجعية » ، وهى التهمة التى أطلقها المستعمر وصنائعه على كل محاولة ترمى إلى إحياء أمجاد الإسلام وتعاليمه والرجوع بها إلى منابعها الأصيلة من كتاب الله وآثار نبيه وتاريخ السلف الصالح من أبنائه .

وفى الوقت الذى يشفق فيه كتابنا العسكريون على أنفسهم من تهمة « الرجعية » لا يستنكف كثير من كتاب أوروبا الأحرار فيكتبون المقالات الطوال فى مناقب القادة العسكريين الإسلاميين ، ويقارنون بينهم وبين أشهر مشاهير الحروب الحديثة ، حتى سمعنا أحد « مارشالات » ألمانيا فى الحرب العالمية الأولى يقول إن مثله الأعلى فى العسكرية هو سيف الله خالد بن الوليد.

وليست هذه هى كل ما يمكن اقتراحه من وسائل للنهوض بالجيش وتوجيهه وجهة إسلامية فإنى أعلم أن هذا الموضوع أكبر من أن يحاط به فى هذا البحث الصغير ، ولكننا نكتفى بالإشارة تاركين المهمة لرجال العسكرية ، الذين أنيط بهم واجب الرقى بالجيش وهو أمر يسير هين . لو اتحدت الغايات وأخلصت النيات .

حاربوا المسكرات فى صفوف الجيش :

لم يسلم الجيش من عدوى التحلل الخلقى التى انتقلت لهذه الأمة فيما انتقل إليها من مفاسد الحضارة الغربية ، وبلغ من تمكنها أن الذى يجتنبها ويتمسك بدينه وخلقه ورجولته يتهم بالجمود « والرجعية » والتخلف عن ركب الحضارة ، فالخمر والميسر والزنا ومخاصرة النساء ، كل هذه المصائب أصبحت عنواناً لهذه الحضارة ، ولازمة من اللوازم التى تعلى من شأن مرتكبها وتجعله فى طليعة المتقدمين النابهين . !

سمع بعض ضباطنا وقرأوا عن كثير من القادة العسكريين فى أوروبا ، ومن مراجعة سيرهم علموا أن الجنرال « فلان » كان زئر نساء ، وأن المارشال « علان » كان لا يفيق من السكر ، فظن هذا البعض أن النساء والخمر من مستلزمات العبقرية وأن على الضابط إن أراد أن يكون قائداً ممتازاً فليس أمامه إلا أن « يعمر » رأسه بأم الكبائر ، وياويل من يقف فى هذا الطريق ويحاول انتقاده ، إنه يصبح رجعياً تافها ، يجب أن يعود إلى مقره المختار بين مقابر أجداده العرب الأقدمين . . ! !

ليس من شك أن هذا فهم خاطىء ، خاطىء لأسباب كثيرة أهمها أن كثيراً من القادة العباقرة سواء القدامى أو المعاصرين لم يكونوا على هذه الشاكلة ، فالقواد الإسلاميون الكبار كخالد بن الوليد ، وسعد بن أبى وقاص ، وعمرو بن العاص ، لم يقل أحد أنهم كانوا يحتسون الخمر ، ويخاصرون النساء ، حين كانوا فى أوج شهرتهم العسكرية ، وكان التاريخ الإنسانى يسلمهم زمامه وأعنته ليوجهوه وجهته الصحيحة .

ولست أعتقد أن أحداً من ضباطنا مهما كانت آماله وأطماحه ، لن

تصل به مقدرته وكفاءته إلى ماوصل إليه هؤلاء القادة العباقرة الأفذاذ ، وقبل أن يسخر منى الساخرون ويتهموننى بالرجعية أن حشرت هؤلاء القادة فى زمرة العظماء النابهين ، أبادر فأقول أن رجلا كالمارشال « مونتجمرى » أحد أبطال بريطانيا العسكريين ، والقائد الذى تجاوزت شهرته حدود بلاده ، وأصبح يحرك اليوم أكبر الكتل العسكرية فى العالم ، مونتجمرى هذا يقولون عنه إنه لم يشرب الخمر فى حياته ، ولم يدخن ، ويقول عارفوه إن الناحية الدينية متمكنة من نفسه ، حتى أنه يذهب للكنيسة فى أوقات دورية منتظمة . !

وإذن فليست الخمر ولا النساء ولا إضاعة الوقت والجسم فى إرضاء الشهوات والنزوات من مستلزمات العبقرية ، ولا من العوامل التى تكون شخصية القائد وتؤهله لنيل المناصب الكبرى فى الجيش ، ولكنها عوامل كثيرة تلك التى تخلق شخصيته أهمها : الخلق ، وقوة البدن ، وغزارة العلم وثبات الإيمان ، وكلها عوامل لا تمت للخمر والنساء والميسر بسبب من الأسباب .

أعتقد أنه من العسير معالجة هذه الأوبئة تحت كنف النظم الحالية للجيش ، فأندية الجيش فى جميع بلاد القطر ، يشرب فيها الخمر ، ويلعب فيها الميسر ، ويرغم الضباط إرغاما على الاشتراك فيها والمواظبة على ارتيادها ولا أظن الناس قد نسوا بعد ما كان من أمر الرجل الصالح اللواء « عبد الواحد سبل » حين رفض الاشتراك فى نادى الضباط إلا أن تنزع منه الخمر واحتدمت معركة عنيفة بين الرجل وبين الخمر ، أسفرت عن نزعه من الجيش وبقاء الخمر فى نادى الجيش . . . ! !

ولست أعنى أن ضباطنا جميعا على هذه الشاكلة ، ولكن أردت أن أقول

إن النظم الحالية للجيش وعدم تمشيها مع تقاليد الإسلام وما تفرضه على الجندى من رجولة وكرامة ، لا تقضى على هذه المباذل الخلقية ، بل تنميها وتشجعها وتأخذ بيدها لأبعد غاياتها ، وتهدد المعترضين عليها بالنكال وسوء المنقلب وما حدث لضابطنا الكبير « عبد الواحد سبل بك » قد يحدث لآخرين ممن يبدون اعتراضا على هذه النظم البالية .

ولقد حدثنى أخيرا بعض ضباطنا الشبان ممن قذف الله فى قلوبهم بقية من خير وصلاح ، إن أحدهم رفض الاشتراك فى أحد أندية الضباط فى منطقة نائية ، وطولب فى قيمة الاشتراك مراراً فكان يرفض ويعلق الدفع على نزع الخمر من النادى ، مما اضطر قائده المباشر إلى إدخاله لمكتب قائد المنطقة الذى أخذ يوجه إليه « النصح » ويدعوه إلى الاستقامة والتمسك بالأخلاق الفاضلة التى تتناسب مع وضعه كضابط فى الجيش ! ! وذلك بأن يدفع الاشتراكات المتخلفة ، وكان مما قاله له « يا بنى إن الحالة كلها بايظة ، ولن تستطيع أنت وحدك أن تصلح نظام هذا الكون » ولم تدم مقاومة الضابط الشاب أمام هذا المنطق السليم ، منطق الرجل الحكيم المجرب ، فدفع ما عليه وخرج مقتنعا أن نظام الكون المصرى « بايظ » فعلا ، بل مقلوب رأسا على عقب . !

أعلم أن فى قوانين الجيش عقوبة قاسية للضباط الذين يتسببون فى امتهان كرامة الجيش ، ويدخل تحت طائلة هذه القوانين ظهور الضابط بلباس زرى ، أو هيئة مشوهة ، أفلا يكون شرب الخمر والتطوح فى الشوارع مما يسىء إلى كرامة الجيش وكرامة الأمة التى يدافع عنها هذا الجيش .

إذا كنتم تريدون المحافظة على كرامة الجيش فيجب أن تبادروا دون

إبطالها فى إلغاء الخمر من أندية الضباط ، وتحريم بيعها أو دخولها إلى المعسكرات ، وتوقيع عقوبات قاسية على الضباط الذين يشربونها ، وذلك هو السبيل الوحيـد لحفظ كرامة الجيش ، وكرامة الأمة التى يدافع عنها هذا الجيش .

وإذا كنا نهتم بالقضاء على المسكرات ، وتطهير أوساط الضباط من هذه الآفات ، فلا يمكننا إغفال المخدرات التى تغلغلت فى أوساط الجيش من مختلف الرتب ، وخاصة فى أوساط الجنود الصغار ، فالجندى البسيط لا يمكن أن يتناول كأسا من « الوسكى » لأن مرتبه كله لا يملأ عدة كؤوس من العدس الأصفر « الرنان » . ومن هنـــا يضطر إلى شراء المخدرات كالحشيش والأفيون ، ومن هنا تفشت هذه الكيوف السامة ، وأصبحت مصدر خطر كبير لا بد من محاربته والقضاء عليه .

وأعتقد أن حضرات الضباط الذين اشتركوا فى الحملة يذكرون كيف تسببت هذه « الصطل » فى كثير من الكوارث ، حتى سمعت من بعضهم قوله « إن الحشيش كان من الأسلحة السرية الخطيرة التى حطمت أعصاب الجنود وقواهم المعنوية » ، وحين أقول محاربة الكيوف ، لا أعنى المزيد من النشرات التى كانت ترسلها إدارة الجيش لتوزع على الوحدات وتهددهم فيها بالويل والثبور وعظائم الأمور ، لمن يضبط متلبساً بشرب هذه السموم الخطرة ، لا أعنى هذا مطلقا ، ومن حق إدارة الجيش على أن أطمئنها إن هذه النشرات لم تكن تجدى أى نفع اللهم إلا فى اشعال لفافات الدخان «وا لجوز » المشحونة بالحشيش ..!!

لا بد من القيام بحركة واسعة يكون أول مراحلها إلغاء الخمر من أندية الضباط ، وتوقيع العقوبات الصارمة على من يضبط متلبساً بشربها . فإن الجنود — وقد سمعتها من أفواههم عشرات المرات — يعتقدون أن محاربة الحشيش فى أوساط الجنود — مع السماح بتناول الخمر فى أندية الضباط — إن هى إلا ضرب من الامتيازات والتسهيلات التى تغدق على الضباط ويحرم منها الجنود ، ويعتقدون أنه ما دامت الحكومة تسمح للضباط بالترويح عن أنفسهم بتعاطى الخمور ، بل وتمهد لهم السبل للحصول عليها ، فإن مقتضيات العدالة والمساواة ، تحتم عليها أن تسمح للجنود بالترفيه عن أنفسهم باستعمال المخدرات وخاصة وهى تعلم جيداً أن مرتب الجندى البسيط لا يسمح له مطلقاً بشراء الخمور . !!

أظن أن رئاسة الجيش فى هذه الحالة لا تملك إلا أن تختار أحد حلين، إما أن تكون جادة فى تطهير الجيش ومكافحة هذه الأخطار من بين صفوفه ، فتحرم تعاطى المسكرات والمخدرات وتفرض أشد العقوبات على من يضبط متلبساً بتعاطى هذه الأرجاس ، مهما كانت رتبته ومركزه فى الجيش. أو أن تريح نفسها من هذا العناء فتسمح للجنود أيضاً بتعاطى الحشيش وتسهل لهم سبل الحصول عليه تمشياً مع مبادىء المساواة والعـدالة (وما فيش حد أحسن من حد) . !

لو لم يكن الإسلام يحرم هذه المباذل ، ويعمل جاهداً للقضاء عليها وتطهير المجتمعات من شرورها ونتائجها ، لـكان من واجبنا أن نقضى عليها إذا أردنا أن نخلق أمة قوية عزيزة ، وجيشاً عظيما مرهوبا ، ولقد رأينا كيف قضت روح الترف والانغماس فى اللذات على قوى الجيش الفرنسى واضطرته للاستسلام والركوع تحت أقدام النازيين ، ولقد علل المارشال

« بيتان » بطل فرنسا العسكرى وأشهر قوادها فى هذا الجيل تلك الهزيمة حين قرر أنها (جاءت نتيجة طبيعية لانغماس الجنود فى اللذة والترف ونفورهم من التضحية والواجب) .

هذا درس نستخلصه من بين أصابع التاريخ . وتلك نتيجة وصل إليها قائد محنك يعتبر فى طليعة القادة العسكريين ، وها نحن أولاء نضعها أمام المسئولين عن الأمة والجيش عساهم ينتبهون للهوة السحيقة التى فغرت فمها تحت أقدامهم . وما كنا فى حاجة لأن نتسقط الأدلة والعبر وعندنا كتاب الله يقرر فى وضوح وبيان « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » .

فهرست



الثمن ١٥ قرشاً